ر روايـــة

وجـع البعـــاد

يوسـف القعيـد



الطبعة الأولى : روايات الهلال . دار الهلال . القاهرة .
العدد : ٤٨٩ . سبتمبر ١٩٨٩ .
الطبعة الثانية : دار سعاد الصباح . القاهرة . والكويت ١٩٩٢ .

الضحى

– ١ –

جاء الغريب فى زفة إلى البيت ، فى زمن لم تعد عزبة العتقا تعرف فيه زفات ولا مواكب ، الناس شتت ، والمرابطون فى العزبة ، جفت الابتسامات على وجوههم ، ولم يعد الضحك ممكنا بالنسبة لهم ، وأصبح كل واحد منهم يهرب من اللمة ويخشى الونس .

فى الزفة ، كان كل أطفال العزبة وصبيانها وبناتها ، حتى الحوالى والماعز ، جرت حول الزفة ، إما فى المقدمة مثل حرس الشرف ، أو فى المؤخرة وكأنهم الغفر .

الفراخ القليلة هاجت ، والبط والأوز خرج من الترعة الراكدة ونتر الماء عن ريشه بهز جسمه ، والسحالى جرت مذعورة إلى جحورها بعيدا عن الاقدام التى يمكن أن تدهسها .

الأفندى الغريب جاء يبحث عن بيت :

– عمى عبده بركات .

هكذا نطق الاسم ، بصورة جعلت الذين استمعوا له يحاولون أن يضحكوا ، ولو فى عبهم ، وهم يتحسرون ، فعندما جاءت الضحكات لم يقدروا على الكركرة

بها ، ولأنهم عاشوا حتى شافوا ، افنديا يقول بكلمات ولغة أولاد البنادر « عمى عبده بركات » :

– عمى الدبب فى عينيه .

لم يكمل الولد الجملة، لأن الذى منعه وزجره ، ولم يتركه يتمها، صاح فيه :

– اخرس ياولد .

الغريب ضيف ، والبساط لم يصبح أحمديا بعد . والضيف كان شابا صغيرا، من أولاد البنادر . عبده بركات والقليل من الرجالة ، والكثير من النساء والأطفال والصبية فى الغيطان الواسعة الآن .

لا يبقى فى البيوت سوى الكراكيب والعجائز ، وكل من يشكو علة ، والأطفال الذين مازالوا فى اللفة ، قطعا من اللحم الأحمر ، والرجال ، إما هجوا، طفشوا، سافروا ، أو رجعوا يتسكعون وهم ينفقون ما جاءوا به ، وعندما تفرغ الجيوب يعودون للترحال من جديد .

فكروا فى فتح مضيفة العزبة للغريب ، ولكنهم أدركوا أنه ليس ضيفا للأعيان، سأل عن عبده بركات ، واحد من عباد الله الغلابة الكحيتى ، وهذا لا يجعلهم يفتحون له المضيفة .

الزفة تكبر من حارة لأخرى ، يمشى مع الغريب كل من يمر عليه . الجالسون يقومون ، يفركون الخمول اللذيذ الذى يغطى أعينهم ، وينفضون تراب الكسل الجميل عن أجسامهم ، التى نملت من كثرة الرقاد بدون عمل ، ويتحركون مع الزفة ، والذين يتسكعون ، يستديرون على كعوبهم ، ويغيرون مساراتهم .

مر الموكب على دكان بقال العزبة كحيل السحت ، حاول أن يهوى غبار الكساد عن البضاعة ، فك حبلى الدوبارة اللذين يربطان ضلفتى الباب إلى

الجدارين اللذين يشكلان واجهة الدكان ، مسمار ناحية اليمين ، ومسمار ناحية الشمال ، والدوبارة تصل ما بين الضلفتين والمسمارين .

هز الضلفتين بكل قوته ، حتى ينفض عنهما التراب ، الذى يغطيهما ، ثم فتحهما . علم بالخبر ، عرف الحكاية ، ضرب كفا بكف :

– ما سافرناشى ، إنما العجايب جت لنا لغاية عتبة الباب . استدار وهو يشنكل ضلفتى الباب فى جدارى الدكان :

– عبده بركات جت له ضيوف .

أحد الواقفين ، الذى ينتظر الفرصة ، حتى يطلب بضاعة شكك ، ويخشى رفض كحيل السحت ، الذى أصبح كالبغل من مص دماء الغلابة ، فالشكك ممنوع ، والزعل مرفوع ، والرزق على الله مضمون .

قال :

– باين عليه إبن ناس

رد كحيل :

– آخر زمن

اتجهوا بالغريب إلى الناحية التى يوجد فيها بيت عبده بركات ، وقبل أن يصلوا إليها ، انشقت عنه الأرض ، خرج من جوفها مثل فسية العفريت ، طويلا تدوس قدماه على الأرض ، ويصل رأسه إلى السماء ، ما يثير الضحك أنه رفيع ، عيناه حمراوان ، وجهه مغطى بشعر أبيض غير منظم ، هدومه أقرب إلى شكل الجلد ، لأنها لم تغسل منذ سنوات مضت ، على بطنه خرج ، وعلى ظهره خرج ، فى يده أكثر من بوصة ، ركبت مع بعضها لتشكل أطول عصا فى البلد ، يهزها فتشخلل ، يخبطها فى الأرض عندما يقابل الذين لا يحبهم ، ويتفتف صائحا : العصا لمن عصى .

وقف فى طريقهم ، أحد الذين كانوا يسيرون فى مقدمة الزفة .. مد يده :

– واد ياعصاية

أشار له أن يفسح لهم السكة حتى يمروا ، قال الطويل الهبيل لنفسه :

– يارحمة فين أراضيكى .

كررها أكثر من مرة .

قالوا للضيف إنه ولد مطيور ، نظر له وابتسم ، كل هذا ولد ، أكملوا أنه يخطرف هكذا منذ أن ظهر فى العزبة .

سد الطريق بعصاه ، ثم مشى أمامهم وهو يتكلم بصوت عال :

– فراق الحبايب مصايب

فراق الحبايب ، ياخلايق ، مر علقم .

قال له أحدهم :

– طبعا الضيف حايحل كيسه ويفرق ، وأنت بتقدم السبت عشان تلاقى الحد قدامك .

وقف فوقفوا جميعا ، أشار للضيف :

– دا أفلس من يهودى يوم السبت .

استدار وسار ، زعق بحس عال :

– اقفلى بقك ياعتقا وربنا يفوت الليلة دى على خير .

وقف من جديد :

– أعذر من أنذر ، دى حاتشلب دم ، بس عمرها ماحاتشبع منه .

نظر إلى الموكب وسأل :

– هيه العتقا أنخبطت فى نافوخها ؟

وفى العزبة لكل أسم قصة ، قالوا للضيف ، إن الولد العبيط يسمى نفسه عصاية ، على اسم عصا سيدنا موسى التى رماها للكفار فأصبحت حية تسعى ، وتأكل كل تعابينهم .

كانوا يضحكون ويسخرون ، ولكن الضيف لم يشاركهم الضحك ، أصابه ضيق مما قاله الولد عصاية .

قابلهم الغفير ، عينا العمدة اللتان تريان كل ما يجرى ، وأذناه اللتان تسمعان حتى دبة النملة ، رأوا الغفير بدون بندقية فالدنيا نهار ، سيلزق لهم ، قرد قطع ، لن يتركهم حتى يمشى الضيف من العتقا ، لم يصدقوا أنفسهم ، عندما قابلهم الغفير بعدم اهتمام ، أو هكذا خيل إليهم ، بعدد أن ابتعد الغفير عنهم ، أقترب فم شاب من أذن الغريب ، وهمس له :

– كويس أنك ما أتكلمتش معاه ، أصل بين العمدة وبين عبده بركات ضديات ، وده معرص العمدة وخباصه .

سأل الشاب الغريب :

– هوه بركات ماقالكشى ؟

أفاق الضيف من تهويماته على السؤال :

– آه ، قايلى طبعا ، إنما الدنيا تلاهى .

يحكى له ماجرى وهم يسيرون ، بعض الكلمات تضيع فى الدوشة ، أو تتوه فى غيمة الغبار التى تتحرك فوقهم . مثل سحابة صيفية :

– دول رفعوا السلاح على بعض .

ويستمر فى الحديث ، عبده بركات فى ظروف صعبة ، كان الواجب على

بركات أنه يحضر بنفسه ، سمع الضيف الكلمات وهو يدرك أن حظه نحس ، جاء فى الوقت الذى لم يكن يجب الحضور فيه .

صوت الشاب الذى يروى لا مفر منه :

– دى الناس مدارياها الحيطان ، تلاقى بركات ماحبش يحملك همومه فى الغربة .

كانت الحكاية غريبة ، عمدة العتقا قرر إقامة أحد مشروعات الأمن الغذائى ، ذهب إلى البنادر وقابل الحكام ، وعاد ومعه أوراق كثيرة ، عليها أختام النسر وتأشيرات بأقلام حبرها أحمر ، مكتوب فيها قرار بنزع ملكية الأرض التى سيقام فيها المشروع للمنفعة العامة ، على أن يتم تعويض أصحاب الأرض مستقبلا من عائد المشروع «موت ياحمار على مايجى لك العليق يعنى» .

وقع المشروع فى قرابيز الأرض التى يزرعها عبده بركات وأرض بعض جيرانه ، مع أن أرض العمدة يرمح فيها الحصان من بكة الشمس حتى مغربها ما يجبشى آخرها .

الناس لبعضها ، حاول أهالى البلد ، والأجاويد من الناحية ، ورجالة العب أن يصفوا الموضوع ، قعدة رجالة وحق عرب ومحضر صلح ، ولكن العمدة راسه وألف سيف ، لابد من إقامة المشروع الذى سينقل حياة العتقا نقلة ولا فى الحواديت ، فى نفس مكانه ، معه أوراق الحكومة .

لم يعد هناك مفر سوى المحاكم ، تجمع أصحاب الأراضى رفعوا دعوى قضائية ضد العمدة ، اكتشفوا فى أول جلسة أنها ستكون ضد الحكومة ذات نفسها ، بعضهم نخ وبرك ، وقال «هيه الميه طول عمرها طلعت فى العلالى» ؟ .

بقى مع عبده بركات شوية رجاله ، إن خسروا القضية ينوون رفع السلاح

فى وش الحكومة ، وإن كانوا حاطين فى بطنهم بطيخة صيفى من ناحية حكم المحكمة ، دا ربنا اسمه العدل ، لكن المشكلة إن المحكمة زى الحكومة ، يومها بسنة ، والمحامى بطنه واسعة ، ياكل مال النبى ، والموظفون فى المحكمة ذمتهم أستك ، والناس فى البندر اللى فيه المحكمة يسرقون الكحل من العين .

المحامى يقول لعبده بركات ، والرجاله الذين معه ، أنه سيحصل لهم على حكم من ننى عين الحكومة والناس ، هنا ، قالوا لعبده بركات :

– هيه الحكومة حاتخلى الحكومة تنغلب لشوية فلاحين من الغلابة ؟! هيه المحكمة مش من الحكومة ؟! إنما دول حياالله شوية فلاحين .

همس الضيف لنفسه :

– الشدة هنا ، والشدة هناك .

انقبض قلبه وشعر بصعوبة فى تنفسه . جاءه الصوت الذى يحدثه :

– عبده بركات بيعد النجوم فى الليل ، ويضور عليها فى النهار ، وعندما لايجدها ينش الدبان من فوق وجهه ، ويبقى طول النهار قاعدا على رأس غيطه، تائها عما حوله ، وإن كان يدرك أنه سيمسك فى الأرض بأيديه وأسنانه ومطرح ماترسى حايدق لها .

– حود من هنا .

أشاروا للغريب على الحارة التى يوجد فيها بيت عبده بركات ، سبقهم الغبار إليها، الحارة مثل الخندق ، ما أن دبت أقدامهم فى أولها ، حتى فزعت طفلة كانت تعمل زى الناس على راحتها جنب الحيط .

ومن يمشى فى الحارة متجها إلى دار عبده بركات ، يبدو مثل النازل ، ومن يخرج منها يصعد إلى أعلى ، ولكن بدون سلالم . دخلوا الحارة من أولها ،

وفى مواجهتهم ، فى آخرها ، كان باب بيت عبده بركات خبط لزق ، ووراء ظهر البيت من الناحية الأخـــرى ، بيوت متناثرة ، تصـــل حتى الترعة ، ثم الغيطان بعـــد ذلك .

وقفت الزفة أمام باب البيت ، لا يوجد منفذ على يمينه ولا منفذ على يساره، الزفة سدت الحارة ، ولأن ضيق الحارة لم يتسع لهم لكى يسدوها بالعرض ، فقد سدوها بالطول ، من آخر الحارة حيث باب دار عبده بركات ، وحتى أولها من فوق .

من الأبواب والطيقان ومن فوق الأسطح رأى الغريب وجوه النسوة والأطفال والعجائز تنظر إليه ، البيوت متلاصقة وواطية ، ويمكن الغريب أن يمد يده فيشد بها الحطب من فوقها .

صفق البعض بيديه ، وصاح الآخرون :

- ياساتر

التصفيق والنداءات تاهت فى طنين الهمسات والغبار والزحام ، وضيق الحارة خلق حالة من الوش ، وأول ما تراه الأعين من البيوت فى العزبة هو الحيطان ، الباب صغير والشبابيك طيقان صغيرة ، فالستر عندهم أهم من الفتحات ، والجدار الذى يشكل واجهة البيت يبدو طوبة كما هو ، لم يطل ولم يدهن فى أية مناسبة من مناسبات الأعيان ، لا فى فرح أو نجاح فى انتخابات، ولا تتناثر عليه رسومات عن بيت الله الحرام الذى يحج إليه القادرون ، وخشب الباب لا يزال يحمل لونه الأصلى ، ولا يوجد فى منتصفه دم ذبيحة ذبحت فى العيد الكبير أو نذر وفى به سكان البيت لأهل الله .

لم يسمعوا أى رد من داخل الدار ، ومن يخبط على الباب استدار ورفع أصابع يده اليمنى إلى فمه طالبا من الآخرين السكوت ، وهكذا وضع كل واحد

أيضا أصابعه على فمه وهو يهمس : «هس» ، وفى وسط هذه الهسهسات امتدت يد ودقت الباب من جديد .

فى داخل البيت ، كانت ست أبوها ، مرات عبده بركات وأم عياله ، ومعها البنت هنية والولد نوح ، خبطة الباب وصلت لحبة قلبها ، سمعت ست أبوها أصوات أقدام تقترب من الباب وأخرى تبتعد عنه ، وهمهمة وأجزاء من كلمات ، وعرفت أصوات أولاد العزبة واستغربت ، ولاد البلد لا يطرقون الأبواب ويقفون فى انتظار أن تفتح ، يدفع الواحد منهم الباب باليد أو بالقدم ، وعندما يصبح فى العتبة يقول : ياساتر ، ثم يدخل ، ومادام ولاد العزبة يقفون فى الخارج مثل الأغراب لابد أن معهم ضيوفا .

ألف خاطر دار فى عقل بالها عن الغرباء الذين جاءوا ومعهم كل العيال الصيع فى العزبة ، إن كانوا من رجالة الحكومة لابد أنهم جاءوا ليأخذوا . فكرت فى الأرض والزراعة ونظرات الناس والكسوف والبهدلة . الأغراب ليسوا عابرى سبيل ، يقفون بالباب ، يطلبون كسرة خبز أو شربة ماء ، وإلا ما جاءت معهم هذه اللمة من العواطلية ، الذين لا عمل لهم ســـوى حط مناخيرهم فى كل أمـــر من أمور خـــلق الله .

وبيت عبده بركات ، مثل كل البيوت ، لا يقفل بابه سوى فى الليل الغويط ، ولكن ست أبوها قفلته لأنها تربى كتاكيت شرك ، اشترتها لها شريكتها نظلة مرات كحيل السحت البقال من بائع الكتاكيت عرفات النعناعى .

بسبب الكتاكيت الشرك أغلقت ست أبوها باب الدار بالضبة وبالعصفورة من الداخل ، ووضعت عصا فى المسافة بين الباب والجدار حتى لا تفتح الباب دفعة قوية من الخارج .

دق قلبها وشت عقلها ، جاءت الحكومة لتسند عمدتها ، لن يكتفوا بالأرض ، قد يشمل طمع الحكومة الدار ، من يدريها ، ربما وصلت ذراع العمْدة، ومعها بندقية الحكومة ، إلى عظام الجدود فى القبر .

وراء الباب العسكر ، يركبون خيل الحكومة الأبيض والغفر والسلاح والجرسة والفضيحة والشماتة والفرجة ، حمدت ربها وشكرته ، لا يوجد فى الدار الرجل ولا أولاده الصبيان ، لن تحدث صدامات ولن تخسر الجلد والسقط ، الأرض والرجالة ، ما كانت تتصور أن المصيبة ستأتى كالقضاء المستعجل ، ولكنها جاءت .

دقات الباب طحفشت الكتاكيت ، وتناثر الحب الذى كانت تلتقطه ، وانتشر الفزع ، وقع كتكوت فى مسقة المياه التى يشربون منها ، وكاد يغرق لولا أن ست أبوها مدت يدها وأخرجته من الماء وهو ينتفض ، نظرت إلى جدران الدار ، وانتفضت أكثر من الكتكوت عندما تصورت أنهم قد يطردون من هذا البيت .

كانت ست أبوها تلبس قميصا قديما تبدو من تحته أجزاء من جسدها ، الذى كان جميلا فى الزمان الذى مضى ، وكانت تنظر إلى الكتاكيت وتعدها ، تتمم عليها وتحسب ما سيعود عليها منها عندما تصبح دجاجا ، وتذهب ببصرها إلى الزريبة حيث الدجاج الكبير الذى اقترب موعد قسمته مع شريكتها ، وتحسب فى ذهنها المتعب ما يمكن أن تسدده من ديون زوجها وما أكثرها ، وما قد تشتريه لنفسها أو لعيالها من سوق التلات .

مدت يديها ، تحسست البيض الذى لا يزال دافئا ، والذى جمعته من تحت الدجاج ، عدته ، ست بيضات ، تضايقت ، ست بيضات من السهل قسمتها مع الست نظلة مرات كحيل السحت ، ثلاث بيضات لكل منهما ، ومع هذا تمنت لو أن

البيض كان سبعة ، إن هذا سيحدث مشكلة فى القسمة والبيضة الزيادة ستكون من نصيب نظلة ولكنها تستبشر بنمرة سبعة .

جاءت الخبطات التى هزت الباب ، وكان الولد نوح يلعب بالقرب منها ، اندفع نوح إلى العصا التى تزنق الباب ، قبل أن يدير العصفورة فيفتحه ، صرخت فيه ، طلبت منه أن يقف فى مكانه ، نبهته أن ينظر إلى الأرض قبل أن يضع قدميه فيها ، قد يدوس على كتكوت فيفعصه فتفعص عمره بيديها .

اتجهت ست أبوها إلى الباب ، طلبت من خلال الخيوط الموصلة بين الخشب وبعضه ، من الذى يخبط على الباب أن ينتظر ، ثم ندهت على البنت هنية لكى تساعدها فى لم الكتاكيت .

أدخلت الكتاكيت إلى حجرة لها باب وأغلقته عليها .

هش ، هش ، بيتك ، بيتك ، أما الدجاج الكبير فقد نشته وتركته فى الزريبة ، خلعت قميصها المقطع والذى كانت تلبسه على اللحم ، ثم لبست – على اللحم أيضا – جلبابها الأسود الذى تخرج به من الدار ، وهو ليس جديدا ، سواده باهت ، سرقت الشمس الحارقة لونه الأسود وأجرب وأصبح قريبا من لون التراب .

ران بركات على خاطرها ، قلب الأم الذى يطفطف فى صدرها ، كان دليلها ، ليست دقة الحبيب الغائب ، صوته يسبق دائما دقاته على الباب ، ينادى بنبرته التى تعرف كل ما فيها ، منابت شعرها وضوء عينيها وخفق قلبها ، يقول :

– افتحى يا أمه .

يكون البيت متروسا عن آخره بعباد الله ، ولكنه لا ينادى سوى أمه ، يطلب منها فتح الباب ، وهى تدعو له وكل الناس نيام ، أن يفتح الله كل أبواب الدنيا

فى وجهه . لو كان ابنها هو الذى جاء الآن لعرف سكته من نفسه ، ولكنهم خارج باب البيت زفة ، خلق لا أول لهم ولا آخر ، يتجمعون أمام باب دارهم ، رفت عينها الشمال ، فحاولت أن تمسك رموشها بيدها حتى تمنع رفتها ، فانخلع رمش بين أصابعها ، لأنه دايب شايب ، همست لنفسها بكلمات نائمة فوق القلب :

– اجعله خير يابو خيمة زرقا .

نظرت إلى سماء الله العالية ، التى كانت تبدو من وسط الدار غير المسقوفة ، كان فيها هدوء هذا الوقت من النهار ، والذى عكرته أصوات الذين ينتظرون خارج البيت .

قالت :

– يارب .

وقفت وراء الباب ، قالت بحروف ممطوطة ، مستطيلة الوجه :

– مين ؟

قالتها بحكم العادة ، وبحب استطلاع لم تستطع أن تخفيه ، ويد الولد نوح ترفع العصا وهى تدير العصفورة ، لم تكن تنتظر إجابة من أحد ، ومع هذا جاءتها الأصوات من الخارج قبل أن تفتح الباب .

قال واحد من ولاد العزبة :

– غريب .

وعندما تنحنح الغريب لكى يقول :

– من طرف بركات .

سكت الكل لأول مرة .

يدها كانت على الضبة عندما سمعت اسم بركات :

– بركات ، يقطعنى .

كيف لم تفكر فى البعيد ؟! هبت على صدرها لفحة مفاجئة ، توقفت ، مدت يدها إلى الباب ترفعه عن الأرض وتسحبه حتى لا يزيق وتتحرك مفاصله ويحدث كركبة أمام الغريب .

شد الولد نوح الباب بكل عفرتة الأطفال ، وهى مدت يديها تسند بهما عظام رأسها التى اكتشفت الآن أنها تنقح عليها ونزلت بيديها إلى المكان الذى كان اسمه صدرها فأحست بدقات القلب المتعب على جريد عظامه .

تداخلت المرئيات أمام عينيها ، خشب الباب ، الجدران ، الأرض ، الجزء المسقوف من وسط الدار ، درجات من الأسود والبنى ، وعالم داكن من الصعب أن يقال عنه إنه يشكل ألوانا فى الحارة ، نظر الغريب إلى الباب وهو يفتح ، البيوت أسرار ، لا تعرفها إلا عندما تعاشر سكانها ، وللبيوت روائح هى أول ما يهل عليك بعد أن يفتح سكان البيوت أبوابها .

انفتح الباب ، شم الواقفون روائح أسمدة وتراب معجون فى مياه غير نظيفة وذبل فراخ وشخاخ بهائم .

رأت ست أبوها لمة الصبيان ، تطوع أكثر من واحد وشاور على الضيف ، وقال إنه من طرف بركات . بركات ؟ ! ، شمت رائحة عرقه فى أنفها وكأنه يقف أمامها ، ورأت تلويحة يده المتعبة يوم الوداع ، الذى فر هاربا أمام الأيام التى تجرى وراء بعضها .

الدهشة جعلتها تحتار ، لا تعرف كيف تتصرف ، ها هو الغريب أمامها ، وجها لوجه ، نظرت إليه ، شاب صغير ، ممصوص الوجه ، نحيل القوام ، يبدو

مثل عود الذرة الذى لم يشرب كفايته من الماء ، ولم يوضع له الكيماوى الذى يصلب طوله ، أفندى صغير تفوح منه رائحة الطفولة .

نظر إليها ، الوجه منحوت من جدران البيت ، لا فى اليدين أساور ، وحلمتى الاذنين لا يتدلى منهما فردتا حلق ، وقفص الصدر عار لا تغطيه سيغة من الذهب أو الفضة ، لحمها تحت عظامها ، وجلدها مشدود على الآخر ، والعروق واضحة مثل خطوط الخرائط ، والوشم الرصاصى لا يبدو من سمار وجهها .

مدت له يدها بعد أن لفتها فى جلبابها الأسود ، سلمت عليه ، فأنزل عينيه فى الأرض ، وقال لها يا أمى ، ليس من أبناء البنادر البعيدة ، الذين تطل النظرات الفاجرة من أعينهم ، ولا تتقصع أحرف الكلمات البندرية فى أفواههم قبل النطق بها ، أنه ابن فلاحين ، من قرية قريبة أو بعيدة ، ليس هذا مهما ، المهم أنه ليس من أولاد البنادر .

هزت يده بقوة ، وهو لا يزال واقفا أمام الباب ، خرج من فمها رشاش كلمات كثيرة لا تعرف كيف نطقت بها ، نورت البلد يامراحب ، دارنا زارها النبى، لولا الكسوف لأخذته فى حضنها ، لعلها تشم فيه رائحة الحبيب الغالى .

ولكن مخزون الكلمات نفد سريعا ، لم تجد ما تقوله ، وبدا الصمت غير محتمل ، وهمسات الزفة أصبحت عالية ، والضيف لم يكن معه أى شىء ، «ياربى كما خلقتنى » ، قال لها :

– معايا جواب .

نظرت إلى ملامح وجهه ، حاولت معرفة ما فى الرسالة التى معه :

– زميله ؟

قبل أن يرد ، تنبهت ست أبوها ، إلى وقوف الغريب أمام بـاب البيت وحوله الناس :

– ياندامتى .

خبطت صدرها وأفسحت له الطريق :

– اتفضل .

كانت الكلمة له وحده ، ففهم الواقفون أن على كل منهم أن يروح لحال سبيله . قال واحد منهم :

– الضيف اللى جاى لهم .

أكمل آخر :

– والجرى للمتاعيس .

انطفأ الحماس الذى كـان يغطى وجوههم بطبقة من الانفعـالات ، وذبلـت أعينهم ، وبدءوا فى الانصـراف ، وكـل منهم يعلق على الموقـف بكلمة .

بدا الغريب مترددا وهو يدخل البيت بهدوء ، وست أبوها تركت باب البيت مفتوحا ودخلت وراءه ، أما الولد نوح والبنت هنية ، فقد وقفا أمام باب البيت ، الولد نوح يريد أن يراه كل أولاد العزبة ، فها هو ضيف يأتى لهم ، والبنت هنية تبحث بعينيها عن البنات اللاتى فى مثل سنها فى هذه اللمة .

كانت أرضية وسط الدار قد تناثرت فيها الحبوب وطرطشة الماء وذبل الحمام وزرق الفراخ ، وكان الضيف الذى لم تعرف ست أبوها اسمه ، ينظر إلى وسط الدار ، ويختار المكان الذى يدوس فيه قبل أن يخطو .

فى البيت مندرة ، ولكن لا يوجد فيها كرسى ولا كنبة من أجل الضيف ، فكرت ست أبوها ، وهى واقفة فى وسط الدار أن ترسل الولد نوح ، لواحدة من جاراتها تستلف منها كرسيا ، اكتشفت أنه لا أحد من الجيران لديه كرسى ، وأنهم جميعا يستلفون الكراسى عندما يحضر الحكيم لزيارة مريض من نظلة مرات كحيل السحت البقال ، أو من نسوان الأعيان ، صاحبات الطين .

حكاية الكرسى ذكرتها بالولد نوح والبنت هنية اللذين خرجا من البيت فى هوجة الضيف ، وقد يلعبان مع الأولاد حتى وش الليل ، أطلت بوجهها من الباب ونادت عليهما وأدخلتهما البيت .

الضيف أتعبه المشوار ، شاب ولكن حيله مهدود ، اتجه إلى الحائط وسند ظهره إليه ووقف ، تصرفت ست أبوها بسرعة ، جرت إلى الحجرة التى ينامون ويأكلون ويعيشون فيها ، أحضرت الحصير الجديد ، والذى اشتراه زوجها من أجل الضيوف ، ولم يفرشوه بعد ، لأن ضيفا لم يأت إلى بيتهم منذ شرائه ، كان الحصير ملفوفا ومربوطا بقطعة من السمر مسنودا إلى الحائط .

فرشت الحصير فى المندرة ، وأشارت للضيف أن يجلس ، كان الجلوس صعبا بالنسبة له ، محشور فى هدوم البنادر الضيقة . أحضرت له مخدة قديمة ، لم تكن المخدة محشوة بأنات المحبين . وألوان قماشها باهتة ، والقطن الذى جرى تنجيدها منه انكمش وأصبح فى ثقل طين الأرض ، وجه المخدة ، الذى كان أبيض فى زمان مضى ، أصبح مزركشا بدماء القمل والبراغيث وريالة الأطفال أثناء النوم .

فهم الغريب الموقف ، ثنى ركبتيه الطويلتين وجلس على المخدة ، مد قدميه على آخرهما ، حتى تمكن من خلع الحذاء الجديد الذى كان يلبسه ، أعاد ثنى قدميه وهما فى الشراب الجديد الذى اشتراه من بلاد الغربة .

جلس الغريب فى المندرة بمفرده ، اعتذرت ست أبوها ، الرجالة فى الغيطان ، سارحون وراء أرزاقهم ، كل بنى آدم يا ابنى - قالت ست أبوها - تناديه لقمته من بكة الشمس لغاية ضلمة الليل . قالت إنها سترسل فى طلب أى رجل من أى بيت فى العزبة ، لكى يجلس معه حتى يحضر رجالة البيت من الغيطان ، قال لها الضيف .

- مالوش لازمة .

شرح لها :

- أنا مش غريب .

قالت له :

- ما غريب إلا الشيطان .

ندهت على الولد نوح ، وعندما جاء أمسكته من يده ، وقالت له :

- اقعد مع الضيف .

هو رجل الدار الآن ، أدخلته المندرة التى يجلس فيها الغريب . قالت له . « نوح » ، طبطبت على كتفه : « آخر العنقود ، سكر معقود » ، كانت المرة الأولى التى تذكر فيها كلمة السكر ، بدت الكلمة غريبة وسط هذا الجو ، والبنت هنية زعلت فى نفسها ، لأن أمها تقول عن الولد نوح ، سكر معقود ، مع أنها هى التى تساعد أمها فى شغل البيت ، وتقضى لها كل مشاويرها من العزبة ومن الغيطان البعيدة ، قالت ست أبوها لنوح :

- الشاب دا يانضرى جاى من عند الغالى .

خرجت ست أبوها من المندرة وهى تقول لنفسها :

– دا جاى أيد ورا وأيد قدام ، لا شايل ولا محمل .

أبعدت الخاطر وقالت لنفسها ، يكفى مرسال بركات ، كفاية ورقة واحدة فيها كلام يطمئن البال عليه ، فكرت فى أمور كثيرة مرة واحدة ، فكرت أن تلبس هدومها التحتانية بدلا من الجلباب الذى على اللحم ، وأن تعلق على الشاى ، ثم ترسل فى طلب أبو بركات من الغيط ، فلن تستطيع أن تتكلم مع الغريب ، وأن جاءت لحظة تسليم الأموال التى معه ، سيكون من الصعب عليها عدها ، وقد لا تعرف أصناف هدايا ابنها الغالى المتغرب ، سألت نفسها : أين هى الأموال والهدايا ؟ ! طمأنت نفسها ، لابد أنه جاء بكومبيل مخصوص ، تركه يقف بعيدا عند مدخل العزبة ، من الصعب دخوله فى الحارات الضيقة ، وحسنا فعل حتى ينصرف المساخيط من الحارة ، ويروح كل واحد لحاله .

نظر الضيف إلى المندرة ، تسللت نظراته إلى وسط الدار ، الذى كان يراه واضحا من جلسته ، كان الفارق ضخما بين المندرة التى يجلس فيها ووسط الدار، المندرة على جدرانها بقايا بياض وبجوار الحيطان دايرن داير مصطبة ، ووسط الدار لا سقف له . والنظرات تصل حتى زرقة السماء الصافية .

رأى الجدران التى تساقط بياضها ، ثم ذاب الطين ، وبقيت قوالب الطوب يمكن عدها ، وإن كانت قد تآكلت حوافها وأصبحت مشرشرة متآكلة توشك أن تقع ، وقوالب الطـوب من الطين والتبن ، والحائط لا توجد عليه صورة واحدة معلقة ، وخشب السقف سرح فيه السوس .

شاهد أرضية وسط الدار التى لم تكنس ، والباب الموارب ، وحلق الباب الذى شرب مياه الأمطار وصهد الشمس ، وتبولت عليه العصافير والذباب وسرحت فى شقوقه الصراصير والسوس .

الضيف فى المندرة ، وست أبوها فى وسط الدار ، قبل أن تعلق على الشاى ، أطلت على الضيف :

– أعمل لك لقمة تسند قلبك ياضنايا .

تذكر أمه ، قال لنفسه ، الأم واحدة فى كل بلاد الله ، قلوب الأمهات أحجبة ، ووجوههن مساحات من العواطف ، أحمر وجه الضيف خجلا وهو يشكرها بكلمات ناعمة كالحرير ، لامت نفسها عند خروجها من المندرة :

– يادى الكسوف ، عزمت عليه زى عزومة المراكبية ، قلت له ، تاكل وألا أفت لك .

تصورت أنه رد عليها بصوت هفتان لأنها أخذته على مشمه ، قبل أن يرتاح فى قعدته ، دخلت عليه بحكاية الأكل ، جال فى خاطرها أن ابنها عرف كيف يصاحب ولاد الناس ، الشاب كله نظاكه وهدومه آخر قيافة ، وشكله عياقة على الآخر ، ذكرها منظره وجلسته وكلماته بقرايب ونسايب وصحاب أنور كساب، عمدة العتقا الذين يحضرون لزيارته من البنادر ، وابنها عندما تغرب قالت له : الخل الوفى أهم من سكة السفر .

الولد الذى فى المندرة يداه ناعمتان ، وخداه أحمران وجلده يلمع وشعره مسبسب ، وقد لا يحب الشاى الذى تكتب به حظوظ الناس هنا ، وربما تجزع نفسه من السكر الذى يصبح مثل العصيدة فى قمر الكباية وتحركه الملعقة بصعوبة ، ستعد له شاى أفندية ، أصفر فى لون المياه المتعكرة فى بطن الترعة أيام التحاريق .

شطفت البنت هنية كبايات الشاى ، وست أبوها عقلها مثل موج البحر ، يفكر فيما بعد الشاى ، الأكل ، الأطباق ، الصينية النحاس ، من أين تستلف ما

تريده ؟ جيرانها جيوبهم وبيوتهم أنظف من الصينى بعد غسيله ، فكرت فى السمن البلدى الذى يعطى الأكل شمخته ، قد يتعدى الأمر أكل الضيف ، ربما كان عليها أن تعد له زوادة يأخذها معه عندما يعود إلى بركات .

وجدت نفسها تفكر فى الغناء ، حاولت أن تردد كلمات الموال الذى تحمله الرياح للسيط عندما يحيى الليالى فى البلاد القريبة . كانت تحفظ الكلمات من كثرة ما سمعتها ، ولكن الكلمة الأولى وقفت فى زورها ، راحت تستعيد الطريقة التى يغنيها بها الشيخ عطا الله :

ياسواقى القلب لفى

اللى راح يرجع ويوفى .

- ٢ -

أتاه وش وابور الجاز وهو فى جلسته التى لم تكن مريحة ، أصبح الانتظار انتظارين ، كوب الشاى ووالد بركات ، وش الوابور ، الذى كان مألوفا له فى الزمان الذى مضى ، قبل سفره ، جعله يفكر فيما سيقوله لهم بعد قليل .

حمله صوت الوابور ، ومنظر براد الشاى الأزرق إلى ذكريات طفولته التى بدت له بعيدة ، راح ينتظر وشيش المياه عندما تتحرك فى قاع البراد وتستمر فى الحركة حتى لحظة الغليان ، التى تلقم بعدها الشاى ، ثم يفور البراد وقبل أن يندلق الشاى الفائر من البراد على شكل رغاوى تنزل من بزبوز البراد ومن حلقه، ترفعه من فوق النار بسرعة ، تمسكه بيدها فتلسعها سخونته ، لا تجد قطعة قماش تمسكه بها ، فتلف يدها فى ذيل جلبابها وتمسكه وهى تنفخه بفمها ، هكذا كانت تفعل أمه ، وهو نفسه ما تقوم به أم بركات أمامه .

الولد نوح ، كان يبحلق فيه صامتا ، واحد من شباب هذه الأيام ، البنطلون جينز ، والقميص مشجر مفتوح ، يطل من فتحة صدره زغب خفيف ، تنام وســطه سلسلة ذهبية مثلما تلبس بنات العمدة والبقال ، فى يده اليمنى أسورة ، وشكل الذهب أعجب الولد نوح ، الذى تصور أن هذا الضيف أسعد مخلوق على الأرض ، ذهب وأموال وسفر ، ريحته لوانضا تذكره بريحة المناديل التى يأخذها من العرسان فى الصبحية « يادين النبى » .

لم يدرك الولد نوح مدى التعب الذى يعانى منه أسامة علوان ، جلس فى ضيق المرأة الحامل ، منذ أن جاء من بلاد العرب وهو لا يعرف كيف يتصرف ،

شاهد مصر لأول مرة بعد سنوات الغياب من الجو ، النافذة صغيرة ولكنها مكنته من الرؤية ، غبار كثيف ، طبقات من الغبار ، يبدو أن الصحارى تحاول العودة ، لتلتهم الشريط المستطيل الأخضر الذى يحيط بالخيط الفضى الذى يلمع والذى لا يبدو لمعانه واضحا للعين .

حط على أرض بر مصر ، وصل إلى بلدته ، سلم على أهله وناسه وأصحابه ، وضع شنط السفر ، وقبل أن ينفض تراب الرحلة من فوق هدومه التى اشتراها من بلاد العرب ، والمصنوعة فى بلاد بعيدة لم يسمع عنها ، وقبل أن يقول لنفسه : كم تغيرت يامصر فى السنوات التى غابها عنها ، قرر أن يسافر من جديد ، أن ينزل إلى بحرى .

بنفس الهدوم التى عليها تراب الترحال ، ولكن بدون شنط السفر رحل ، فى يومه الثانى فى مصر ، إلى أهل الشاب الغريب ، كانت لديه رغبة فى الوصول إلى نتيجة فى هذا الموضوع الطارىء ، ويشيله من مخه ، كان فى الحكاية قدر من الغموض الذى يثيره .

من سفر إلى سفر ، وأى سفر ؟ ! يوم بحاله فى السفرية الواحدة ، ما أن خلص أسامة علوان من السفر الصغير والذى جاء به من بلاد الغربة ، حتى كان عليه أن يقوم بالسفر الكبير .

نزل من فرن الصعيد ، إلى طراوة بحرى ، مر بالقاهرة ، التى يقول الناس عنها مصر ، رمحت به السيارة من جنوبها حتى شمالها ، رأى القاهرة من ناحية قبلى ، فتصور أن عينيه وقعتا على مدينة أخرى أضجرها الخوف والقلق والحذر ، شاهد عددا كبيرا من المتسكعين بلا عمل أمام المحلات ، يركنون أجسامهم على الحديد وموانع المرور ، أعينهم مفتوحة كعدسات تصوير مستعدة

لالتقاط كل التفاصيل الدقيقة ، سهارات صارخة الزخرفة ، سيارات على شكل علب سجائر ، المدينة كرنفال عجيب ، ألوان متوهجة على أجساد نساء تفح وجوههن بحالة من الشبق ، الطيور هربت ، الأشجار تحركت من مكانها ، والحيوانات هجت .

استغرق مروره بالقاهرة وقتا طويلا بسبب إرهاق الزحام ، لاحظ أن أحد الشوارع نظيف ولامع رغم أن باقى الشوارع الأخرى معفرة مرهقة ، يسكن هواءها الغبار الذى يمكنك أن تراه واضحا ، استفسر عن سر نظافة هذا الشارع ، قال له أحد الركاب إن الندل يستقبل الاعادى ، أعور العدا فى بر مصر اليوم ، هل تعرفه ؟! قـــال راكب آخر : له عين واحدة فكيف سيرى بر مصر ؟! أكمل راكب ثالث : ربما يرفع العصابة السوداء من فوق العين المغطاة ، قد يكون تحت العصبة عين .

تحدث راكب رابع فى العربة ، كان يبدو شابا مثقفا ، يقرأ الجرائد والمجلات والكتب منذ أن ركب السيارة ، وجهه ممصوص مدسوس فى الصفحات التى كان يفردها بين يديه ، قال :

- ربنـــا يستر ، أنا خـــايف ياخذ معاه هرم من الاهــرامات الثلاثة وهو راجع .

سائق السيارة الاجرة ، الذى كان يكح طوال السكة ، ويتف البلغم على أسفلت الطريق بكثافة ، لدرجة أن أسامة علوان سأل نفسه : كيف يتحمل صدره كل هذا البلغم ؟ قال السائق :

- هيه مشكلة ؟ يسرقهم اللص واحنا نعمل تلاتة غيرهم .

الشاب المتعلم لم الجرائد ، وضعها بجانبه وأنزل زجاج النافذة الذى بجواره ، نظر إلى الشارع ، رأى الجنود الذين يقفون على الأرصفة ، الرصيف

الأيمن ، والرصيف الصغير الذى يقسم الشارع إلى شارعين ، والرصيف الأيسر ، الجنود أعطوا ظهورهم لبحر الشارع ووجوههم للناحية الأخرى ، والضباط يمرون عليهم وفى أياديهم تليفونات لاسلكية ، يقربونها من أفواههم ، يتكلمون فيها ، ثم يرفعونها إلى آذانهم ويستمعون إلى ما يقال لهم .

سيارتهم مبحرة وإجراءات موكب الاعداء مقبلة ، فى النهر المقابل لهم من الشارع ، وشاهد الشاب بعض المخبرين بصورتهم التقليدية ، الجلباب البلدى والبالطو حتى فى عز أيام الصيف ، والطاقية الصوف والبلغة السوقى ، والتلفيعة حول الرقبة ، والجرائد المخرمة من أكثر من مكان فى أياديهم ، وسيارات الشرطة تقف على النواصى وفى الزوايا والأركان ، ونش يمر لجر أية سيارة تخالف التعليمات العليا ، وتقف فى الشارع ، شاهد جنودا مرصوصين فى الشرفات وفوق أسطح البيوت وفى أياديهم البنادق والمدافع وتتدلى من وسطهم القنابل .

مط الشاب المثقف شفتيه ، وضرب كفا بكف :

– زيارة مسلحة ، موكب بالقنابل ، لقاء تحت فوهات المدافع الرشاشة .

خبط رأسه بيديه :

– معقول ما يفعله بنا الجبان .

بدا له أن ما يراه مشهد من مسرحية لا معقولة ، أو لقطة من فيلم عبثى ، استراحت نفس أسامة علوان لكلام الشاب المثقف ، رغب فى التعرف عليه ، والشاب كان اسمه نظمى أحمد ، موظف فى الحكم المحلى ، يعمل سكرتيرا لأحد مجالس القرى ، وبدلا من أن يتحدث الشاب الذى يبدو أن فى فمه مليون لسان ، تكلم أسامة علوان ، الذى كان قليل الكلام منذ ركوبه السيارة ، حكى أجزاء من حكايته ، شعر أن حمول الهموم بدأت تنفك بعيدا عن قلبه ، نظمى أحمد كان لماحا ، سريع البديهة يفهمها وهى طايرة . قال له :

– أنت المرسال الذى جاء من بلاد العرب .

أشار إلى الذين يقفون فى انتظار الموكب وقال :

– والأبعد مرسال الأعادى .

رفع يده اليمنى فى الهواء :

– كفك

فرد له أسامة كف يمناه ، فخبط الكف على الكف :

– بصرة مراسيل يابطل .

وأكمل :

– مكتوبة لك .

رأى أسامة علوان سيارة لامعة ، على مقدمتها علم أزرق اللون ، فى وسطه النجمة السداسية التى كان يشاهدها فى تليفزيونات العالم ، كلما تجدد الحديث عن الحرب بين بلاده وبين الأعداء ، لون السيارة رمادى ، مثل سماء الصيف الجافة ، قال لنفسه كم يكره هذا اللون الرمادى .

كان الشارع مقفولا والناس ممنوعة من المرور ، وزير من العدا يزور البلاد ، يقول أحد الركاب إن الجرائد لم تكتب خبر الزيارة ، يرد عليه نظمى أحمد :

– اليومين دول بيجوا سكيتى ولا من شاف ولا من درى .

يكمل :

– عملها وضيعته رصاصة .

قال أسامة علوان :

– كنا فاهمين بره إن الحكاية انتهت ، وأن مية النيل راحت منها العكارة .

قال له السائق :

– مية بحر النيل لما تتعكر تحتاج سنين عشان تروق وتحلى من تانى .

مد نظمى أحمد يده ، أشار للشارع المهجور ، قال إنها صدفة نكد ، سأل نفسه وهو يحاول أن يتذكر بأى وجه نحس أصطبح اليوم ، قال إنه متأكد أنه قابله غراب أسود يحلق فوق شواشى شجرة ذكر أو ربما قابلته بومة تقف على رأس كوم سباخ . انكتب عليه أن يمشى فى نفس الشارع الذى سيمر فيه الأعادى .

الجالس بجواره خفف البلوى عليه :

– هناك فرق ، هوه مقبل وإحنا مبحرين .

رد عليه نظمى :

– خليه يقبل ، عمـره ما حيلاقى ريق حلو قبلى ، الناس فى الصعيد واعرة ، تاكله وكل .

ذكره السائق :

– قبلى فيه الاثارات ، نسيت يأستاذ ؟!

فكر أسامة علوان فى الكلام الذى سمعه ، كأننا على موعد ، عودتى وحضوره ، حلى وترحاله ، طائرتى التى جاءت من بلاد العرب وطائرته التى حطت من وطن شقيق مغتصب ، صدفة هى أم أنه كان مسطرا فى الدفاتر حتى قبل أن أولد ؟ تتباعد نقاط البدء وتتنافر محطات الوصول ولكننا نتماس ونلتقى فى شارع واحد . قال نظمى أحمد :

– الهوان المباح ، يقدمه الخسيس لنا فى كل مكان من البلاد .

كاد أسامة علوان أن يقول : ليتنى ما عدت ، ولكنه لم ينطق بها ، فهى بلاده فى الأول والآخر .

راكب بجوار أسامة علوان كان يكح بصعوبة قال :

– شدة وتزول .

انغرست الكلمة فى لحم أسامة علوان فأحدثت جرحا ، والجرح رسالة معه، الرسالة فى ظرف بريدى ، منقوش من حوافه الأربع بأجنحة طائرات وأجزاء من ذيلها . نظر إليها وسأل نفسه : كيف يمكن أن تطير . أدرك أن طائرات زماننا ، حتى تلك التى تطير فى سماء الله العالية وتشد الابصار وتخطف القلوب وتتشعلق معها الأحلام ، إنما هى طائرات مكسورة الجناح .

كل جوابات العالم تقرأ من عناوينها ، ما عدا هذا الخطاب ، لم يكن مكتوبا عليه عنوان ، فى داخل الظرف شريط كاسيت ، نزع من علبته ، وبجوار الشريط ورقتان . الأولى فيها العنوان : جمهورية مصر العربية ، الوجه البحرى ، محافظة البحيرة ، مركز إيتاى البارود ، قرية الضهرية ، عزبة العتقا ، عبده بركات ، فلاح بالعزبة .

الورقة الثانية ، تشرح ثلاث طرق توصل المسافر إلى العتقا . الطريق الأول ، يبدأ من كفر الزيات الموجودة فى البر الشرقى لبحر النيل ، حيث تنتهى مديرية البحيرة ، وتبدأ مديرية الغربية . يركب المسافر عربية نص نقل ، أو يمشى على قدميه ، حتى بلشيه ، وينتظر المعدية بجوار فواريك الطوب الأحمر على شط النيل ، ويعدى بها بحر النيل – الذى هو فرع رشيد – وعندما يصبح على البر الغربى ، تكون العتقا تحت جسر البحر العالى .

الطريق الثانى : يصل المسافر إلى التوفيقية ، ويستحسن أن يكون وصوله يوم الثلاثاء ، يوم السوق الأسبوعى ، لأن العربيات تكون كثيرة ، والرجل تدب من بكة الشمس حتى غروبها ، وخلق الله ترش الملح لا ينزل إلى الأرض من زحامهم ، يركب من التوفيقية حتى كنيسة الضهرية ويمشى على قدميه من الكنيسة إلى العتقا .

الطريق الثالث والأخير ، وهو أسهلها جميعا ، من التوفيقية يصل إلى الضهرية ، وهى بلد صيتها عالى فى العب كله ، ومنها يمشى إلى العتقا . ومن يسأل فى أرياف مصر لا يتوه أبدا ، تصبح إجابات الناس سيارته وسفينته وطائرته ، يضعه الناس الطيبون فى ننى العين الجوانى ويغطونه برموش الأعين ، ويقدمون له البسمة واللقمة والهدمة وشربة المية وكباية الشاى الثقيل والسيجارة وغابة الجوزة والدار .

اكتشف أسامة علوان أن المغترب الذى أرسله طالت غربته أكثر مما ينبغى، هو لا يعرف الكثير عن التغييرات التى جرت وتجرى ، أسامة لم يمش على قدميه خطوة واحدة . عجل العربيات الذى يرسم خطوطا منقوشة على الأرض الترابية وصل إلى جحور الفئران وقبور الموتى فى الجبانات ورءوس الغيطان ومدارات السواقى . عربيات نصف نقل ترمح ، تنط القنايات وتقفز فوق المساقى وتقف فى وسادة الغيط ، تحمل حتى البرسيم من الغيط إلى الدار وتنقل كل المحاصيل الزراعية وتأخذ الغذاء للفلاحين فيصل إليهم ساخنا .

صباح يوم السفر ، فى بلاد العرب ، كان أسامة علوان يشعر بضيق ، يلفه أحساس كابوسى ، حرارة ورطوبة ورمال صفراء وشوارع مهجورة ، هل ينجو الفأر من المصيدة ؟ هل يخرج من هذه البلدان سليما ؟ وتصافح عيناه مرة

أخرى الوجه الصبوح ، وتتعب نظراته من ملاحقة زحام الشوارع ، وتشكو طبلتا أذناه من تلوث الضوضاء والصخب والضجيج ؟!

فى ضيق وتوتر تلك اللحظات الأخيرة ، حيث يخشى الانسان فى أى لحظة ، أن يتعطل مشروعه الخاص بالافلات من شبكة الصياد . لسبب أو لآخر ، فكر أسامة علوان أن يستمع إلى الشريط الذى معه ، تسلية طارئة يقتل بها هذا الوقت ، حيث تبدو اللحظة دهرا والبرهة عمرا . لام نفسه ، الناس أسرار ، حرام أن يغتصب معرفتها ، عاد وسأل نفسه : أى أسرار تلك ؟ وأى ناس هؤلاء ؟ لا مرسل الشريط يعرفه ، ولا المرسل إليهم رآهم من قبل ، لا أذنه سمعت أصواتهم ولا عيناه تكحلتا برؤياهم ولا اليد صافحت اليد .

حكاية غريبة ، وأى الأمور لم تعد غريبة فى هذه الايام ؟ أتى إليه ، فى اليوم قبل الأخير ، شاب مصرى ، لم يكن يعرفه ، وإن كانت الغربة تفرض تعارفا من نوع خاص ، اللهجة تصبح وطنا ، وملامح الوجه تتحول إلى قرابة من الدرجة الأولى ، واسم بلد ينطق به الإنسان عفوا يصبح سكة من القلب إلى القلب، ووصلة من الوريد إلى الوريد ، تمتزج فيها الدماء وتتآخى دقات القلوب المتعبة .

سأله الشاب إن كان نازلا ، والنزول يعنى السفر إلى مصر . قال : يظهر إنه مكتوب لى النزول وأنا حى . سأله من جديد : كيف تمكن من الخروج فى مثل هذه الظروف ؟ لم تكن لدى أسامة علوان رغبة فى الحديث . قال وهو يقفل الموضوع :

- الحكاية يطول شرحها .

تحتاج لنور نهارين ، وسواد ليلتين ، وبراد شاى ، وخرطوشة سجائر ، وبال رائق ، ورغبة فى الحكى ، تقابلها رغبة فى الاستماع :

- ما علينا .

قالها أسامة علوان وهو يشوح بيده اليمنى فى المسافة المثقلة بالحرارة والرطوبة ، التى تفصل بينهما :

- ما علينا .

رددها الشاب المصرى الذى لم يكن يعرفه ، والذى يراه لأول مرة ، وربما كانت الأخيرة أيضا .

قال له الشاب المصرى إن معه رسالة مهمة من إنسان فى شدة :

- بلدياتنا .

جاءت الكلمة فى وسط الجملة على سبيل الايضاح ، المصرى الذى فى شدة يريد أن تصل رسالته إلى مصر بأية وسيلة كانت ، وبأسرع ما يمكن :

- شدة .

قالها أسامة علوان لنفسه ، وأبخرة الضيق تحاصر صدره ، من هو الذى ليس فى شدة هذه الأيام ؟ دلونى على واحد لا يعانى من الشدائد ؟ ملامح وجه الشاب الغريب وطريقته فى الحديث تعطى الانطباع بأن شدة صاحب الرسالة تفوق أية شدة أخرى .

قطع عليه الشاب الغريب تأملاته :

- شدة فى غربة . تصور ! .

والشاب الذى حضر له - دون معرفة سابقة - ودخل بيته الذى لم يعد بيته، جلس معه فوق حقائب السفر فى صالة الشقة الواسعة ، وشرب كوب الشاى الذى

أعده له أسامة علوان بسرعة ، قال له وهو يتذوق الشاى ويمضمض به فمه قبل أن يبلعه ، ثم يحبس بعده بنفس طويل من سيجارته :

- همه كدا الرؤساء .

اتوغوش أسامة علوان من الكلام فى السياسة ، سأله :

- مالهم ؟

كان الشاب يتذوق الرشفة الأخيرة من الشاى ، رفع كوب الشاى على شفتيه حتى اقترب التفل من فمه ، قال له :

- يتخانقوا من بعيد لبعيد ، واحنا اللى ندفع التمن .

فئران المخاوف والظنون بحثت عن عب أسامة علوان لكى تجرى فيه ، وأسامة نفسه اكتشف أنه لم يعد له عب .

جاء ومضى ، ترك له سؤالا طارئا : هل الولد سياسى ؟ يتكلم عن الرؤساء والملوك والأمراء والسلاطين فى بلاد أهم ما فيها هم الكبار ، والباقون يعاملون وكأنهم وقعوا من قعر القفة .

فات أسامة علوان أن يسأله من هو ، وأن يقرأ أوراقه ، وأن يطلب منه الاستماع إلى الشريط فى حضوره ، فذلك حقه ، سيحمل رسالة من هنا وحتى مصر والمفروض أن يعرف ما فيها ، ربما ضاعت منه ، يصادرونها فى المطار ، معرفته بما على الشريط تنقذ الموقف . كل ما يدور فى ذهنه فات أوانه ، الفاس وقعت فى الراس ، وأى خطأ فى هذا الوقت المكروب قد يحبسه هنا إلى الأبد .

افرض أنه فكر فى الذهاب إلى المخفر ، سين وجيم وأوراق وتحريات وفتح ملفات وقد يبقى هنا إلى الأبد ، ليس أمامه سوى أن يكفى على الخبر ماجورا ،

وأن يحمل الرسالة ويسافر إلى بلده ، ذلك هو التصرف العاقل الوحيد ، أما ما في القلوب فعلمه عند علام الغيوب ، ومادام يفعل الخير فلن تكون النتيجة سوى الخير فى النهاية .

صاحب الرسالة فى شدة ، ربما يستطيع أهله فى مصر إخراجه منها وإعادته من غربته .

ترك له الرسالة ومضى بسرعة ، بقى أسامة علوان يعوم فى الفراغ ، يمشى ويتحرك ، للمرة الألف فكر فى الاستماع إلى الشريط ، ماذا يمكن أن يقول إنسان فى شدة لأهله ؟ الهم فوق القلب راقات :

- ياللا .

قد يكون فى الأمر مؤامرة تمنعه من الفكاك فى اللحظة الأخيرة ، مثلما يحدث فى أفلام السينما ، يعيدونه من المطار وهو على مسافة أمتار من سلم الطائرة ، أنهم يفتشون مسام جسمه ويفلون شعره وينظرون فى منابت الشعر ، أصابعهم فى المطار تجوس حتى فى نن العين وأحذيتهم الثقيلة تدوس فى حبة القلب ، فما بالك أن كان على الشريط مالا يجوز قوله وما أكثره ؟ ليته ما أخذ الرسالة ، هل يطوحها من الشباك لكى يبتلعها الصمت الخارجى ؟ هل يتركها فى الشقة ليتصرف فيها صاحب البيت أو الساكن الذى سيدفن هنا بعده ؟ هل من المعقول أن يوقعه فى هذا المطب واحد من بلدياته ؟ !

سيأخذ الشريط معه وليكن ما يكون ، عدم الاستماع إليه أفضل ، معرفة ما فى الشريط قد تربك رحيله فى اللحظة الأخيرة .

ضبط أسامة علوان نفسه يكلم نفسه ، حمد الله أن هذه الأعراض حدثت له وهو يتأهب للنزول إلى بر مصر .

وضع فى جيبه الأيمن جواز سفره وورقة الإقامة التى سيخرج بها من هنا ، وفى جيبه الأيسر تذكرة السفر التى ستنبت له جناحين يحلقان به إلى سماء الله العالية .

عاد يحدث نفسه ، هل يعرف الرؤساء الذين يشتمون بعضهم فى الليل والنهار ، أن هنا إنسانا فى شدة ، طول عمره لا يهتم بالسياسة ، وهو يفهم السياسة على أنها تصريف الأمور وتقديم الخدمات والكذب على الناس والضحك عليهم .

بدأ اهتمامه بالسياسة وأمورها بعد أن جرى ما جرى ، وبدأ يستمع إلى زملائه يتكلمون عن الذى حدث ومدى تأثيره عليهم هنا فى الغربة .

تصور أسامة أن هذا الخلاف - الذى كان قديما ولكنه تجدد بعنف بعد ما جرى - لن يتعدى الخطب وما يقال فى الإذاعات ويلوث هواء الليالى النادر ، وبعض المقالات فى الصحف التى تسود أياديهم بحبر كلامها الغليظ الأحرف من كثرة العرق الذى يشر من أجسامهم فى رحلة العودة المضنية من العمل إلى البيوت .

فى المقالات والإذاعات كلمات مكررة عن الخيانة والتسليم للعدو والتخلى عن الثورة ، وحوادث كثيرة يقولون إنها تجرى فى مصر . الكل يتهم الكل ، والجميع يخوِّن الجميع ، لدرجة أن ذهنه المتعب كان ينصرف فى أغلب الليالى عن متابعة هذا الذى يجرى وكان يسأل نفسه قبل أن ينام : متى يتعبون من الكلام ويكتشفون أن فى الصمت مزايا كثيرة ؟

سمع أسامة أن الخلاف وصل إلى حد السلاح ، الجيوش وقفت على الحدود ، والأيادى امتدت إلى السلاح ، وأصبح على العربى أن يقتل شقيقه ويذبح ابن عمه ويعطى ظهره لعدوه وينسى قضيته .

صلبت الجيوش حيلها ، وعمرت الجباخانات ، وفتحت مخازن الأسلحة ومستودعات الذخيرة ، وأعلنت إدارات الأمداد والتموين فى الجيوش عن حاجتها إلى موردين أجانب لتوريد تعيينات جافة لقوات تقاتل فى الصحارى بعيدا عن المدن ، ونشرت المناقصات فى صفحات الإعلانات فى الصحف عن وسائل نقل مياه عبر الصحارى الواسعة .

امتلأت خزانات الطائرات بالوقود ، وتقدمت شركات بعطاءات لكنس ممرات صعود وهبوط الطائرات فى المطارات العسكرية السرية ، وأعلنت حالة الطوارىء ووضعت المنطقة التى كانت تعانى من الكسل اللذيذ والوسن الجميل خوزة القتال على رأسها المدللة ونزل العساكر إلى الميادين العامة ، وانتشر رجال الأمن السريون والعلنيون فى كل زاوية وركن ، وهم سعداء بموسم العمل الطارىء والمفاجىء .

وسمع أسامة علوان الذين يتكلمون :

- لما العاصمة تقع كل العزب والكفور لازم تسلم

أكمل صوت آخر :

- دى أمة كبيرة بس من غير عمدة .

رد عليه ثالث :

- لما العمدة يطب ، الغفر يتصوروا أنفسهم العمد .

قال أسامة علوان لنفسه ، الخطأ بدأ من هناك . كان يرفض ما جرى هناك ، وإن لم يكن يحب أن يستمع إلى شتائم الآخرين موجهة إلى بلده ، مع أن الذى فعلها فرد .

قرر أسامه أن يسافر ، قال الكل إنه فعل معجزة ، فى زمن انتهت فيه المعجزات ، عاد إلى بلده وقد اختصر صورة الوطن فى ملامح وجه أمه الصبوح الذى ينير العتمة أمامه ، وصل إلى مشارف بلده . كان يبكى وهو لا يصدق نفسه، الذين خرجوا لملاقاته كانوا يبكون . قال لنفسه : إنها سعادة اللقيا . ارتمى فى أحضان أخيه ، سمعه يقوله له :

- شد حيلك .

تذكر الوجه الصبوح الذى يساوى العالم بكل ما فيه ، نظر إليه فى رعب . قال له شقيقه :

- المرحومة كان اسمك آخر حاجة نطقت بيها قبل ما يطلع السر الإلهى .

تحجر الدمع فى العينين ، قال أسامة وهو يشير إلى الجبانات :

- أزورها قبل ما أحط رجلى فى أى مكان .

جاءت الرحلة كهروب فى الوقت المناسب ، لو كان يعرف ما جرى ما عاد من هناك . مسافر هو إلى أهل صاحب الرسالة ، لابد أن له أما . فكر أسامة فى الأم التى سيقابلها ، أمه ماتت وهو فى الغربة ، لم يمش فى جنازتها ، لم يحمل نعشها على لحم كتفه ، لم تسمع وهى فى النعش نهنهة بكائه . ولم يرح رأسها فى نومتها الأخيرة ، ولم يضع طوبة نية تحت رأسها ، من يدريه ربما وضعوا قالبا من الطوب الأحمر تحت رأسها ، يظل على حاله حتى يوم الدين ، لا يدوب ولا يبوش ، يتعبها إلى يوم الموقف العظيم .

ثقيل هواء قريته ، غريب فى بيته ، الأم مسمار البيت ورحيلها يفكك جدران الدار وتتهدم حيطانه ، عـــاتب أهله ، حلفوا بايمانات غليظة أنهم

شـــدوا له تلغرافات وكتبــوا جوابات ، ولو أنهم يعـــرفون رقم تليفونه لكلموه من المركز .

أوشك أن يصدقهم وأن يكذب نفسه ، قرر أن يسافر فى الغد ، وهو يسأل نفسه : رحيل أم هروب ؟ إن تمكن من البعاد فإلى متى ؟ وإلى أين يبتعد عن البيت الذى أصبح بدون أمه ؟ !

نقحة القيالة

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون » .

استمع عبده بركات ، الذى كان عائدا من الغيط إلى بيته وقت القيالة لصوت الشيخ بخاطره فى الجامع ، توقف ، فكر فى دخول الجامع ليصلى ، كان فى الوقت الممتد بين صلاتين ، الظهر فاته ، صلاه الشيخ بخاطره بالرجالة الموجودين فى العتقا جماعة ، والعصر لم يحن بعد ، وعندما يصلونه جماعة فى صحن الجامع يكون هو فى الغيط .

نظر عبده بركات من باب الجامع المفتوح ، منذ أن بنى الجامع وبابه مفندق ، وسيظل مفتوحا حتى يوم الموقف العظيم ، رأى نفس المنظر الذى تعودت العتقا أن تشاهده عندما يرتل الشيخ بخاطره آيات القرآن الكريم ، المصحف مفتوح ، موضوع على ترابيزة صغيرة من الخشب المطعم بالعاج والصدف ، والمصحف والترابيزة من هدايا مريديه فى البلاد البعيدة ، والشيخ بخاطره كفيف لا يقرأ من المصحف ، يرتل من ذاكرته القوية ، انحاش نضره ولكن عقله دفتر ، يضع المصحف أمامه ، وأهل العتقا يقولون إنه يفرد المصحف ليوهم نفسه أنه قد يرى فى يوم من الأيام .

والولد « ميلم » هو الذى يحضر الترابيزة والمصحف من مكانهما ، يفرد الترابيزة ويفتح المصحف على منتصفه ، وهو يعرف المنتصف عندما تكون الصفحات التى فى الناحية اليمنى مساوية للصفحات التى فى الناحية اليسرى ،

ثم يبدأ فى الترتيل ، يرفع يسراه بالقرب من خده الأيسر ، وفى يمناه مسبحة صغيرة يحرك حباتها ببطء ، من يسمعه وهو يحلق مع كلام الله ، لابد أن يرى عروق رقبته المنفوخة ، تبدو العروق من أول فتحة الصديرى وحتى تتوه فى شعر ذقنه . وعندما تأخذه الجلالة توشك عروق رقبته على الانفجار من شدة الانتفاخ ، ويتفتف ، ويقوم الولد « ميلم » بتنظيف ما حوله إن وقعت عليه أى تفتفة .

– قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب .

لفت نظر عبده بركات أن الشيخ بخاطره يلحن ما يقوله ، فى صوته شجن لم يسمعه أحد من قبل ، لولا الوقت لدخل واستنجى فى المراحيض ، وتوضأ فى الميضأة ، وصلى وجلس يستمع إلى الصوت الذى يبدو مثل مناغاة اليمام على شواشى الشجر وقت الغروب .

– وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

مستعجل هو ، فى البيت ضيوف من عند بركات ، ولكن صوت الشيخ بخاطره أصبح حبالا من الحرير ، شده إلى داخل الجامع ، العجلة من الشيطان، وكلام الله يطرد الجن والعفاريت ، والشيخ بخاطره كان أقرب خلق الله للغالى المتغرب ، يسلم عليه ويخبره ، بشرة خير أن يكون الشيخ بخاطره أول من يعرف ، ربما يحضر مع الضيف إلى الجامع بالليل ، أو قد يفكر الشيخ بخاطره – حامل كلام الله فى صدره – فى زيارتهم والسلام على الضيف . يرفع رأسهم ويكبرهم فى عينى الضيف .

وقف على عتبة الجامع ، نفض قدميه من التراب العالق بهما ، حتى لا يفسد طهارة المكان ، كان صحن الجامع خاليا ، الشيخ بخاطره فقط ، ومعه الولد ميلم ، الشيخ بخاطره يقرأ فى سورة سيدنا يوسف ، الولد ميلم يعرف وعبده بركات يعرف والكل فى العتقا يعرف لأن الشيخ بخاطره كان يسعد سعادة

لا حدود لها عندما يرتل آياتها ، ويعيد ويزيد ويتوقف ، ويرفع يمناه التى فيها المسبحة ويقربها من خده الأيمن .

طراوة الجامع كنست الحر الذى طهق منه عبده بركات طول السكة وشربت عرقه ، والجامع يذكره بالجنة التى يسمع عنها الكثير كلما جاء إلى هنا . مشى فوق البلاط القديم المضلع ، والذى يبدو أحيانا من تحت قش الأرز المفروش عليه، ثم وصل إلى الحصر القديمة التى تآكلت من كثرة الاستعمال وطول الوقت .

نظر عبده بركات إلى السقف العالى والشبابيك الواسعة التى تكسر زجاجها فأصبحت مفتوحة دائما فى عز برد أمشير وصهد بؤونة . رأى الميضأة والمياه تنز من صنابيرها والنباتات الخضراء التى نبتت فى الحجارة « سبحانه » أدرك أن جسمه المتعب مغطى بعرق جف منذ قليل ، والعرق حول التراب الذى يغطى جسمه إلى خطوط سمراء ، اقترب من مكان الشيخ بخاطره فأصبحت الطراوة مثل جو الغيطان فى أيام الربيع المزهرة بالخضرة والهواء المشبع بالماء الذى يملأ الصدر وحجر الجلابية . وقف أمام الشيخ بخاطره وكان يقرأ :

– وجاءوا على قميصه بدم كذب .

توقف الشيخ بخاطره برهة ، أحس بعبده بركات واقفا أمامه ، الخشية تملأ قلبه أن يقطع ما يرتله . أكمل :

– « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون » .

وكعادته ، لم يخرج الشيخ بخاطره من السورة إلا بعد أن قال :

– صدق الله العظيم .

تكلم عبده على استحياء :

– مرسال بركات وصل يا مولانا .

قلبه فى صدره يسابق الكلمات ، يطفطف ، يريد أن يزغرد قبل وبعد النطق بها . نفسه مكروش ، صدره يخروش فى الصعود والهبوط ، وبدلا من أن يطير الشيخ بخاطره من الفرح بما سمعه ، قال :

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فهم عبده بركات ، أن الأمر فيه شياطين ، قال :

– الشر بره وبعيد ياسيدنا الشيخ .

لوح الشيخ بخاطره بيديه ، طاردا الهواء من حوله :

– هيه حبكت ، كان لازم تعدى دلوقت ؟

رد عليه عبده بركات :

– هوه الغالى كان له صاحب غيرك .

أدرك الشيخ بخاطره أن الأمر صعب ، كيف يفهم عبده بركات ما فى نفسه ؟ وعبده تصور أن الغلط وقع منه لأنه جاء والرجل يهيم فى السماء السابعة مع كلام الله سبحانه وتعالى ، وقطع عليه ما كان فيه . رجع عبده بركات بظهره ، ولكن الشيخ بخاطره لم يعاود التلاوة ، صمت ، رجع له عبده ، سأله وكان السؤال الخارج من فمه مختلطا بعرقه ورائحة جلده :

– فيه أية يامولانا ؟

رد الشيخ بخاطره على سؤاله بسؤال :

– مرسال بركات جه ؟

– أيوه .

– النهارده ؟

– الصبحية .

تكلم الشيخ بخاطره ولكن مع نفسه ، ضرب كفا بكف وقال :

– وكان أيه لازمته اقرأ السورة دى دلوقتى .

لا الولد ميلم ولا عبده بركات فهما شيئا مما قاله الشيخ بخاطره ، رفع يديه ناحية السماء :

– اللهم اجعله خيرا .

قبل يديه وجها وظهرا وكرر :

– اللهم اجعله خيرا .

سأله عبده بركات :

– هوه أنت شفت له منام شين؟

قال الشيخ بخاطره :

– لا يابنى .

قبل أن يمشى عبده ، سأله الشيخ بخاطره مغيرا الموضوع :

– السلام أمانة .

ثم استدرك .

– هوه بركات جاى أمتى ؟

قال عبده بركات :

– علمى علمك .

تمنى الشيخ بخاطره لو أن عبده بركات جاء وهو يقرأ الآية التى تقول كلماتها على لسان سيدنا يوسف لأخوته :

- « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين » .

لو جاء وهو يقرأها لتغير الحال فى نفسه .

يكمل عبده بركات طريق عودته إلى البيت . وكان قد بدأه من الغيط ، والشجر واقف لا يتحرك ، حتى الظل الذى تفرشه الأشجار على الأرض يختفى فى هذا الوقت من النهار . والقيالة وقت مقطوع بين رحمتين ، رحمة الضحى التى ولت ، ورحمة العصر التى لم تأت بعد .

وقت القيالة لا تخفف الحر فيه سوى فسية العفريت . منتصف النهار وقت مخيف مثل انتصاف الليل . يعود عبده إلى البيت لكى يتغدى ، المشوار صعيب وقدماه حافيتان وعندما تلامسان الأرض تطش فيهما نار الوقيد الأرضى ، مثل طشيش التقلية الذى لم يعد يسمعه ، حرم منه بيتهم منذ فترة ، وأن طشت أم بركات تقلية فتكون فى زيت التموين ، ولا يشم لها روائح الأيام التى ولت . وعبده بركات يتغدى فى البيت لأن ذلك أوفر .

أبو بركات ، عبده بركات ، وهو فى طريق عودته من الحقل إلى البيت ، عرف أن فى بيته ضيفا . ضيف ؟ ضيف ؟ ربما كانت المرة الأولى فى حياته التى يأتى له فيها ضيف ، مقطوع من شجرة هو ، ترك بلده وجاء إلى العتقا وعاش واستقر فيها . له أخت وجهها ضبابى فى عقله الغائب ، وله أخ ، ما زال يتذكر ملامح وجهه المغبشة فى ذهنه ربما كان له أكثر من أخ وأكثر من أخت ، البنات تزوجن وعشن مع أزواجهن فى بلاد الله الواسعة ، والاخوة شوتهم البنادر

البعيدة على نيرانها ، إنها المدن الصاخبة نهارا ، التى تطفو فوق بحار الأضواء المتلطلة ليلا ، منهم من عمل خفيرا ، ومن اشتغل مرمطونا ، ومن شال قصعة المونة فوق لحم أكتافه حتى انعوجت ، وصعد فوق السقالات وداس على المسامير والزلط بأقـــدام حافية ، تركوا البلد ومشوا بلاد الله خلق الله . وعندما لم يبق سواه ، حمل فأسه وكاره وهج .

ضيف من عند بركات ؟ وهل يعود المهاجر ويؤوب الغائب ؟ وهل نرى الذين تاهوا بعيدا ولم يبق لنا منهم سوى ذكراهم ، نحتفظ بها مثل أموال البخلاء ؟ مرسال بركات ، وبركات ليس ابنهما فقط ، أنه كل ما فى العمر ، الذى مضى وما هو آت ، منام الليالى وحلم النهارات ، البعاد والقربى ، الدمعة والابتسامة ، تكشيرة الأيام وابتسامة الليالى ، نهنهة العياط وكركرة الضحكات ، ضياء عمرهما وظلامه ، ليس لأنه الابن الوحيد الذى تعلم ولكن لأسباب يطول شرحها ، بركات ليس كبير اخواته ، تكبره بنتان ويصغره شقيقان وآخر العنقود طفلان ، البنت هنية والولد نوح ، أورطة عيال ، كوم لحم ، أكبرهم أسمها ست أبوها ، تحمل نفس اسم أمها ، كانت المرة الأولى فى العتقا التى يحدث فيها هذا ، وعبده بركات رفض حتى لا يقول الناس فى العتقا ، وألسنتهم هى أطول ما فيهم ، أنه رجل نعجة ، لم يذبح القطة فى ليلة الدخلة ، وقعت مناهدة وشد وجذب ، كاد الطلاق يقع ، تدخل ولاد الحلال .

لكى يميز الناس بين ست أبوها الأم وست أبوها البنت ، قالوا ست أبوها الكبيرة وست أبوها الصغيرة ، الخبثاء فى العتقا يقولون ، إن لعبده بركات ستين، الزوجة والابنة معا ، وست أبوها الصغيرة كبرت ، تزوجت وانجبت وتوقع الناس فى العتقا أن تسمى ابنتها ست أبوها ، مثلما فعلت أمها ، حتى يستمر السلسال فى العيلة ، ولكنها لم تفكر فى الأمر ، قال الناس :

- النار تخلف رماد .

ثم انقسمت الأسماء قسمة عادلة ، ابن حمل اسم أبو عبده بركات ، وآخر شال اسم أبو ست أبوها عسران ، والبنات أيضا جرى قسمة أسمائهن ، بنت سميت على اسم جدتها لأبيها : شوق ، وعبده بركات يومها قال إنه اسم أمه ، ولن يتنازل عنه .

قال الناس الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب ، إنه لا أحد يعرف لعبده بركات أما ، والبنت التى تسمت باسم جدتها لأمها كانت حفيظة .

يتوارثون الأسامى لأنهم - كما قال أعيان العتقا - ليس لديهم ما يتوارثونه سواها ، الاعنياء تحسروا أيامها لأن الاسماء فى مصر ببلاش ، لو كانت بفلوس أو عليها رسوم لفكر الناس - خصوصا الفقراء - قبل أن يطلقونها على أبنائهم .

تزوجت البنات ، وفرح عبده بركات لسرعة زواجهن ، يابخت من زوج بناته صغيرات ، فهو ليس غنيا وهن لسن جميلات ، ولا تحمل أى منهن طينا ولا مالاً ولا ذهبا فوق كتفيها . يتمنى أن ينزل هم الصبيان من فوق كتفيه ويستريح ، ياالله حسن الختام .

فى زواج البنات ، كان عبده بركات يرحب ويتكلم ويشخط وينتر ويرفض ثم يلين ويوافق ، وإن كان الكل فى العتقا يعلم أن الكلمة فى الدار هى كلمة ست أبوها والشورة شورتها . هى رجل البيت وعبده بركات ليس سوى شرابة خرج ، وهو بالنسبة لست أبوها ضل راجل ولا ضل حيطة .

مراعاة للخواطر يقول الناس إن الذى وافق هو عبده بركات مع أنهم يعرفون البير وغطاه ، من يرد أن يناسب عبده بركات يرسل زوجته تتكلم مع ست

أبوها ، من تحت لتحت ، يتفقان معا ، ثم يذهب هو إلى عبده بركات ، بار وعتب ، والاكابر استغربوا من جوازات بنات ست أبوها وعبده بركات . قالوا إن حظوظ هذه الأيام انطست فى نواضرها .

كان يقال لهم ، كل فولة ولها كيال ، والذين يجرون وراء بنات ست أبوها وعبده بركات يريدون مرة حمار شغل ، تخدم فى البيت والغيط ولا ترفع عينيها فى وجه زوجها ، وليست لها أى مطالب من البنادر ، مرة تشتغل وتخلف بهدمتها ولقمتها ، أما بنات الأكابر ، فتريد البنت من يقلعها لباسها وقميص نومها حتى يتمكن رجلها من النوم معها .

ست أبوها ابنة العتقا أبا عن جد ، أما عبده بركات فلا أحد يعرف أصله من فصله ، غجرى أو عرباوى أو صعيدى ، لا أحد يعرف من أين جاء ، مشى فى البر كله ، بلاد تشيله وبلاد تحطه ، إلى أن حط رحاله فى العتقا وأستقر وعاش فيها وتزوج ، سماه الناس الغرباوى فى البداية ، لا يملك أرضا وهى التى تملك قطعة أرض صغيرة ، وليس له مدفن والجبانة ملك أهلها ، والذى يسند قلب ست أبوها هو أخوها زيدان عسـران الكفورى ، الذى له هيبة فى قلوب النـاس رغم فقـره .

ست أبوها كانت صاحبة شورة سفرية بركات إلى بلاد العرب ، كمخرج وحيد من أزمتهم ، حتى يعود « شايل ومحمل » ، ويقبون على وش الدنيا ، ويتزوج جوازة تطلعهم لفوق .

زمان ، كان الناس ينادون بركات وأخواته بأنهم ولاد ست أبوها ، الاولاد غضبوا قبل أن يزعل عبده بركات ، مع أن أحدا لم يناد الاولاد باسم أمهم فى حضوره كنوع من الخشا والحيا وجبر الخواطر ، فهو فى النهاية رجل .

ظل الناس ينادونه باسم الغرباوى ، بعد زواجه من ست أبوها قالوا عنه راجل ست أبوها أو جوزها ، ثم بذر بذوره فى رحم ست أبوها، خلفت منه سبعة من الاولاد ، أربعة من الذكور وثلاث بنات لسن كالبدور ، فاعترف الناس باسمه .

ذهب إلى عمدة الضهرية ، وثبت الاولاد باسمه لكى يستخرج لهم شهادات ميلاد ، لا يعرفون فى العتقا كيف أثبت شخصيته لكاتب العمدة . البعض قال إن معه بطاقة ، والآخرون حلفوا أنه برطل الكاتب ودفع له حتى يستر عليه .

ويتهامس الناس بعد أن يمر عليهم ، ينتفون وبره ويقلعون ريشه ، ومع هذا لم يكن يكرهه أحد فى البلد ، فهو صبور حليم ، لا يحب الدخول فى مشاكل مع أحد ، أبناؤه الذين جاءوا فوق روس بعضهم ، غرسوا شجرة عمره فى أرض العتقا . يبدو عليلا من غير علة ، رغم أن ست أبوها أكبر منه فى السن ، إلا أنها أقوى منه فى الصحة ، كانت سمانة رجلها منذ سنتين مثل جذع شجرة ، خشبها تم نصبه فى أيام الرخاء . طول بعرض .

ما أن كبر بركات حتى خطبت له عظيمة ابنة أخوها زيدان ! عندما تزوجها عبده بركات تصور أنه أسعد رجال العالم ، وجد بلدا وامرأة وبيتا وغيطا ، ياسعده ياهناه ، وفى العتقا لا يعرفون التصوير إلا من أجل استخراج أوراق من الحكومة ، ومع هذا فإن عبده بركات مازال يتخيلها ليلة العرس ، فى فتحة أنفها خردلة من الفضة ، وفى أذنيها فردتا حلق مخرطتان من الذهب ، وفوق صدرها اللحيم صيغه ، وعلى ذقنها وشم على شكل قلة تنز منها المياه ، وفى رجليها خلخال من الفضة .

يعود لها عبده بركات قبل أن يقرر أى أمر من أموره ، والأولاد أخذوا ملامحها وتقاطيع أهلهـــا ، ولم يأخذوا شـــيئا من عبده بركـــات ولا أهله الذين

لا يعرفهم أحد فى العتقا ، تراهن الناس ، بعد الدخلة ، أن كان عبده بركات هو الذى يركب فوقها ، أم أنها هى التى تركب فوقه .

انقسم الناس - الذين يهتمون بهذه الأمور - إلى فريقين ، تشعلق مندوبان عنهم بحديد شباك المندرة التى كان ينام فيها عبده بركات مع ست أبوها ، خشب الشباك قديم وتمكن الرؤية من خلال فتحاته التى حفرها الزمن ، لم يروا شيئا بسبب الظلام ، وأن كانوا قد استمعوا إلى أصوات أكدت لهم أن الولد الغرباوى صاحب مزاج ، وأنها تستلذ بصوت عال .

قال الرجال وهم يضحكون إن المسألة تفانين أكثر منها عافية ، وإن الولد عبده يظهر - والله أعلم ورسوله والمؤمنون - أنه من الغجر المخاوين ، ولذلك عنده خبرة ويتفنن فى هذه الأمور .

جاء الولاد فوق روس بعضهم ، ضرب الرجال على المصاطب كفا بكف وقالوا :

- كل نطة بعيل ، مره زى عود السرو وراجل من النور، ماجمع إلا لما وفق.

وضيف بركات وصل فى الوقت الذى أوشكت فيه الحبال الدائبة أن تنقطع بين عبده وبين ابنه ، أصبحت محاولات الوصل بينهما مثل النفخ ، فى القرب المقطوعة ، لا يذكر عبده بركات بالتحديد منذ متى انقطعت جوابات بركات ، ولكنهم منذ شهور - لا يعرف أن كانت تكمل سنة أم لم تتمها بعد - وهم يكتبون الجوابات ، ويضعونها فى الأظرف ، ويشترون ورق البوستة ويلصقونه على الجوابات ، ويذهب بها أحد الأبناء إلى الضهرية ، حيث مكتب البوستة الوحيد فى الناحية ، يضع الجواب فى الصندوق بيده ، ثم ينتظرون ، ولكن دون رد واحد من عنده .

والجوابات تصل من الضهرية للعتقا بالمصادفة وحدها . مع أى شخص من ولاد العتقا يكون فى الضهرية ، يخطف رجله إلى مكتب البوستة ، يسأل عن جواب له فيعطيه وكيل المكتب كل جوابات العتقا ، يخلص منها ويريح دماغه من الواغش ، ومن يحضر جوابا من الضهرية إلى العتقا له الاجر والثواب عند الله . يكتب فى دفاتره لحظة وصول الجواب .

طريقة غريبة لوصول الخطابات ، لا تجعل أحدا يطمئن لوصول جواباته له ، ومع هذا ، كانت تصل الخطابات ، ولم يحدث أن ضاع جواب منها .

زمان ، زمان ، زمان ، كان هناك طواف ، بوسطجى ، يركب حمارا عجوزا مثله ، تحته المخلة مدلاة من الناحيتين بها الجوابات ، فى يده اليمنى لجام الحمار ، وفى يده اليسرى شمسية سوداء ، لا يناسب لونها الفرح الذى قد تحمله الجوابات ، التى تأتى من بلاد الله البعيدة .

يمر على العزب والكفور والنجوع ، يوزع مامعه ، له ماهية من الحكومة ، ويحصل على مسانية من كل محصول يزرعه الفلاحون ، بعد وفاته لم يأت طواف غيره ، انتظروا أن يعمل شاب طوافا، وأن يستبدل بالحمار العجوز حمارا من الحديد ، ولكن أحدا لم يأت ، ذهبوا يسألون عن الطواف الجديد ، قيل لهم أين هو الذى يعمل فى شغلانة الطواف ؟ كانت من أعمال الماضى ، جرى الزمان وذهبت معه .

عرض المسئولون فى البوستة عليهم إن وجدوا هم من يرغب فى العمل فمرحبا به ، قال لهم المسئولون ، إن الذين بقوا فى البلاد أصبحوا يبحثون عن المرعى وقلة الصنعة ، بعد أن هج الرجال وطفش الشباب ، والصبية يستعدون للرحيل ، العباد تركوا البلاد. أكد المسئولون أن البوستة أعلنت فى الجرائد تطلب

طوافين ، ولم يتقدم أحد لشغلة فيها مشقة ، لم يعد أحد يريد أن يشم رائحة عرقه فى بر مصر .

حاول عبده بركات أن يسرع خطاه إلى بيته ، فاكتشف أن صحته عليلة ، يفرد حيله فلا يطاوعه جسمه ، يمد طوله فيخونه ظهره ، وصلته أخبار بركات فجاءت له صحوة فى قوة صحوة ما قبل الموت التى يبحث عنها الناس ، سمع كلام الشيخ بخاطره ، فهم منه طراطيف لا تبشر بأى خير، فأدرك أن ظهره قد أصبح مقوسا ، وأن هذا لم يحدث له منذ أن تاهت منه أخبار بركات .

تعجب من حاله ، كان يتصور أن سفر بركات هو قارب النجاة الذى سيوصله لبر الأمان ، ولكن لا الذى سافر عاد ولا المشاكل حلت ولا قارب النجاة مر عليهم ، والرجل يشك إن كان هناك بر أمان أصلا .

وقف أمام بيته ، تطن حسبة برما فى دماغه ، والفكر يودى ويجيب ، لن يتمكن من العودة للعمل فى الغيط فترة ما بعد القيالة ، كيف فاته الأمر ؟ كان يمكنه المرور على صاحب الغيط فى بيته ويستأذنه ، من الصعب عليه العودة الآن ، تعبان وحوارى القرية فرن مصهرج ، صهدها واقف ، عموما سيتفاهم معه بعدين .

سلم على أسامة علوان ورحب به ، جلس بجواره ، طلب من ست أبوها أن تعلق على دور الشاى الثانى ، رآهما أسامة معا ، الرجل وزوجته ، سأل نفسه ، متى أنجبا ابنهما الذى فى بلاد العرب ؟ هل تزوجا وهما فى سن الطفولة ؟ تذكر سن والده ووالدته عندما خلفاه ، فقال الحال من بعضه .

شربا الشاى معا من براد واحد ، تساءل لم تعد له الشاى الخفافى الذى يختلف عن شايهم الثقيل ؟ وهو انكسف ولم يطلب ، أحس أسامة علوان بمرارة الشاى على طرف لسانه ، وخيل إليه أن لون لسانه بنى غامق ، عزم عليه عبده بركات بسيجارة لف ، من علبة دخان صدئة ، فشكره وقدم له هو سيجارة مكنة ،

أخذها عبده بركات بسعادة ، وضعها خلف أذنه وأشعل سيجارته اللف ، ولون السيجارة البيضاء كان واضحا وهو يبدو من بين سواد شعره ولون بشرته الغامق، ومقدمة السيجارة اندست فى شعره الخشن الأكرت .

خشى أسامة علوان أن يتلوث لونها الأبيض من الأتربة التى فى شعره ، هل يطلب منه تدخينها ويعده أنه سيعطيه غيرها ؟ وأن معه سجائر كثيرة ويمكنه شراء أكثر من علبة . ما علينا ، سيعزم على عبده كلما دخن ، فقد شم فيه رائحة والده الذى تركه فى صباحية عودته من أجل توصيل رسالة بركات لأهله .

– جلابية للضيف ياأم بركات .

قالت حاضر وهى فى الداخل ، أحضرت بعد قليل إحدى جلاليب بركات ، المقاس على قده ، طلب عبده بركات من أسامة علوان أن يخلع هدوم السفر ، وأن يلبس جلابية بركات الفلاحى ويستريح فيها . قام وأخذ الولد نُوح حتى يقلع على راحته .

أسامة كان يحن إلى براح الجلابية الفلاحى ، وأن يطقطق أصابع قدميه فى البلغة ، ولكنه ذاب فى كسوفه وسكت ، وهم أصروا على تغيير هدومه ، وهو قال – كذبا – أنه مستريح هكذا ، وست أبوها حسمت الموقف عندما قالت لعبده بركات :

– سيبه على راحته .

شعر أسامة علوان بحنين للتمشية فى الغيطان ساعة العصارى ، وأن يعب الهواء المشبع بالماء ويشم رائحة الأرض المروية ، ويرى الخضرة ، ولكنه لم يطلب وهم لم يعرضوا ذلك عليه . جلسا معا . قال عبده بركات ، بعد فترة .

– نجيب لقمة تصبيرة .

أردف :

– الطبيخ حايطول .

طلب عبده بركات من ست أبوها الأكل ، وكانت قد أعدته ، دخلت بطبلية عليها طعام كثير ومتناثر من بقايا أكل الفقراء ، ومعه ما اشتروه – شكك طبعا – من دكان كحيل السحت البقال ، وعبده بركات يجر منه على النوتة ، وهو دائما وأبدا ، مديون للبقال . حلاوة طحنية وجبنة ضانى وزيتون وعسل أسود .

شمر عبده بركات كميه :

– بسم الله .

أخذ لقمة وغمسها :

– أكلة على ما قسم .

عزم عليه من جديد ، أخذ يده وقربها من الأكل ، قال له مطمئنا :

– الأكلة الكبيرة حاتبقى على العشا .

وكلمة العشا جعلت عبده بركات يفكر فى تدبير العشاء ، زفر وطبيخ وأرز ومرقة يعصـــر عليها ليمون بنزهير ، حمل صعب ولكن ست أبوها قادرة على تدبيره .

نظر أسامة علوان إلى الطبلية ، كان يحلم ويمنى نفسه بأكلة فطير مشلتت وعسل أبيض وجبنة قديمة وقشطة ، يلهط منه حتى يدوخ وتتعبه أسنانه من كثرة المضغ ، لن يطلب منهم فطيرا ولا يحزنون حتى لا يقولون عنه بطنى وطفس وجاء من أجل الأكل .

فكر عبده بركات للحظة فى الفطير المشلتت ، فرصة يأكل على حس الضيف ، ولكنه تشاءم من مجيئه على باله ، فالتفكير فيه قد يعنى أن مصيبة ربما حصلت لهم ، وتكاليفه غالية ، وأسعار السمن والقشدة والدقيق أصبحت مجنونة .

يأكلان من ماعون واحد ، وما أبعد المسافة بينهما ، ست أبوها تدعو لبركات فى وسط الدار ، هكذا يفعل أهله معه ، أبوه يدعو له بعد كل صلاة وصوت أمه المتهدج كان يدعو له وقت الفجر وأمام أضرحة أولياء الله الصالحين ، لحظة الدعاء ، كانت تقترب من الضريح حتى توشك بقايا رموش عينيها أن تلامس حديد الشباك .

وأسامة علوان جاء من بلاد بعيدة ، السفر إليها يتطلب يوما كاملا ، والنهار ضاع نصفه الأول ، وها هى العصارى والمغربية تقتربان من العتقا . الباقى من اليوم لن يكفيه للعودة ، وسفر الضلمة خطر ، سيبقى عندهم الليلة ، ليلة أخرى فى هذا العذاب يحترق فى طيبتهم ويشوى جسمه تحت نظراتهم ، ليلة صامتة بطولها فى الضنى الذى لا نهاية له .

إن مشى ماذا يقولون عنه ؟ تحدث لهم وغوشة على ابنتهم ، قد يقولون إنه مشى لأنهم غلابة ، أياديهم لا تطول ما يقدمونه له . لا يوجد فى البيت سرير للنوم المريح ، ولم يشاهد تليفونات ولم يسمع صوت راديو لتسالى السهر ، والمياه لم تصل إلى البيت ، ولن يستحم فى الصباح ، والبيت لا توجد فيه دورة مياه ، والرجال يقضون حاجتهم فى ميضة الجامع والأطفال يشخون فوق كيمان السباخ فى الوسعاية ، أما النساء فيقرفصن ويعرين مؤخراتهن ويترثرن بأسرار العزبة فى الغيطان القريبة من العمار .

قبل أن يستمع عبده بركات لموافقة أسامة علوان على المبيت ، طلب من ست أبوها أن تذبح فرختين شمرت ، وأن تدس الأرز فى الأبرمة ، دخان الزفر لابد أن يملأ هواء البيت ويصل إلى الجيران ، لمن سيذبحون إن لم يذبحوا للعائد من عند الحبيب الغالى ؟

ضحكت ست أبـوها فى عبها وهو يأمر ويشخط ويعمل راجل قدام الضيف ، يوم ويفوت ، كله يهون من أجل الضيف . صحيح من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار ، هو يقول وعليها أن تنفذ .

جلس عبده بركات يحمى أسنانه للعشاء ، ويمنى نفسه بالخير الذى جاء له مع المرسال . الضيف لن يتعامل سوى معه ، وإن لم يكن متأكدا من أن جواب ابنه له وليس لست أبوها . « دى تبقى جرسة وفضيحة » . رتب فى عقل باله الأمور التى ينوى أن يفعلها بعد وصول خيرات بركات له ، قضيته مع العمدة ، شراء قطعة أرض يبنى فيها بيتا بدلا من العيشة فى ملك ست أبوها . طأطأ رأسه طويلا ويريد أن يرفعها ويشم الهواء ولو مرة واحدة . شراء قطعة أرض فى منطقة الجبانات لكى يبنى تربة له ولذريته من بعده . هل معقول أن يعيش فى بيتها فى دنياه ، وأن يدفن فى تربتها فى آخرته ؟ !

أما الحلم الكبير الذى لا يقدر على أن يحلم به ، فهو شراء قطعة أرض يزرعها ، ملك وخلص ، اليد مش طايلة والأرض لا وجود لها . . أن جاءت الأموال لن تبقى سوى مشكلة العمدة الذى يقف له مثل اللقمة فى الزور ، سيمنعه حتى لو طارت فيها رقاب وسالت دماء . لماذا يضع العقدة فى المنشار من الآن ؟ تأتى الاموال والتساهيل على الله .

لم ينس التفكير فى سفرية إلى بلده يبحث عن أهله وناسه حتى يروا ما حققه بكده وذراعه ، مشوار شبرقة يبرد به على قلبه المتعب من جفاف أيامه ومن إحساسه الذى يلازمه كظله بأنه غريب رغم الزوجة والبيت والأولاد

هل تذهب به الأحلام بعيدا ؟! يحج إلى بيت الله الحرام ويمسك بيديه شباك قبر النبى ويهتف من حبة قلبه :

– أجرنا يارسول الله .

هوا العصارى

فى العتقا مثل يقول :

– ولما يفرغ السلام على الضيف ، يبتدى تفتيش أكمامه . قالت العتقا مثلها وحكت حكاياها ، حتى تعبت العتقا – والله العظيم – من الكلام .

وما أقل ضيوف العتقا ، وما أكثر الغرباء فيها . والضيف يفرش أهالى العتقا له قلوبهم سجادة يمشى عليها ، ويغزلون من رموش أعينهم ناموسية تحميه من قرصات بعوض لياليهم وقت نومه ، وكل واحد من أولاد العتقا يكون مستعدا لأن يذبح أعز أولاده للضيف ، ويروى الأرض تحت قدميه بدمائه .

الغريب غريب ، عيونه مفنجلة ، شخص له عينا صقر وأذنا حمار وبجاحة ولاد الزوانى . جاء ليدس أنفه فى حياتهم ، ليفضح المستور ويكشف المستخبى ، ويعرى ما تحرص العتقا على اخفائه فى حواريها الخلفية .

والعتقا متوسطة الحال ، أكبر من عزبة يمتلكها أحد الاقطاعيين القدامى ، الذين عادوا مرة أخرى ، وأصغر من قرية . بيوت تعطى ظهرها للحقول ، وأبوابها تفتح على الداخل ، على داير الناحية ، وهو الشارع الرئيسى والوحيد فى العتقا ، وفيه جامعها الذى لا ثانى له ، وبيت شيخ البلد ، الذى يقولون له العمدة .

وداير الناحية يلف على شكل كعكة تتفرع منها الحارات ، ملتوية ودائخة ومسدودة فى آخرها ، الحارات مثل الخنادق والبيوت على جانبيها مثل الجبانات،

البيوت تبدأ على رأس الحارة كبيرة ولكنها تصغر كلما نزلت فى الحارة . وعندما تقترب الحارة من نهايتها تبدو قريبة من شكل الدهليز الذى يمر منه الإنسان بصعوبة . وأن جرى فى الدهليز طفل ونظر حوله ، لشعر وكأنه فى بئر غويطة ، يتسع قاعها ويضيق وسطها ، وتعود للبراح فى عاليها .

مجتمع محدود ، ما أن يقع حدث فيه حتى يكبر ويتحول إلى حدوتة وموال، على طريقة الحـــاضر يعلن الغايب ، يصبح لما جرى قدمين ، ينتقل من فم إلى اذن ، وكل واحد يضيف إليه ، ويحذف منه ، ويعيد صياغته بطريقته الخاصة ، مما يجعل الحدوتة فى صورتها الاخيرة ، لا تمت بأية صلة إلى بداياتها الأولى .

الافواه تقول ، والاذان تسمع ، وما بين الفم الذى يقول ، والاذن التى تستمع يتحول الخبر إلى حكاية من حكاوى العتقا .

والغريب له رائحة يشمها الناس ، وحكاية الغريب الذى أصبح ضيفا رنت على المصاطب ، وفى صحن الجامع ، وأمام دكان البقال ، كحيل السهت ، وفوق الكراويتة الموضوعة أمام دكان الاسطى متولى ترزى العتقا الوحيد .

ومن يرى العتقا من بعيد ، يطالعه عالم من الخضرة ، وأول ما يراه شواشى أشجار الكافور والجزورين العالية . العتقا هى جنة العب كله ، ريحانة يستريحون فيها من الهجير ، يحضر إليها الناس صباحا من كل بلاد الناحية ، يشترون الفاكهة ويصيدون السمك ويعودون آخر النهار .

وأهل العتقا ، مثل كل الناس ، يحنون إلى الفسح وشم الهواء وصيد السمك وشراء الفاكهة ، « ولأن العين بصيرة واليد قصيرة » ، فعلى الأقل ، يحضر الغرباء لكى يفعلوا هذا أمام أعينهم ، ولكن الشبان المتعلمين يرون أن ذلك قد يجعل من العتقا بلدا للتسالى ، مولدا مستمرا على مدار أيام السنة كلها ،

مولدا منصوبا وصاحبه لا وجود له . وهذا يدفع الناس للنظر إلى رجالة العتقا على أنهم غجر ، ونسوانها نور ، وشجرها مراجيح ، ومعديتها فلوكة عشاق ، وبيوتها غرز للحشيش والافيون .

أنور كساب ، عمدة العتقا ، كان يرى فى ذلك فوائد للعتقا ، كل ما يمكن أن يحضر قرشا للعتقا لابد أن يكون خيرا .

والخضرة ليست فى قلب العتقا ، ولكنها تحيط بها من الحوافى ، وأن كانت الخضرة ، تبدو فى الايام الاخيرة ، فى حالة صراع مع الطوب الأحمر الذى يهجم على المبانى ، والجازورين يحيط بالعتقا من الناحية القبلية ، والكافور من الناحية البحرية ، ولكن فى الناحية الشرقية ، حيث جسر البحر العالى ، لا يوجد سوى الصفصاف ، أم الشعور ، الشجرة التى تتدلى فروعها فى الماء كالمرأة التى تستحم .

وبالقرب من العتقا جنينتان ، جنينة كبيرة للمانجو ، مزروعة من أيام الباشوات والملك القديم ، وجنينة صغيرة للجوافة زرعها أحد الفلاحين ، والجوافة فاكهة الفلاحين الغلابة . أما المانجو فهى تسافر إلى البنادر القريبة ، وتقدم لعشاق آخر الليل ، الذين يحضرون إلى الجنينة من على الجسر ، من بره لبره ، دون دخول العتقا .

على مدد الشوف ، من يشاهد العتقا ، يشاهد دخانا يخرج من مداخن ، وهى ليست مداخن مصانع ولكنها مداخن فواريك طوب ، تصب الطوب من تجريف الأرض الزراعية ، ودخانها الذى يصل إلى عنان سماء الله السابعة ، يعطى وقت الأصيل ألوانا جميلة ومتداخلة . تنام العتقا تحت الدخان والخضرة مستسلمة .

وجسر البحر العالى يحده من الجانبين صفان من البوص والصبار وشجر التين الشوكى ، والأرض تحت البوص والتين الشوكى والصبار ، تصبح جحورا للثعابين والسحالى والفئران والعقارب ، من الصعب أن يتصور أحد كيف يعيشون مع بعضهم فى الجحور . ومن يمشى فوق جسر البحر العالى من العتقا إلى الضهرية ، يشاهد علامات زحف الثعابين على الأرض ، والرجال يقولون للاولاد إنهم كانوا يأكلون الفئران فى الزمان الذى مضى ، وأن لحم فأر الغيط لذيذ ومختلف عن لحم فأر البيت .

والعتقا تنام فى حضن جسر بحر النيل العالى ، الذى يأتى عند العتقا ويستدير ، فى لحظات الصفاء والرضا ، يقول أهل العتقا ، إن النيل يحضن بلدهم ، عشقها منذ بدء الخليقة ، ولم يشبع من حضنها أبدا . تشرب منه ويخصبها ، فى حالة جماع عمره مئات السنين . ولكن عندما يضيق الحال بأولاد العتقا ، يقولون عن هذا الدوران إنه مثل سكك الثعابين تلف حول العتقا من كل ناحية .

وجسر بحر النيل العالى يصبح عند العتقا مثل الثعبان الذى أكل فريسته، وخرج يزحف على مهله لكى يهضمها . وشباب المدارس من أبناء العتقا يفاخرون بموقعها . يقولون :

– موقع استراتيجى .

يشرحون :

– كل الطرق توصلك للعتقا ، بالبر والبحر .

ويضحكون :

– ناقص مطار ونقول والجو كمان .

والعتقا ليس لها زمام ، هى جزء من زمام الضهرية ، والأرض فيها نوعـان ، أرض تقع بين الجسر والبحر ، يقولون عنها طرح البحر ، وأرض بين العتقا والضهرية ، وكتب الجغرافيا تقول إن العتقا هى آخر نقطة فى محافظة البحيرة ، ويعدها البحر ثم الغربية . والعتقا تتبع الضهرية مركز إيتاى البارود ، وإن كانت كفر الزيات هى أقرب البنادر كلها إلى العتقا .

وللعتقا دروب ومدقات توصلها إلى الغيطان التى تحيط بها من كل ناحية ، وإن كان البحر شرقها ، ففى الغرب منها مصرف راكد ، يرمون فيه الفضلات .

والعتقا لم تكن لديها ربابة لتحكى سيرة بركات ، والذين سافروا وعادوا ، ومن سافروا ولم تعد العتقا تسمع عنهم حسا ولا خبرا . الغريب جاء ولزمن تحط العتقا فى عينها حصوة ملح . والغريب بكرة يحل كيسه ويفرق على العتقا . والعزبة ضربت كفا بكف ، وهى تخرج من وسن كل يوم ، أصبح الوسن دهشة ، فركت عينيها ، استفاقت ، حاولت استعادة صورة الذى غاب ، وإعادة خلق ملامح المتغرب بركات ، قالوا :

– هو لسه عايش ؟ دا اتنسى .

وقالت الأرملة الجميلة :

– وهوه بركات يتنسى ؟

سافر فقالوا إنها النداهة ، والعمدة أكد أن دود الأرض يحن لبعضه ، وفى جوابه الأول كتب بركات من البلاد البعيدة يقول : لو أقدر أقسم قلبى نصين ، نص يفضل معايا هنا ، ونص ابعته للعتقا ، آه لو أقدر لفعلت .

الذين يسافرون يعودون ، ثم يسافرون مرة أخرى ، وهناك من يعود ويبلط فى الخط ، ويحلف بعمره ورحمة من ماتوا ، وحياة الذين لم يموتوا بعد ، ما

يعملها تانى ، إلا بركات ، راح وقال عدوا لى ، وحتى الجوابات التى جاءت من عنده فى الأول ، كانت قليلة ، ورغم ندرتها انقطعت . ضرب أبوه كفا بكف : رضينا بالهم ولكن الهم مش راضى بينا . لم يعد هناك أمل ، فالعتقا لا يوجد فيها تليفون ولا مكتب تلغراف ، التليفون فى الضهرية ، والتلغراف فى التوفيقية ، ولا يستخدمهما أبناء العتقا سوى فى الفواجع ، وفاة أو قتل . وحضور فراش مكتب البوستة ومعه تلغراف غرامة لمن جاء التلغراف له ، مهما كان فيه من أخبار، يأخذ وهبته الطاق طاقين ، وهو معذور ، فالمشوار طويل يهد الحيل .

قال أبو بركات ، لو كان بركات قد ذهب للحرب ، لكانوا سمعوا رسائله فى بريد إذاعة العدا . سافر صغيرا ، عوده طرى ، خرج من حضن أمه إلى أحضان الغربة ، تساءلوا : وهل للغربة أى احضان ؟! وهكذا ، أصبحت سيرته تندق على الربابة ، فالزمن الذى سافر فيه لم يبق كما هو . نبوت الغفير الذى سافر وتركه ، أصبح الآن عكازا يتعكز عليه ، والجمل سقطت أسنانه ، حتى ذئاب الغيطان فقدت القدرة على العواء الذى كان يملأ ليالى العتقا بالرعب والخوف .

ثم جاءت أخبار المرسال ، وفى البيوت تحدثوا عنه ، واختلفوا على المصاطب حوله . البعض قال إنه مرسال من بلاد العرب ، لابد أنه دفيان ، وقال آخر : لأ .. حران ، لأن دفيان تقال فى الشتاء . ولكنه حران مرتين . مرة من الجو والثانية من الفلوس . قالوا : دلوقتى يلايم ايده على الفكة ، القرشينات . وقالوا : الورق الأخضر والاحمر أبو مادنة ، اختلفوا ، ثم اطمأنوا عندما قيل لهم إن المرسال سيكبش من جيوبه وسيعطى أهل بركات أولا ، ثم يفوت على العتقا بعد ذلك ، حلقوا مع الاحلام ، لدرجة أن واحدا منهم قال :

– الأموال ، دى امتحان لأولاد العتقا .

الذين ساروا مع أسامة علوان فى الزفة ، حلفوا بالايمان ، قالوا إنه لم يكن يحمل أى شيء ، العائدون من بلاد العرب يحملون فى الايادى وفوق الرأس وعلى الاكتاف ، والبعض يجر وراءه شنطا كبيرة تمشى على عجل ، وتتكعبل منه فى تراب الحوارى أكثر من مرة ، والعائدون يركبون العربيات المخصوصة .

– دا جاى مقشط .

يبدو أنه عاد من بلاد العرب بالمركب ، التى تتسكع فى كل موانى الدنيا ، وركب فى مصر القطارات والاتوبيسات ونط فى صناديق العربيات النقل :

– هيه الحكاية مزنقة هناك كمان ؟

قالوا ضاحكين :

– ياخوفنا يطلب أجرة السكة وهو راجع .

السفر ، الكل يسافر ، وبركات قالوا له ، إن الغربة ليست غية يمام ، ولا فتة شيوخ ، وليست قتة محلولة ، ولا تكية لاولاد السبيل . حلفوا باليمام الذى نجى أشرف الخلق ، فرد عليهم : أتعلم . أكدوا أن المشوار صعب ، قال : امشيه قالوا : الطريق طويل . أجابهم : أوصل لآخره . عين وأصابته بمرض الترحال والسفر ، ولا مفر من الطفشان ، نداهة الهججان نادته ، جنية الدنيا الوسيعة غوته . خاصم العتقا والبندر . والبر كله . لابد من الطيران ، ولكنه لم يحط على الأرض بعد طيرانه أبدا .

وأصعب ما فى السفر هو الاوراق الكثيرة ، إجراءات وتأشيرات وجواز سفر ، والذين سافروا قبله ، أشاروا عليه بأنه مادام قد مسك فيه وجع التوهان ، عليه بالذهاب إلى البندر القريب ، دلوه على من يذهب إليه لكى يقضى حاجته .

جاء الغريب ، وبدأت الحكايات ، وهى مثل حبال الصوف ، كل ما تشدها تتمط ، وتظــل فى مطها بلا نهاية . وإن كان الضيف قد جاء إلى بيت عبده بركات ، فقد اهتزت العتقا كلها لمجيئه .

(١) هنية

وبيت خطيبة بركات ، المتغرب ، كان أول البيوت التى عرفت بوصول المرسال ، وخطيبة بركات لها ثلاثة أسماء ، مثل سلو البنادر ، بعد أن تسلل إلى العتقا ، الاسم المكتوب فى أوراق الحكومة : عطيات . وعندما ينادونها : عظمه ، أما فى ساعات الصفــاء وما أقلها فى حياتهم فإن الاسم يتمدد ويصبح : عظيمة .

وبين العتقا ودار زيدان مشوار ، فهى وسط الغيطان . ، وحولها من كل ناحية غيط يزرعه خال بركات ، يمتلك أقله ويؤجر أغلبه ، خرج من كتمة العتقا ودخانها وزحامها وكلام الناس ، للبراح فى الهو . بجوار بيته ساقية وحولها تكعيبة عنب وأشجار توت وجازورين وكافور .

فكرت ست أبوها فى إرسال الولد نوح إلى دار أخيها . ولكن السكة بعيدة ، والطلبات التى تحتاج فيها إلى نوح كثيرة . أرسلت ست أبوها البنت هنية إلى دار خـــالها ، تطلب أشـــياء من أجل الأكـــل وتطمئن قلب عظيمة المتشحتف على بركات .

البنت هنية ركبت الشبشب أبو وردة حمراء ، ووضعت طرحة على رأسها ، تحتها التربيعة أم ترتر . قالت لها ست أبوها وهى تقرصها وتحرك يديها أمام وجهها متوعدة :

– حسك عينك تحكى حاجة لحد فى البلد .

قالت هنية :

– وأنى حا أكلم حد برضك .

تراجعت أمها :

– قصدى البنات والنسوان

أكلمت :

– مالهمشى شغلانة غير نتف ريش الناس بلسنتهم .

فى الطريق ، كانت هنية سعيدة ، سمعت طرقات الشبشب فى قدميها ، وشعرت بحنية الطرحة على صدرها ، وملمس التربيعة الزرقاء على شعرها . شعرت بنظرات الناس إليها . الذين يتكلمون يصمتون لحظة مرورها ، والمشغولون بأمور فى أياديهم ، يتوقفون ، وتحاصرها نظراتهم منذ أن تقترب منهم ، وتستمر النظرات حتى تغيب عن أعينهم .

أدركت هنية ، وهى فى الطريق أن أمها تفهم أكثر منها ، تأكدت من ذلك عندما مرت على الجامع ، وسمعت صوتا يقول :

– صبروا ونالوا .

توقفت ونظرت ، حاولت معرفة الذى قال هذا الكلام ، ولكنها لم تتمكن . استخارت الله ، ونوت أن تطلب من أمها أن تحرق الشبة والفاسوخة فى البيت ، وأن تدب إبرة الخياطة فى عين الحسود . دعت بمقام سيدى الغريب أن يحمى أخاها المتغرب من أعين أهل العتقا اللى ينبدب فيها الرصاص .

اكتشفت هنية فى السكة ، أن ما تعرفه عن الضيف وحضوره قليل ستسمع آلاف الأسئلة ، التى تسد عين الشمس ، مثل قواديس الساقية التى تكب الماء باستمرار ، ولا تعرف كيف تجيب عن السؤالات .

وبيت خالها زيدان ، فى الناحية الأخرى من العتقا ، بين جسر البحر العالى ، والبحر نفسه ، فى الأرض التى يسميها الناس طرح البحر . مشت هنية فى داير الناحية ، وصلت إلى سكة الغيطان ، أصبحت قرب جسر البحر ، طلعت مطلعا مثل السلم ، وعدت الجسر العالى ونزلت فى دحديرة واطية وخشيت أن تقع . ومن يعبر جسر البحر لابد أن يسف التراب الموجود فوق الجسر فى كل أوقات السنة ما عدا أيام الشتاء . وسف التراب يزداد فى الصيف ، ويصل إلى ذروته أيام الزعابيب . بعد الجسر مشت هنية على مدقات حتى وصلت إلى بيت خالها .

(٢) عظيمة

كانت شرقى الدار ، بينها وبين البحر أرض متجرّفة ، من أجل عمل الطوب الأحمر ، وكانت تكمل شغل كل يوم . تلم الجلة لكى تقرصها ، تكنس حول الدار ، تجمع الفضلات ، وتروى الزرع الذى يحيط بالدار . والمراسيل من دار عمتها لا تنقطع . من يأتى بطلب ، ومن يحضر لكى يبلغ رسالة . الخال والد . ومن تحضره الرغبة فى أن يشق عليهم . ومن ترميه الصدف بالقرب منهم فيأتى ، ليس بغريب أن يكون هناك مرسال كل يوم تقريبا .

ولكن عظيمة ما أن رأت هنية حتى انشرح قلبها ، هفهفت نسمة طرية على صدرها ، والمراسيل لا يحضرون فى هذا الوقت إلا لطارئ ، وحضورهم العادى يكون فى الليل ، والمراسيل لا يكونون هنية ، إنهم من الرجالة ، وحضور هنية يعنى أن هناك شدة قوية .

وعظيمة تسمع أباها يقول دائما ، قلب المؤمن دليله وهى تقول لنفسها ، دون أن يسمعها أحد : قلب العاشق دليله . هل حضر بركات ؟ لا ، لو أنه حضر

لكان قد جاء بنفسه . لا يمكن أن يصبر دقيقة واحدة فى البيت . جواب من بركات ، مكتوب لها فيه كلام وحكايات ووعود ؟ إن كان جوابا ، لماذا لم تحضره هنية معها ؟ مرسال بركات وصل ومعه الحل ؟ ! وخيوط عقدتها الحرير ، هل أوشكت أن تنفك ؟

تركت عظيمة ما فى يديها ، وغسلتهما فى القناية الصغيرة ، التى تمر أمام البيت من الجلة ، شمت رائحة الجلة الطازجة ، وشعرت بمقدمات الحر والصهد فوق الزراعات ، ورأت تموجات الهواء الراكد فوقها . امتد بصرها إلى البحر ، شاهدت قلوع الصوارى البيضاء العالية ، والسفن وقوارب الصيد ، ورأت غيمة من البخار فوق ماء البحر . وقالت إن هذا اليوم حره شديد وشمسه صعبة .

ضايق عظيمة طنين الصمت فى الغيطان ، عرفت أن فى بيت عمتها مرسالا من طرف بركات ، جاء من بلاد العرب . ولكن باقى الامور ظلت غامضة ، لأن هنية لم تعرف أكثر من ذلك . فرحت عظيمة عندما سمعت أن المرسال سيبيت الليلة فى العتقا ، إذن سيكون هناك كلام وحديث ، أخذ وعطاء . سيعرف والدها حكاية بركات ، وستعلم هى مصيرها معه .

تمنت لو أن الذى جاء هو بركات ذات نفسه ، بدلا من مرساله ، بنى آدم طماع ، لا يملأ عينيه سوى التراب ، ودود الأرض .

تنهدت وقالت :

– نص العمى ولا العمى كله .

تدرك عطيات عذابها من الآن ، وحتى تعرف ما جاء به المرسال ، أبوها شحيح الكلمات ، ويعتبر أن حكاية بركات ليست من الأمور التى تخوض فيها ، وأنها يجب أن تترك الكلام فيها للرجالة ، فهى ليست صاحبة الشأن . وأمها

تخاف أبوها ، وستظل أياما وليالى تشمشم وتتصنت من وراء الأبواب الموارية ، وتستجدى الحيطان الصماء والشبابيك المغلقة لعلها تعرف ما جرى .

سألت نفسها ، أليس من حقها أن تذهب إلى المرسال وتكلمه ، مادام مرسال بركات ؟ لابد انه معه سره ، وأنهما وشوشا بعضهما البعض ، وتناجيا أكثر من مرة ، وقالا شىء وشويات ، هذا المرسال هو الشخص الوحيد الذى يعرف حكايتها ، ستذهب إلى العتقا بالليل ، تتحايل حتى تسمع من الضيف نفسه ، بدلا من الاستماع إلى الآخرين .

أنفردت عظيمة بهنية ، باحت لها بمكنون صدرها ، انزعجت هنية ، التى كان عقلها أكبر من سنها :

– دا كلام الرجالة مع بعض يا عظيمة .

ردت عظيمة :

– بس دا خطيبى أنا مش خطيب الرجالة .

خبطت هنية صدرها ، الذى كان فى تماسك ثمرة الجوافة وهى على الشجر .

– انت اتخبلتى فى عقلك ، مين حايسيبك تسلمى على الغريب ، وتكلميه وتسمعى منه .

وقالت لنفسها :

– هيه الدنيا جرى لها أيه ؟

توقفت هنية عن الكلام وفكرت فى الامر . أدركت أن حب عظيمة للغالى ، ربما كان السبب فيما طلبته . حاولت أن تلطف الموقف ، وأن تستدرك ما خرج من فمها . فأكملت :

– الغرام مالوش عقل .

ونظرت إلى عظيمة :

– معذورة .

راح الفكر وجاء فى عقل بالها ، حول طلب عظيمة الكلام مع الغريب ، ولكن كيف ؟ اقتربت هنية من عظيمة ، طبطبت على كتفها بيدها ، وبان التأثر فى وجهها :

– لو قدرت حا أساله أنا .

لم يبد الاقتناع على وجه عظيمة . نظرت إلى هنية :

– نفسى أسمع منه هو ، دا مرسال جملى .

قالت هنية :

– لو أقدر آخدك معايا .

وصلت البنتان معا إلى الحل ، كلام هنية كان البداية ، والتمعت عيناهما واحتضنت عظيمة هنية أكثر من مرة . ستكذب هنية على مرات خالها . تقول إن أمها ، ست أبوها ، طلبت منها أن تحضر عظيمة معها . لكى تساعدهما – هى وأمها – فى طبخ العزومة للضيف .

زيدان ، أبو عظيمة ، فرح بالطلب ، ومحاسن أمها ، استبشرت خيرا ، وقالت إن ست ابوها معها حق ، فعظيمة معروفة فى البلد ليس بجمالها وحسنها فقط ، ولكن بأنها ست بيت لها نفس فى الطبيخ . طلبت محاسن من عظيمة أن تلبس لكى تذهب إلى دار عمتها ، من أجل ضيف جوزها بركات .

قامت عظيمة ، دخلت حجرتها ، فتحت صحارة هدومها ، خيل إليها أنها تلبس من أجل بركات ، وأنه عاد ، وأنه موجود فى العتقا ، وقد لجأ إلى هذه الحيلة ليضمن وصولها إليه سريعا ، فهو لا يصبر على إجراءات الفرح ، ولا يحب الحضور لها هنا ، حيث يكون اللقاء تحت أعين أبوه وأمها وأشقائها . قالت لنفسها ، ربما كانت تلك واحدة من ملاعيب بركات ، دبرها مع أخته الصغيرة .

فى طريق عودة هنية إلى العتقا ومعها عظيمة ، تغير الحال ، الدحديرة أصبحت مطلعا ، والمطلع تحول إلى دحديرة ، والتراب الذى يغطى جسر البحر العالى ، سخنته الشمس ، تغوص فيه القدمان ، وتصل السخونة إلى بطنى الرجلين عبر الشبشب البلاستيك ، الذى فى القدمين . كانت عظيمة ساكتة طوال الطريق .

تهمهم لنفسها ببعض أحرف من الكلمات ، وعلى ملامح وجهها الجميل تتعارك الانفعالات والاحاسيس ، وهنية حاولت الثرثرة فى الفاضية والمليانة لكى تسلى الطريق .

قطعت عظيمة صمتها فجأة ، سألت هنية إن كان بركات قد حضر بنفسه، أم أنه مرسال من طرفه ، ضحكت هنية بحريتها ، بنت مع بنت خالها . قالت :

– لازمن جالك فى المنام ليلة امبارح .

ارتفع صوت كركرة عظيمة أكثر :

– ما هو بييجى كل ليلة ، اشمعنى ليلة امبارح .

حلفت لها هنية ، بمقام سيدى الغريب ، وبرحمة من ماتوا ، وبحياة الغالى فى غربته أن الذى حضر مرسال بركات . وأنه لو كان بركات الذى حضر ، لكانت البلد كلها زغاريد ، ولتم زفاف عظيمة لزوجها فوق المحمل أو فى عربية ، بدلا من

المشوار السخن الذى تسكعانه . حاولت هنية أن تشعر عظيمة أنها – أى هنية – بنت جدعة ، تحب أخاها ، وتحب من تحب أخاها . وأنها كذبت ، وتصرفت من نفسها . وأن العائلتين ستكتشفان كذبها قريبا . طمأنتها عظيمة :

– نحكى لهم اللى حصل وخلاص . هيه محكمة ؟

كانت عظيمة سرحانة ، زاهدة فى الكلام ، وكل جملة تبدأ فى عقلها بكلمة واحدة : ياهلترى . ياهلترى ماذا فى جواب بركات ؟ وهل اقترب يوم فرحها ؟ كانتا تمشيان معا ، واحدة تحمل الحمول على أكتافها الأخرى فرحانة تكاد تجرى ، وتتوقف بعد عدد من الخطوات . تنظر تحت قدميها ، أصبحت هناك مســافة بينها وبين عظيمة . هنية سبقت وعظيمة تأخرت . ثم تقتربان من بعضهما البعض .

(٣) زيدان

سلمت البنتان عليه ، وقبلتا يديه . هنية سلمت الأول ، وبعدها سلمت بنته عظيمة ، التى لبست كل ما على الحبل من هدومها ، وأصبحت أحلى من العروسة فى ليلة جلوتها ، خرج معهما حتى باب الدار . نظر لهما وهما تبتعدان على المدق الصغير ، استمر ينظر لهما حتى أصبحتا نقطتين عند حافة الافق البعيد .

زيدان ليس فى حالته الطبيعية . منذ أن جاءت هنية . وهو يبدو كمن زرعها بطيخ فطرحت لفتا . كان يومه عاديا ، عمل فى الغيط حتى تعب ، جاء إلى البيت يستريح ويأخذ تشريبه ، يشرب زردة الشاى ويدخن كرسى المعسل ، ثم يعود إلى الغيط . وهو يشرب الشاى جاءت هنية . سلمت على محاسن مرات خالها . أمسكت يدها ورفعت ظهرها إلى فمها لكى تقبلها . سحبت مرات خالها يدها بسرعة ، قبل أن تلامس شفتيها واستغفرت وتمتمت بكلمات وأن كانت شفتا

هنية قد طرقعتا قبلة سمعوا صوتها واضحا ، اتجهت لخالها ، نزلت من فوق شبشبها ، ولفت يدها اليمنى فى طرحتها التى سحبتها من فوق رأسها :

- إزيك يا خال .

ترك زيدان يده التى مثل الرحاية فى يدها ، وانغرزت شفتيها فى كفه ، وأحست بشعر ظهر يده خشنا على شفتيها ، ولأن الشعر كان منفوشا ، فقد داعب خديها . قالت إن أمها تسلم عليه ، وتقبل يديه ، طفرت الدموع فى عينيها وهى تنظر فى وجه خالها ، رجلهم بعد أبوها واخوتها . مرسال بركات وصل . بربشت عينا زيدان فى هدوء . سألها عن المرسال ، فقالت إنه غريب عن العتقا .

أسئلة خالها كانت كثيرة ، وبعض الأسئلة جاءت من مرات خالها ، وكانت هنية لا تعرف كيف تجيب . ردت وأنا إيش عرفنى بقى . قالت: دا اللى عرفته ، وخلصت نفسها بأن طلبت من خالها الحضور لكى يعرف بنفسه ، وكلام الرجالة مع بعضهم البعض يختلف عن كلام البنات .

- وانت يا خال لك كلام مع المرسال ؟ .

سألها :

- الضيف حاييات والا مسافر النهارده ؟ .

هذه المرة أجابت :

- حاييات أكيد ، عزومته على العشا .

قرر زيدان عسران الكفورى أن يخطف رجله بعد صلاة المغرب وأن يروح الغزية ، والمشوار فوائده كثيرة ، يسلم على الضيف ، ونس لأخته وإشعار للضيف أن بركات ليس مقطوعا من شجرة ، وأن له ناسا وعزوة يسألون عنه ، ويعرف أخبار بركات بعد هذه الغيبة الطويلة ومتى يعود .

ما لم يقله زيدان الكفورى لنفسه ، انه يتمنى العودة بهدية مما أرسله بركات . لابد ان الضيف جاء محملا . لا يمكن أن يأتى ويداه فارغتان ، انه محمل بالكثير ، قد يحصل على علبتى سجاير مكنة ، أو ولاعة أو حتة قماش صوف إنجليزى معتبر ، أو مسبحة تنير من نفسها فى ظلام الليالى . لا يمكن أن يذهب ويعود منفضا . ومن المؤكد أن بركات أرسل له هدية عنيه وبالذات . مكتوب عليها : « هدية خالى وحمايا وابويا زيدان الكفورى » .

حضور المرسال من طرف بركات ، فتح الدفاتر القديمة فى نفسه . حكاية عظيمة التى خطبها بركات ابن اخته منذ أن حصل على شهادته ومسك وظيفة ، ثم جاءت فكرة السفر إلى ديار العرب البعيدة لكى يكوّن نفسه . كان من الصعب الكلام فى الموضوع فى الحالين . عندما كان يعمل فى مصر ، الجاى على قد الرايح ، وبركات يساعد أباه وأخوته ، أصبح عكاز العيلة الوحيد فى هذه الأيام الصعبة .

زيدان ليس غريبا ، أبو العروسة وخال العريس ، والقرش الذى لا يجهز العريس به ابنته ، يذهب إلى أخته ، زيتنا فى دقيقنا ، أم بركات لا تعتبر زيدان آخاها الكبير ، ولكن أباها . وبركات يناديه بيابا زيدان . سافر بركات لكى يعود ومعه تحويشة العمر ، يكونها فى شهور بدلا من أن يقضى العمر كله يلهث وراعها ، ولا أمل .

فى الأيام الاولى ، كان من الصعب الكلام فى الموضوع ، فبركات لا تصل منه سوى الجوابات ، وبعض شيكات بفلوس على البنك الذى فى المركز ، والفلوس كانت تكفى الافواه المفتوحة فى بيت ست أبوها أخته ولا يبقى منها شىء ، وهو لن يتكلم فى الموضوع إلا مع بركات . ولد مجدع طالع لخاله ، وهو يريد البنت ، وعبده بركات شرابة خرج ، وست أبوها أخته من

لحمه ودمه ، ولكن أن جالك الطوفان ، تضع ابنك تحت رجليك ، فما بالك وهو أخوها .

طلبوا من بركات ، بناء على نصيحة زيدان - فى آخر جواب - أن يحضر، يشق عليهم ، ويملوا أعينهم من رؤياه ، أوحشهم كثيرا والبعاد جفا ، ومن يبعد عن العين ، يبعد عن القلب . رد عليهم أن تكاليف السفرية مثل خف الجمل الذى يأخذ بضربة واحدة ما حوشته النملة فى عمرها كله . لن يحضر سوى فى آخر المدة ، ومعه ما حوشه فى غربته ، الحال صعب ، والذى يعمل عنده لن يعطيه سوى تذكرة العودة ، فى آخر المدة ، بعد انتهاء كفالته ، وإن ركب رأسه ونشف دماغه ، وعاد أب جـزم ، والرجل يربط من لسانه ، والكلمة أهم من كل عقود الدنيا فسيحرم من العمل ومن حقوقه . هكذا إتفق مع الذين يعمل عندهم والرجل يربط من لسانه . والكلمة أهم من كل عقود الدنيا .

وعموما ، المراسلة نصف المشاهدة ، كتب بركات فى مكتوبه الذى كان الأخير ، ثم انقطعت المراسيل ، وتوقفت الجوابات ، وأصبحت المكاتب ذكرى ، رضوا بالهم ، ولكن الهم لم يرض بهم . أصبح الموضوع مشكوكا مثل فرع الصبار ، ولوح التين الشوكى المحمل بالكيزان التى تختفى حلاوتها تحت الشوك ، المهم أن يعود ، أصبحت اللهفة فى السؤال عليه تعكس عدم الثقة فى عودته .

مرات زيدان كلمته عن ابنتهما التى أصبحت مثل الأرض الوقف ، فشخط فيها :

- فال الله ولا فالك .

قال لنفسه :

- الملافظ سعادات .

كان يدرك منذ أن وافق على الخطبة أن زوجته محاسن بوزها ملوى ، طوله شبرين ، زواج عظيمة من بركات لم ينزل لها من زور ، كانت ترغب فى زواجها من شاب من عيلتها ومن عرقها ، فهى لا تحب أن تكون عظيمة لواحد من أهله وناسه . رفض زيدان ، رأسه وألف سيف لا يمكن أن تتزوج عظيمة سوى بركات، ولأن كلمتها لم تمش ، فهى تحاول إفساد الجوازة .

طاوعت محاسن ، وإن كان ما فى القلب فى القلب . تعامل بركات وأهله من تحت الضرس ، ومنذ أن انقطعت مراسيل بركات وهى تتصور أن الجوازه اتفنيخت ، وحصلت لها فركشة ، وأنها يمكنها أن تحقق حلمها القديم ، واستخسرت - من جديد - البنت فى ابن أخت زيدان . ولذلك سعد زيدان بحضور المرسال ، ثم هجم عليه إحساسه بالسعادة حاول أن يطرد به الهم القديم .

شعر زيدان بغضب ، أخفاه عن مراته حتى لا تشمت فيه ، مطلوب من بركات الآن أن يتمم الجوازة ، ولكن أين هو بركات ؟ وإلى متى يبقى بخت البنت مائلا ؟ جرح ما بعده جرح ، مشكلة لا يعرف أحد كيف يحلها ، وها هو المرسال يصل :

- لعله خير .

والمراسيل يمكن أن تحمل أخبار الخير ، ويمكن أن تحمل أخبار السوء ، اتوغوشت نفس زيدان ، ولكن الحل جاءه بهدوء وهو واقف على دوار الساقية يفكر ، والحل سمعه زيدان فى بلاد مجاورة ، أن بركات يمكنه أن يكتب على عظيمة وهو هناك . عرسان عرب يرسلون توكيلات رسمية ، يتزوجون بها بنات من مصر ، دون حضورهم ، ما المانع أن يفعل بركات هذا ؟ يرسل توكيلا له . لا أنه لا يصلح للتوكيل فهو والد العروس ، يرسل التوكيل للشيخ بخاطره ، ويتم كتب

الكتاب وتسافر له بمفردها فى الطائرة ، صعب أن تخرج عطيات من الدار للنار ، من الخص فى الغيط للطيارة . يسافر زيدان معها ، يطير فى الجو ويشم هواء بلاد بره ، ويغير المناظر ، ويعود بعد أن يطمئن على ابنته فى بيت عدلها ، وطبعا سيعود شايلا ومحملا ، والحكاية كلها يتحمل تكاليفها بركات :

– تاهت ولقيناها .

خبط زيدان كفا بكف ، ضحك من سهولة الحل ، توقف فى منتصف الضحكة :

– اللهم اجعله خيرا .

(٤) بخاطره

ما شعر بندم فى حياته ، مثل الندم الذى لسعه اليوم ، منذ أن مر عليه عبده بركات ، وهو يقرأ سورة سيدنا يوسف ، الذى قال اخوته إن الذئب أكله ، وهو متعكن ، وصوت بركات يرن فى أذنيه . والشيخ بخاطره ، يقوم بكل الأعمال المطلوبة فى الجامع ، يخطب يوم الجمعة وفى العيدين ، يؤم المصلين ، ويؤذن ، ويحمل مفاتيح الجامع عندما يقفله بالليل ، ويبقى فيه طوال النهار . يعطى دروس الدين للمصلين ، وبعض الدروس الخصوصية لطلبة المدارس الابتدائى من ولاد العتقا ، خاصة فى الدين واللغة العربية .

فى الصيف ، يلم الأطفال ، فى حوش الجامع ، لكى يحفظهم كلام الله ، وعندما يسأله الناس عن دخله ، يقول :

– آهى تناتيش ، من كل حته شوية ، عشان المركب تمشى .

ويكمل :

– مراكبنا ماشية على أرض شراقى ، مش لاقيه ميه تعوم عليها ولا هوا يملأ قلوعها .

وبخاطره يقسم لكل الناس ، أن بركات ، حفظ كلام الله عنده ، وأنه تعلم الحروف أول ما تعلم فى كتابه الصيفى ، وأن كان لا أحد يذكر ذلك . وعندما يشعر أن الناس تعامله باعتباره كفيفا يقول :

– العمى عمى القلب .

والشيخ بخاطره أنجب زربة عيال ، وزوجته هى أضخم وأتخن امرأة فى العتقا ، واسمها بخاطرها ، وهى ابنة امام جامع سيدى عبدالله النشابى فى الضهرية ، ويقولون إن والدها هو الذى سماه بخاطره وسماها بخاطرها ، وكان ينوى تزويجهما منذ أن سماها وسماه ، كانت بخاطرها ، قبل الزواج ، طويلة ونحيفة مثل عود قصب أو زعزوعة ذرة ، وبعد الزواج تخنت وربربت بسرعة شديدة وشالت اللحم ، اختلف الناس فى الأمر . البعض قال : إنها مكاسب الشيخ بخاطره علفها بها ، الفتة وهبر اللحمة التى يأخذها من الليالى ومن الموالد، يأكل لقمة واللقمة الثانية يهربها فى منديل محلاوى معه ، وهو يتصور أن الناس لا ترى ما يفعله ، وإن كان الناس يرون ويسكتون فى حضوره ، فهم يقولون من وراء ظهره، إنه رجل دنى بطنه واسعة .

الشيخ بخاطره واقع فى دباديب بخاطرها الضهراوية . أحيانا يطلب من أصحاب الولائم ، إن كانوا كرماء ، أن يعدوا طبقا ، ويرسلونه إلى بخاطرها فى البيت ، لأنه لا يستطيع أن يحضرها معه . والذين يعتبرون أن الأكل هو سبب لحم بخاطرها ، يلخصون الموقف :

– بترعى فى فتة محلولة .

وإن كان هناك من يقولون إن الشيخ بخاطره سره باتع فى الليل . رجل عفى ، لم يمسك فأسا ، ولا يتعب فى حياته ، وهو لا يرى ولذلك استراح من حمول هموم الدنيا ، مثل الدكر الطلوقة ، لا عمل له فى الليل ، سوى النط على بخاطرها ، وعندما تقل المونة على النتاية ، تقوم الليفة والصابونة بالباقى . تختلف الاسباب ، ولكن بخاطرها أصبحت محملا من إللحم ، ترج الأرض عندما تمشى عليها .

أتى بها من الضهرية ، وإلى الضهرية يأخذها فى بعض الليالى ، لكى يشق على حماة ، يمسك بعكازه فى يده وتمشى بخاطرها وراءه ، تؤثر مشيتها حتى فى هواء السكك ، من المفروض أن تمشى أمامه ، فهو لا يرى ، ولكنه رجل ، وهو يحفظ عـــدد خطاويه ، ويعرف الحواديات التى فى الطريق ، والمطالع والمنازل ، ولا يأخذ الولد ميلم معه فى مثل هذه المشاوير ، فهو حويط ، يبعد مراته عن الولد الذى يعمل معه .

فى وقت العصارى ، لم يكن الشيخ بخاطره مستريحا لما حدث منه مع بركات . ومع هذا ، عندما سمع أهل العتقا ، لا حديث لهم سوى عن الهدايا التى جاء بها المرسال ، قال لمن ينوون الذهاب إلى بيت عبده بركات :

- أمانة عليكم تسألوا المرسال ، ما أنشى الاوان ، عشان يوفى بركات بندره .

ونذور بركات للشيخ بخاطره كثيرة ، بعضها شخصى وأخرى للجامع ، ولو وفى بركات بالنـــذور ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، سيجعل له فى كل خطوة نصيب ، ويسهل الصعب أمامه ، ويوقف له فى كل سكة حبيب ، ويرقق القلوب له ، ويحنن الصدور عليه . هذا ما قاله الشيخ بخاطره لبركات قبل السفر .

كلها نذور من أجل الله ، طلب منه الشيخ بخاطره ، أن يساهم فى فرش صحن الجامع بحصر جديدة ، فالحصر الموجودة وعت طوفان سيدنا نوح وارتمت عليها عصى موسى ، وسمعت صوت حوت يونس ، دابت وكشفت عن الأرض وقش الارز الموجود تحتها . وان يحضر معه ميكروفون وسماعة وبطارية للجامع . قال له إن هذه الاشياء رخيصة فى البلاد التى قسم الله له لقمة فيها . وعند العودة لن يدفع عنها أى جمارك ، فهى من أجل الدعوة الاسلامية ، ما عليه إلا أن يقول ذلك لمن فى المطار ، وإن لم يستمعوا لكلامه ، وجعلوا أذنا من طين والأخرى من عجين ، كل المطلوب منه ترك هذه الاشياء فى المطار وسيحضرها الشيخ بخاطره بنفسه .

قال له ، إنه ما من جامع ، فى هذه الأيام ، إلا وفوق مئذنته ميكرفون ، الذى أصبح من ضرورات بيوت العبادة ، ذكره بأن يحضر معه المسجل الذى قد يستخدمه فى بلاد الغربة ، حتى يذيع عليه تلاوة من آيات القرآن الكريم ، فى أوقات ما بين الصلوات . طلب منه أن يتخيل ساعة الفجرية ، حيث الخشوع والصمت والظلام ، ثم يخروش الميكروفون ، ليقول ويعلو الصوت :

- الصلاة خير من النوم .

حدثه عن الثواب الذى يمكن أن يكتب له فى الجنة ، وهو خير وأبقى من كل ما فى هذا العالم الفانى . قال له بركات :

- ندرن علىّ يامولانا .

رد الشيخ :

- الوفاء بالندر يابركات من شيم المؤمن .

طلب منه بركات :

- ادعى لى أرجع بالسلامة .

أما طلبات الشيخ بخاطره الشخصية – وهى أيضا من أجل كلام الله – فهى جبة وعمامة وقفطان وعصا من الابنوس رأسها من سن الفيل ، ومسبحة كبيرة تسعة وتسعين حبة من اليسر ، من أجل ختمة الصلاة ، ومسبحة صغيرة ثلاثة وثلاثين حبة من الكهرمان الحقيقى ، الذى ينير عندما يحل الظلام . ويمشى بها فى العتقا ليلا ، فيراها كل من فى عينيه نظر . اعتذر عن كثرة طلباته :

- حمولنا على كتافك كثيرة ، بس مين سافرلنا غيرك ؟

طلب بركات ، مرة أخرى ، من الشيخ بخاطره ، أن يدعو له بسلامة العودة، والشيخ بخاطره ، أقسم له أنه سيدعو له فى كل صلاة ، وفى خطب الجمعة والعيدين ، وفى آخر دروس العصر ، وبعد خطبه فى المآتم . كان يقول دائما ، « اللهم شد أزر غرباء العتقا فى غربتهم ، واكتب لهم العودة سالمين غانمين ، أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم ولهم » . والناس ترفع أياديها إلى وجوهها ، وترد بعد كل جملة : آمين . وفى النهاية يقولون : آمين يارب العالمين . ثم يقبل كل منهم كفى يديه ، وتكون الدموع قد أصبحت تدق المآقى ، ولكن عياط الرجال عيب . أما النساء اللاتى تغرب أبناؤهن ، ويتصادف أن يسمعن هذا الدعاء من الشيخ بخاطره ، فإن دموعهن قريبة وسهلة ، تصبح الخدود مجرى للدموع المالحة والدافئة .

وأحلام الشيخ بخاطره سقفها أعلى مما قاله لبركات . ولكنه كان يتكلم حسب مقدرة الجدع وظروف أهله ، وإن كان الشيخ بخاطره يعيش على أمل أن يتقدم الطب ، وأن يرى بخاطرها وزربة العيال والجامع والعتقا والضهرية ذات يوم . كان الشيخ بخاطره يحلم – بعد أن يعود بركات ، ويفتح الله عليه ويتزوج

ويشترى عربية خصوصى – أن يأخذه إلى مصر أم الدنيا . يزور آل البيت ، وهى زيارة واجبة ، فوجودهم هو البركة الحقيقية فى مصر كلها ، وبركتهم هى التى تخرج البلاد من أى شدة تمر بها . ثم يعرض نفسه على الحكما ، الذين هم مجرد سبب لكى تحدث معجزة الشفاء المكتوبة فى اللوح المحفوظ منذ أن جاء إلى الدنيا .

وعودة بركات كانت مهمة للشيخ بخاطره ، فقد كان ينوى أن يمسكه الخطب من بعد عمر طويل ، فهو الوحيد فى العتقا الذى يمكنه أن يخطب ، لم يفلح ولد من عياله ، حتى يطمئن إلى قدرته على أن يخطب بالمصلين ، وبركات مثل عياله ، أما شغله الآخر فسيفكه ويوزعه على أولاده ، واحد يؤذن ، والثانى يراعى الميضة وبيوت الراحة ، والثالث يدير الطلمبة لترفع الماء المعين من تحت الأرض ، أما الخطب والصلاة بالمصلين فعلى بركات .

لكن أهم ما كان يحلم به الشيخ بخاطره ، لم يكن يجرؤ أن يفاتح فيه أحدا غير بركات . العتقا كبرت ، المبانى زحفت ، والناس زادت ، بدأت العزبة بكام نفر ، أصبحوا مئات وألفات ، ان اعداد الناس هى الارقام الوحيدة التى تزيد فى هذه البلاد . وجامع العتقا لم يعد يسع الناس ، خاصة فى صلاة الجمع أو العيدين ، فلماذا لا يقام جامع آخر فى العتقا ، فى مكان وسيع ، يحمل اسم الشيخ بخاطره ، عندما تحين ساعته التى لا مفر منها . وأن تبدأ العتقا فى إقامته . ان حدث هذا ، فإن الاجيال القادمة ستعامله كولى من أولياء الله الصالحين . ولن ينسى أن يكتب فوق الضريح تاريخ ميلاده ، لكى يقام له مولد كل سنة ، وسيترك لمن سيبقى بعده أن يكتب تاريخ وفاته ، ويصبح اسمه فى السنوات القادمة : سيدى الشيخ بخاطره .

الشيخ بخاطره يحزن لأن الفكرة استوت فى عقله بعد سفر بركات ، وينتظر حضوره ، بفروغ الصبر ، لكى يفاتحه فى الموضوع . من يسمعه من أهالى العتقا غيره ؟ الناس طارت عقولهم وراء الفلوس وانخلعت قلوبهم من أماكنها . بركات هو الوحيد الذى يمكن أن يعطيه أذنيه وعقله وقلبه ، وإن وعد سينفذ ، وإن قال سأفعل ، لابد أن يفعل فهو جاد وليس مثل ابناء هذه الايام .

كان الشيخ بخاطره يتمنى عودة بركات بأسرع ما يمكن ، كان دائم السؤال عن عودته ، لدرجة أن الناس بدأت تتساءل عن سر هذا الاهتمام بعودة بركات . قال الناس ، إما أن بركات يحفظ امواله عند الشيخ بخاطره ، أو أن الشيخ بخاطره ينوى أن يزوج بركات واحدة من بناته بعد أن يفك من ابنة خاله . وأن الشيخ بخاطره قد عمل لبركات عملين ، الأول ليكرهه فى عظيمة ، والثانى لكى يحب واحدة من بناته .

(٥) هوانم

أفندى وغريب فى العتقا ، شهقت هوانم عندما شاهدته يمر أمام بيتها وحوله الأولاد . حاولت أن تلفت نظره :

– يا أكل الافندية يا فاكهة .

الافندى الغريب كان تائها وسط الزفة التى حوله ، والغبار الذى أثارته الاقدام التى تدب حوله ، نزل على الفرشة . نادت أحد الولاد وسألته عن الغريب . قال لها الولد إنه مرسال بركات . بشرها بأن حضوره سيجعل دار عبده بركات يشترون فاكهة منها ، لكى يقدمونها للضيف ، بعد سفره ستكون معهم أموال وسيصبحون من زبائنها . وإن كانت هوانم لم تسمع باقى كلامه ، فالحنين الذى كواها سببه بركات وليس البيع والشراء .

هوانم تبيع الفاكهة ، وعندما لا تكون هناك فاكهة ، تبيع الخضار ، وكل شىء بأوانه . والبيع يتم أمام بيتها ، المواجه لجامع سيدى الغريب ، والمكون من غرفة واحدة . كل ما تبيعه تحضره من كفر الزيات ما عدا المانجو الكسر ، تشتريها من جنينة المانجو القريبة من العتقا ، والجوافة من غيطان الجوافة المزروعة على حوافى العتقا ، وهى تشترى المانجو الكسر الشرك لان الناس لا يقدرون على دفع ثمن المانجو الصحيحة ، مر الضيف وهوانم تضع على فرشتها برتقال صيفى ومشمش وبرقوق وبعض بشائر البطيخ .

فاكهة مغطاة بالتراب ، شخ عليها الدبان ، وأصبحت لينة من كثرة تفعيص الايادى فيها وتقليبها ، أيادى الذين لا يشترون ولكنهم يتفرجون دائما ، ويفاصلون أحيانا . وأغلبهم يشترى – ان اشترى – شكك . والفاكهة مر عليها أكثر من يوم وهى عند هوانم ، ولذلك دبلت وقربت أن تموت ، كل صباح تفكر فى غسلها ، ولكن الغسيل قد يحول التراب إلى طين ، ويزيد حالها سوءا .

استنظرت هوانم بركات ، فهو الوحيد من ابناء العتقا ، الذى قال لها أحلى كلام سمعته فى حياتها . وهوانم ترملت وهى بنت صغيرة ، دون أن تخلف ولدا أو بنتا تؤنس وحشتها . بدأت تعمل بعد أن أصبحت هجالة . ليست من أهل العتقا ، ولا تحب العودة إلى بلدها ، فالحال هناك ، أوحش من هنا . تاجرت ، أخذت ما تقدر على حمله : طبختان من الملوخية ، طبخة بامية ، مشنة جرجير وفجل أخضر ورور . بيض بلدى وسمن فلاحى وزبدة غير مغشوشة ، وتعدى إلى الكفر .

كان هذا فى أيام الرخا ، لكن العتقا لم يعد لديها ما يكفيها ، ولم تعد الناس تبيع شيئا واختفى من حوارى العتقا ، الدجاج والبط والأوز ، وسكنت الثعابين والسحالى أبراج الحمام ، ولم يعد الفلاح يزرع على رأس الغيط ،

الفجل والجرجير والخس ولا يفكر أحد فى زراعة البامية ، وحتى عندما تطلع الملوخية شيطانى تحت عيدان الذرة ، فأين الأولاد الذين يقلعونها ويبيعونها . خلت الغيطان من العيال والرجالة .

تبدل الحال ، بعد أن كانت هوانم تروح كفر الزيات ، شايلة ومحملة ، وتعود فاضية ، أصبحت تذهب بالمشنة خالية ، وتعود بها ممتلئة ، مرواح هوانم كفر الزيات جعل ألسنة الناس تبدو مثل التلفيعة ، تخرج من الفم، لكى تلتف حول الوجه ، دارت الألسنة فى الهواء ، مثل الثعابين الخارجة من جحورها ، تطل على الناس من بعلون الجدران . قالت الألسنة ، إن هوانم فرطت فى عرضها لأفندية كفر الزيات ، الموظفون الشبان العزاب الذين يسكنون الشقق بمفردهم ، فكت الطرحة السوداء التى كانت تلفها حول رأسها منذ أن دفنت زوجها ، ونزلت عقد الكهرمان من فوق صدرها ، وحلت تكة لباسها ، وخلعت لها أيادى الغرباء القميص اليمنى الذى تلبسه على اللحم تحت الجلابية السوداء . عرضها تجارتها ، تأخذ من الموظفين المقسوم ، وتشترى ببعضه فاكهة وتعود ، تسالى حتى تروح كفر الزيات مرة اخرى . امرأة نتاية ، من غير رجل ، مثل الارض الشراقى ، ماذا تفعل ؟ !

ورجالة العتقا لم يتكلموا عن هوانم لكى يمنعوها عن الحرام الذى تفعله فى الكفر ، ولكن لأن كل واحد منهم كان يرغب فى الحصول على نصيبه ، فكل راجل له حريمه ، حلاله فى البيت ، ولكن الركوب الحلال يفقد طعمه بعد مدة ، يصبح مثل ورق دفتر الصريف ، أصفر وباهت ، وكله زى بعضه ، أما هوانم ، بياعة الفواكه ، فهى نفسها فاكهة فى غير أوانها ، وهى ليست محبوسة فى بيتها، يحجبها رجل ، ويقفل عليها الباب بالضبة والمفتاح ولا تخرج سوى فى الليل .

تروح هوانم وتجيء ، تضاحك الرجال على المصاطب ، وتنافر النسوان فى البيوت ، وتطبطب على الصبية فى الحوارى . عندما تمر تأخذ الانظار معها وتبقى رائحة اللواندة التى تعطر بها جسمها عالقة فى الهواء فترة من الوقت . أكلت بعقول رجالة العتقا حلاوة ، تمشى فتتحرك كل حتة فى جسمها فى كل اتجـاه ، تتخلع وتتقصع وتهز جسمها على الوحدة ونص . يقول الرجال لأنفسهم :

– نتايه وعلى حل شعرها .

الرجال هم الذين بدأوا شراء الفواكه منها ، تغسلها لهم من الزلعة المركونة وراء باب البيت ، وتضعها على المصطبة ويأكلونها ، تحول أكل الفواكه إلى قعدات ، والقعدات طالت ، أكل ومسامرة وكلام . ولكن شيخ البلد عندما اشتكى له بعض العواجيز ، قال إن القعدات فيها رجالة كثيرون ، وهى تتم عينى عينك . فما الغلط فى ذلك ؟

قال للعواجيز :

– قصر ديل يا أزعر .

زمان القعدات ومكانها تغير ، بدلا من أكل الفاكهة فى خصة العصارى أو ساعة المغارب ، أصبح ذلك فى أول الليل ، بعد ختم صلاة العشا ، ثم تزحلق الوقت واقترب من انصاص الليالى ، وليل الفلاحين يخر عن آخره . وتدحرج مكان القعدة إلى وسط دارها ، بعد أن تلم الفرشة وتضع الفاكهة فى أقفاص وتشيلها إلى الداخل . بدأ الجلوس وراء الباب مباشرة ، ثم استقر الأمر فى المندرة الوحيدة فى البيت .

الكلام تغيرت عينته ، المسك فى سير الناس فى العتقا أخلى مكانه لحديث عن نسوان العتقا ورجالتها ، وعن الاكلات التى تقوى الرجالة على شغل الليالى ،

المانجو وعيدان الجرجير وعلب الحلاوة الطحينية وما يبيعه العطار فى الكفر . اشياء كثيرة تنفع الرجالة وقت الزنقة ، والاصوات العالية أصبحت وشوشة وهمسا . قل عدد الذين يأكلون الفاكهة على المصطبة . والذين كانوا يحضرون جماعة ، أصبح كل واحد منهم يتسحب فى الضلمة بمفرده ، وكأنه قد جرى اتفاق حول تقسيم ليالى هوانم بينهم .

عرفت مندرة هوانم وحصيرها ومخدتها ولحافها معظم رجالة العتقا ، وحبل هدومها ، الذى يقسم مندرتها نصفين ، علقت عليه هدوم رجالة كثيرين ، وإن كانت هوانم لا تتعامل مع كل الذين يزورونها ليلا على أنهم زبائن . البعض يأتى كفردة مفروضة عليها ، مثل شيخ البلد والخفير ومخبر من ابناء العتقا ، يعمل فى النقطة الثابتة ، ويحضر إلى العتقا باعتباره ، من أبنائها .

هؤلاء يحضرون بلوشى ، برطلة للحكومة ، حتى تغمض أعينها عما يجرى، وتسد أذنا بالطين والاخرى بالعجين فلا تسمح ما يقال ، سواء فى العتقا أو فى مندرة هوانم .

بركات دخل بيتها مرة واحدة ، كانت الاولى والاخيرة ، وبالمصادفة ، ليلة سفره من العتقا إلى بلاد العرب . قالت لنفسها ليلتها :

- جت الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح .

زارها بركات ساعة المغربية مع صديق له ، كان وجود بركات غريبا ، ملابسه نظيفة رغم أنه من أولاد الناس الغلابة ، لا يميزه سوى تفوقه فى التعليم، وحصوله على شهادة ، خجول ومؤدب ، يتكلم فيخيل إلى من يسمعه أنه يهمس لنفسه أو يوشوش من يجلس بجواره .

رأت فى عينيه لمعانا لم تره فى أى أعين أخرى . خيل اليها أن دمعة معلقة فى عينيه ، وأنه على وشك البكاء ، تصورت انها عريانة أمامه حتى من قميص

نومها ، الذى كان أسودا عندما افتكر الله المرحوم ، وتغير بعد أن بهتت فى نفسها الاحزان إلى البمبى .

جلسا ، بركـــات وصديقه ، الذى كان وقحا فى الكلام عن أجزاء من جسمها ، تواعد صديقه معها أمام بركات ، فشعرت أن بلغته الغليظة تدوس فى حبه قلبها . نظرت إلى بركات ، فقرأت فى عينيه هوانها . قال :

- الوعد والمكتوب .

أدركت أنه بر أمان لها . قالت لنفسها إنها لو تعرت أمامه فستخرج من صحارة هدومها ، قميص نوم لونه من دم الغزال ، اشتراه المرحوم لها ، وقال إنه يظهر جمال جسمها الابيض ، بدلا من أن يتكلم بركات عن رغبته فيها ، ويواعدها ، ويفاصل فى المطلوب منه . قال لها ببساطة :

- مسافر بكره .

ضحك صديقه قائلا :

- يعنى غير كل فلوسه المصرى .

رد عليه بركات :

- مش قصدى .

خرجت الكلمات من بئر قلبها :

- اسكت انت .

مدت يدها ، طبطبت عليه :

- يكتب لك فى كل خطوة سلامة .

نفس الدعاء الذى سمعه من أمه ، طبطبة يدها على كتفه ذكرته بطبطبة أمه . ولحم كتفه البكر ، الذى لم تنكشف عليه امرأة ، ذكرها بابنها الذى لم يأت إلى الحياة ، والذى لو أتى وكان معها لكفاها شر نفسها . عضت على شفتيها وهى توشك أن تبكى . أتى الصمت . صديق بركات ودليله حاول الهروب من الصمت ، قام وهو يقول لهوانم :

– بالاذن .

خرج إلى وسط الدار كى يفك ميه ، فدار هوانم لا يوجد فيها كنيف . وهو يخرج قال لها :

– أسيبك مع الشيخ بركات .

ما أن أصبحا بمفردهما ، حتى ارتجف بركات ، سمع عنها كثيرا قبل أن يراها ، ما كان يريد الحضور . أسرعت دقات قلبه ، وتشف ريقه ، وانكرش نفسه ، وشعر ببرد طوبة وزعابيب أمشير فى أعماقه . تحركت شفتاه بدون إرادة منه ، سمع صوته وهو يقول لها :

– ست هوانم ، تتجوزينى ؟

ست هوانم ؟! كانت المرة الاولى التى تشنف الكلمتان أذنيها وتخشى أن تكون الاخيرة . الهواء الخارج من فمه مع الكلمات كان جافا . وضعت يمناها بين يديه . ارتعشت يدهـا بين يديه . فمه يتكتك وريقه أكثر جفافا من الارض الشراقى ، وسمعت بأذنيها صوت دقات قلبه على صدرها . عرضه غير جاد . وإن كان يقصد ما يقوله ، سيمنعه أهله ، وسيقف فى وجهه رجالة العتقا . انفعل وسخنت رأسه ، انخض من مرآها . امرأة لينة ، صوتها يغنج ، فى عينيها الكحل، خدودها مطلية بالاحمر والابيض ، تجلس معه فى ملابس النوم ، تكشف أكثر مما تستر من جسمها . وعندما تقف ، تطالعه أكبر مساحة من الجمال رآها فى العتقا .

كعباها حمراوان ، يتداخل الحمار والبياض فيهما ، ولا يوجد فيهما شق أو قشف . يداها تخلوان من القشف الذى يمسك فى الايادى بسبب تقريص الجلة أو العمل فى الغيطان . جمالها يحل من على حبل المشنقة . لبست الاسمر ناح على جسمها . بدلته بالاحمر الرعاش والهدوم كلها شفتشى ، ولكنها ظلت ولية مكسورة الجناح ، نتاية بندرية ممطوطة الكلمات ، تنوب الاحرف على شفتيها قبل النطق بها . ربما كانت المرة الأولى التى يقابل فيها بركات امرأة ، طراطيش الكلام تملأ الهواء حولها من كل ناحية . وهوانم كانت المرة الاولى التى تجلس فيها مع صبى نغة ، لم تخضر ذقنه كل مساحة خده الجميل .

تعرف أنه خاطب عطيات بنت خاله زيدان ، سترد له الجميل ، تسعده دون أن تفسد له حياته عندما يعود من الغربة . نظرت له ، شاب جدع ، شرب اللبن من بز أمه . أما الآخرون ، فمن يعرف أن كانوا قد شربوا اللبن من بزاز أمهاتهم ، أو أن كانت لهم أمهات أصلا . مستحيل أن يتزوجها ، ولكن فلتة لسانه جعلتها تشعر بآدميتها ، وتصبح وسادة تهدهد قلبها .

سافر بركات ، منت نفسها بعودته ، وهديته لها . انتظرت جلوسه أمامها ونظراته المفروشة بالود ، وفمه الذى تخرج منه الكلمات فلا يصلها سوى الهمس . ولكنه لم يعد :

– دا بختى .

بعاده خسارة لها ، غيابه سبب لها لوعة . كانت دائمة السؤال عنه لدرجة أن الذين يجلسون عندها ، كانوا يقولون لها قبل أن تفتح فمها .

– بركات مارجعشى .

فترد :

– قسمتى ونصيبى .

وجاء المرسال ، سألت نفسها ، هل يتحقق المكتوب ؟ مرت الساعات ولم يحضر أحد ، تحول جسمها إلى كتلة من الاعصاب التى تتصور أنه فى أى لحظة سيأتى من يطلبها للمرسال ، أو قد يحضر المرسال بنفسه لها . سألت نفسها : كيف تصل إلى الغريب ؟ لو سألت عنه وذهبت إليه ، لن يفهمها أحد من رجالة العتقا ، سيقولون فضحت العزبة مع الغريب .

ليلة غريبة ، جافاها النوم ، وأغلقت بابها أمام النقرات التى تعرف أصحابها ، من عددها وطريقتها . سمعت الاقدام أمام باب البيت ، أكثر من أى ليلة أخرى . وعندما سمعت حافر دابة تمشى ، نعرت فعرفت انها جاموسة فاستغربت ، من يروى أرضه فى هذه الحصة من الليل ؟ كانت تنتظر الصباح حتى تســـأل عن بركات وحكايته . وعندما كبس اليأس فى حشاها ، فى آخر الليل ، وقبل آذان الفجر بقليل . قالت فى سرها ، إن حضور المرسال له فائدة واحدة ، أن تعرف يوم عودة الحبيب .

(٦) أنـــــور

عشنا وشفنا ، دود الارض يبعت مراسيل . ضرب أنور كساب يدا بيد عندما عرف موضوع الضيف . وإن كان ضرب الكفوف والصوت الحيانى ، لم يبعد أنور كساب عن مخاوفه . تحسس كتينة الساعة الذهبية ، التى تخرج من الصديرى وتلف على كرشه . فى يده منشة ، ذيل حصان . يهش بها الذباب والكسل والرغبة فى النوم . حركها بيده .

والعمدة له مشكلة مع عبده بركات ، حكمت فيها المحكمة ، ولكن عبده بركات يرفض كلام المحكمة ، والحكم لم ينفذ ، والبوليس لم يحرك ساكنا ، وقعدة

الرجالة وحق العرب لم يصلا إلى نتيجة . قالوا إن الولد سافر ، فرد العمدة:

– إن الولد يبص لفوق ، ومن يبص لفوق طويلا يتعب . وأنه يريد طلوع السما ولكن من غير سلالم ، ومسيره يقع تنكسر رقبته ميت حته .

أتى الضيف ، فحلف أنور كساب ، بالطلاق تلاتة ، أن عبده بركات أرسل يستنجد بابنه ، يطلب حضوره ، أو يرسل الاموال لكى يشد له محامى كبير ، حتى يستأنف ضد حكم نزع الملكية ، والطرد من الأرض لكى يبدأ زمن الامن الغذائى فى العتقا . أرسل العمدة الخفير لكى يأخذ ويعطى فى الكلام مع الضيف ، ويعرف الحكاية . عاد الخفير كما راح ، لا لأن المرسال كان خبيثا ، ولكن لأنه لا يعرف أى شىء عن هذه المواضيع .

وحضور المرسال ، جعل حكاية بركات مع أنور كساب تهب عليه ، خميرة عكننة ، كان يقول دائما عن بركات .

– الواد ده نقره من نقرى ليه ؟

بركات هو الوحيد فى العتقا الذى يقول لأنور كساب ياشيخ البلد ، لم يقل له يا عمدة ، ولو من باب المجاملة أو السهو أو الخطأ ، لم يكتف بهذا ، تكلم بركات مع الناس عن مسألة التقسيمات الادارية ، وأن العتقا بموجب عدد سكانها ، وموقعها الجغرافى ، وأوراق وزارة الداخلية ، لا يوجد فيها عمدة ، وأن من يتولى شئون الامن فيها شيخ بلد . ومن حق أى من ابناء العتقا أن يكون شيخا للبلد بعده .

ابن فلاحين وخبيث ، بركات يرش الشطة ، ويكبس الملح فوق جرحه ، فالكل يعرف أن خلفة أنور كساب كلها من البنات ، ولأن مراته من عيلة كبيرة ،

وتشيل فوق رأسها طينا أكثر من طينه ، لم يجرؤ على الزواج من غيرها ، مع أن شرع الله يجيز له أن يقتنى أربع نساء . بركات قال للناس ، إن الفارق بين العمدية ومشيخة البلد ، أن العمدية بالانتخاب ومشيخة البلد بالتعيين ، ولذلك تدخل فيها خواطر ووساطات وربما رشاوى . ولو أن مشيخة البلد بالانتخاب لاحتكم بركات لاهل بلده وناسه ، وأثبت له من الاحق بالمشيخة .

سمعت الرجالة كلام بركات ، ومصمصوا شفاههم ، ولم يتكلموا ، وعندما نادوا أنور كساب ، قالوا له يا حضرة العمدة ، لدرجة أن كلمة شيخ البلد ، اختفت مع مرور الوقت ، وأصبح أنور كساب يتصور أن من يناديه بشيخ البلد ، إنما يشتمه ويقلل من شانه ، أنور كساب ، شيخ البلد أو العمدة ، لم يكن مستريحا للولد بركات منذ أن تعلم . وبركات ليس هو الوحيد الذى تعلم ، هناك غيره . ولكن بركات فى نظر أنور كساب ، كان من المفروض أن يكون مصيره ، أن يشيل الفأس ، لا أن يمسك القلم بين أصابعه ويكتب به .

منذ أن ذهب بركات إلى المدرسة القريبة فى الضهرية ، ثم المدرسة البعيدة فى إيتاى البارود ، وأنور كساب غير مستريح للموضوع يمسك ذقنه :

– أدى دقنى لو فلح .

ويتحسس شاربه :

– أحلقه لو أخذ شهادة .

ويتكلم عن أولاد الفقراء ، الذين يعلفونهم التبن ، لن يخـرج منهم واحد فالح ، ليس من حقهم تعليم ولا غيره ، وأن كان يخشى أن يطلع من وسط الاجرية والتملية ولد ، يحمل كلام الله فى قلبه ، وشهادة تسبق اسمه . ليس بعيدا أن يجلس أحدهم مكانه ، فعيب أنور كساب ، أنه يفك الخط بصعوبة ، رغم كل

فرص التعليم التى كانت أمامه ، إلا أنه لم يكن غاويا وجع الدماغ ، ودوشة المخ ، ولخبطـة المزاج ، وأن كـان بركات يقـول إن أنور كسـاب لا يعـرف الالف من كوز الذرة .

تخرج بركات ، خاف أنور كساب أن يتوظف بركات فى مجلس القرية ، أو مجلس المدينة ، خشى أكثر أن يعمل فى وظيفة فى البوليس أو الصحة أو الرى أو الزراعة ، مات فى جلده خوفا من يوم ، يجعله يذهب إليه ، ويقف أمامه ، فى مكتبه . توظف بركات ، أقام أنور كساب لأهل الله ختمة ، لأن الوظيفة جاءت بعيدة عن كل الجهات التى يتعامل معها .

ثم طبت فكرة السفر ، وجاء عقد العمل ، فضرب أنور كساب كفا بكف ، وقال آهى هوجة وبكرة تخلص ، وكل واحد يروح لحاله ، وأصبح أنور سعيدا لأن الولد انزاح من سكته وسيرحل ولكن يافرحة ما تمت ، تعكر مزاجه لانه خشى يوم عودته راكبا عربية ، يمر بها على العمدة ، وهو جالس ساعة العصارى ، وتغطى عفرة العربية وجهه وجلابيته البيضاء التى يشرب من فوقها العصفور ، وطاقيته البيضاء المتفصلة من نفس قماش الجلابية . لا يعلم الغيب الا الله . قد يصل التراب إلى الشكمة التى يعيش فيها ويحكم منها العتقا ، ولم يجرؤ أحد من قبل على الاقتراب منها .

يعود الولد ، ودواسة البنزين تحت قدمه اليمنى ، وعجلة القيادة فى يده اليمنى ، ويده اليسرى تمرحب للناس ، وقد يضغط على الفرامل بقدمه اليسرى ويتحدث مع النـاس وهو جالس فى السيارة وقد اتعوج لسانه ، ومخاوف أنور كساب ، ليست من العربية والعفار ، ولكنه كان يحسب ألف حســـاب لما بعد عودة بركـات ، محملا بالمـال الذى يشترى به العتقا ومن فيها . قال لمن يجلسون حوله :

– دا ابن جوع ، متربى على اللقمة الحاف ، غموسه حتة جبنة قديمة وبصلة ويبوس ايده وش وضهر . دول ناس – أكمل أنور كساب – مش واخدين على المصاريف ، والفلوس تدخل جيوبها ، تلبد فيها ، ولا تطلعشى منها تانى . والجيوب فيها شقوق كالأرض الشراقى . مسافر ليحوش كل مليم يقع فى يده ، ليعود به ويشترى أرض الناس .

لم يكن بركات هو الذى سافر وحده من العتقا ، ولكن الآخرين الذين سافروا ، كانوا إما من عائلة شيخ البلد ، وهذا حقهم ، أو من التملية والاجرية والانفار الذين يعملون عند عيلة شيخ البلد ، وهؤلاء أن ملكوا الدنيا والآخرة فأمرهم معروف ، إلا الولد بركات ، يتدخل فى أمور ليست له دعوة بها ، ويحط مناخيره فى كل ركن ، وكلامه لا يرضى عدوا ولا حبيبا .

انقطعت أخبار بركات فاستراح أنور كساب ، ولكنه أخفى ارتياحه ، وأبدى ذات مرة ، عند مرور عبده بركات عليه ، لهفته وسؤاله واستعداده لمعرفة حكاية الولد بركات . قال عبده بركات :

– الحكاية ماوصلتشى لكده .

تعجب الناس من حكاية العمدة مع بركات . قالوا ، إن كل واحد سكته غير سكة الثانى ، ما يفرقهما أكثر مما يجمعهما ، ولكن بركات كان كثير الكلام عن أحوال العتقا والمظالم التى تملأها ، ورجله أخذت على الضهرية والمركز ودمنهور، ويزوره فى العتقا بعض الافندية الغرباء ، والواد بركات يشترى الجرائد ويستلف المجلات ، ويستعير الكتب ، ويعرف ما يحصل فى الدنيا ، وله أصحاب من المسئولين ، أصبح الولد خطرا .

رأى العمدة – كما يناديه الناس ، وشيخ البلد – كما هو مدون فى أوراق الحكومة – البنت هنية تمشى . ضحك ، خرجت تستلف ما سيقدمونه للضيف .

بعد تعسيلة الضهرية وجلوسه بقاعة العصارى ، عادت هنية مع البنت عظيمة . حرك أنور كساب منشته ، وعدل جلبابه وقال : إن عظيمة ستسافر مع الضيف ، الذى جاء ليأخذها ، الولد أعجبته أموال الغربة ، ستدخل عليه بدون زواج .

قال كحيل السحت إن البنت زوجته على سنة الله ورسوله ، لا ينقصها سوى « البزابورت » ، وأكد أن بركات قسم الاموال والهدايا بالعدل بين أهله . غضب أنور كساب ورفع يده إلى خده ، وضعها على أذنه اليمنى وبدأ كمن سيبدأ الغناء :

– بكرة نقعد جنب الحيطة ونسمع الزيطة .

كان متأكدا أن الخلافات ستصل إلى المحاكم .

لم يعد الناس الذين أخذوا عليه ، ينادونه إلا بأبى مكاسب ، وهو اسم آخر العنقود ، التى هى سكر معقود . يقول الغلابة ، إنه سماها مكاسب من كثرة ما يكسبه . ومنذ أن تركت اللفة ، والناس تشاهدها جالسة على فخذيه . ويمناه السمينة الشحيمة اللحيمة ، تمسك بيمناها المسمسمة ، ويسراه تلمس على شعرها المسبسب ، وإن حلف فهى أغلى يمين عنده :

– وحياة وش السعد .

وإن أراد السخرية من فلاح غلبان ، يتوقف فى منتصف الجملة ويسألها :

– مش كده ولا إيه يا مكاسب ؟

فتقول الطفلة بصدق :

– ايوه يا بابا .

فيضحك كل الجالسين ، ولا يقدر الواقفون على الضحك .

جاء المرسال ، وطقس العمدة فى الأمر . سأل كيف جاء ؟ هل كان يركب أتومويبل يسوقه بنفســـه ؟ أم أجر تاكسى مخصوص ؟ أم بالمعدية من كفر الزيات ؟ أتى راكبا عربية ، نص نقل بالنفر . أما أنه مرسال كحيتى ، أو ربما كان ملعوبا من ملاعيب بركات . سأل إن كان يحمل أى حقائب ؟ قالوا : انظف من الصينى بعد غسيله . أشار أنور كساب إلى رأسه ، علامة أنه فهم . إذن معه شيكات . المرسال مصرى أو عربى ، لم يعرف أحد ، يلبس بدلة أم يضع عقالا على رأسه ؟ أفندى عايق . الاموال فى البنك ، سيصرفها عبده بركات . تنبه أنور كساب ، الشر الذى تصوره بره وبعيد ، يدق أبواب العتقا .

وهكذا ، بدلا من أن يقترب من حلمه ، تأتى إليه المخاوف . كان أنور كساب ينتظر اليوم الذى يزداد عدد أهالى العتقا فيه ، حتى تصبح لها عمودية رسمية من الحكومة ، ويصبح عمدة بحق وحقيق ، وكان أملة فيما يفعله الرجالة فى الليل ، فى النط الحلال . ما أن يشاهد بطنا منتفخا ، أو مياه غسيل مدلوقة فى الحوارى ، أو نتاية معضوضة فى خدها . حتى يفرح ، فذلك يقرب يوم العمودية ، ويعد المواليد ويكاد يستمع لتأوهات النسوان فى الليالى . ولكن ها هى المشاكل تهب عليه .

ساعة المغربية

طبلية المحبة تساعى ألف

والطبلية وضعوها فى وسط المندرة البرحة الشرحة ، فوقها صينية نحاس، تبرق وتلمع مثل المرايا ، من يبحلق فيها يرى تقاطيع وجهه . فوق الصينية ، أطباق تشبه طقم الصينى الاصلى ، والتى لا يوجد منها فى العتقا سوى فى بيت أبو مكاسب حتى الاطباق البلاستيك استلفوها من الجيران . فى الاطباق المحمر والمشمر والمكتف . واقدام الطيور النائمة على ظهرها ، المرفوعة فى الهواء ، تشير إلى السقف ، الاقـدام متداخلة مع بعضها البعض ، ومشبوكة بطريقة مثيرة ، لدرجة أن عبده بركات تعجب وتساءل فى نفسه : كيف تمكنت ست أبوها من عمل كل هــذا ؟ أدرك أنها تعــرف من الامور مالا يعــرفه ، تحت السـواهى دواهى .

بجوار أطبـاق الزفر أناجر ، أنجر فتة تغطيها منابات اللحم ، « هبر هبر » ، وفى أنجر شوربة ، يغطى وجهها بخار الماء ، وحولها فصوص الليمون ، لكى يعصر كل واحد حسب ما يريد ، مع أن الانجر واحد . الملاعق هى التى كشفت الفولة ، كانت من أنواع مختلفة ، حسب الدور التى استلفوها منها . كل ما كان أمامهم شحتوه من بيوت الآخرين . الطبلية الكبيرة والصينية النحاس والاطباق . قرعاء تتعايق بشعر بنت أختها . غلابة ولكنهم يتمعشقون أن يصبحوا من أكابر البر كله .

ست أبوها لم تكتف بارسال العيال ، خرجت بنفسها ، بعد أن أعدت اللقمة الخفيفة والدور الثالث من الشاى للضيف . واجهت الموقف ، ضيف فى البيت ، ضيف وغريب ، مسافر من بعيد ، يتطلب الأمر أكل وشاى وجوزة تلف وتدور وتكركر ، بعد أن جفت كركرة الضحكات على شفاههم ، المشكلة ليست فى الضيف ولا فى طلباته ، ولكن فى بيتهم الذى سيصبح مثل الحلاوة النايحة ، يعف عليها دبان العتقا ، ويظل فوقها حتى تهشه وتنشه ، تحضر الناس طفطف طفطف وتمشى جماعات جماعات . يشربون الشاى مثل مياه الترع ، وتصبح مناخيرهم كمداخن فواريك الطوب من كثرة الدخان الخارج منها .

الضيف سيعود إلى بركات ويحكى له ، ولابد من اكرامه حتى يرفعوا رأس بركات وهو فى غربته . الحال صعب ، ولكن الضيف يجب ألا يشعر بأى شىء من هذا كله . ذهبت ست أبوها إلى بيت نظلة ، مرات كحيل السحت البقال . شريكتها فى الفراخ ، لكى تقول لها إنها ستذبح بعض الفراخ ، قبل يوم القسمة . ومرت على البيوت التى استلفت منها باقى ما تحتاجه .

اتكعبلت فى سيرها أكثر من مرة ، كانت مثل أم العروسة ، فاضية ومشغولة ، وكل اللاتى رأينها ، من نسوان العزبة ، قلن لها ، ربنا يطمئن بالك على ولدك . وقلبها انفطر على الولد ، وردت على النسوان وهى سرحانة ، سهتانة ، عادت إلى البيت ، أرسلت الولد نوح إلى الشيخ بخاطره ، فمشوار الجامع لا يقوم به سوى رجل أو الولد نوح .

والشيخ بخاطره ، يذبح الزفر على شرع الله ، حتى يكون أكله حلالا ، وهو يحتفظ فى جيبه بمطوة حامية مسنونة – فاكبر حرام أن تذبح طيرا بسكينة تلمة، مصدية – يضعها فى محفظة صغيرة ، ويعلقها فى قطان الصديرى . فى صدره كلام الله ، وليست له عينان حتى ينظر بهما إلى المقسوم لعباد الله . وفى عقله

خطبة يتلوها ، ويبسمل ويكبر ويوحد ، ويصلى على النبى فى نفس اللحظة التى يندفع فيها سرسوب الدم الدافىء من رقبة الطير . ينتفض جسم الطائر المذبوح ، ويسمع من الزور الخوار الاخير ، الذى يتناسب مع صحة وحجم الطير المذبوح .

عندما يكون المذبوح طيرا ، فالشيخ بخاطره يذبح ويمشى ، وإن كانت ذبيحة ، يندهون عليه ، إن لم يتمكن أصحابها من أحضار جزار من الضهرية . وقد يأتى مع الجزار ، يقرأ هو ويذبح الجزار ، ويتقاسم مع الجزار الحوايج ، يأخذان الفروة والرأس والكرشة والكوارع ، وقطعية لحم لكل منهما تجرى القسمة بين الشيخ بخاطره والجزار ، أو تثمن الحوايج ، ومن يشيلها يدفع حق الثانى ناشفا ، والمفاصلة تتم سرا ودون أن يسمع بها أحد ، والشيخ بخاطره والجزار لا يطلبون أى شىء من صاحب الذبيحة . ولكنها تكون وهبة منه ، أن كان من الاعيان ، أو حسنة إن كان من الفقراء .

ذبح الشيخ بخاطره الدجاج أمام البيت ، والاطفال جاءوا من كل البيوت ، ليشاهدوا عملية الذبح التى لا تحدث كثيرا ، والدماء طرطشت على هدوم العيال ، وجرى سرسوبها على الأرض . طرطشة الدم وصلت إلى الباب والحيطان الكالحة، ولأن الدم كان دافئا ، فلم يشم أحد رائحة زفارته .

طلعت ست أبوها على السطوح ، ورمت الحطب فى وسط الدار ، وسمع الجيران صوت تكسير الحطب ، وتنفيض التراب من الكانون وبطن الفرن ، أخرجت التراب منهما وردمت به الزريبة ، وضعته على شخاخ البهائم ، وطشت عود كبريت وأشعلت النيران فى الكانون أولا ، ثم بدأت تستعد لحمية الفرن .

فى بيوت الغلابة ، لاشتعال النار صوت ، ولغليان الماء وشيش محبب إلى النفس ، ولفزع الطيور واستغاثتها قبل الذبح حركات مذعورة . خرج الدخان الازرق ، حاملا رائحة الطبيخ من الطيقان أولا ، ثم من النوافذ ، ومن منافذ الابواب ، ومن مكان السقف الخالى فى وسط الدار . دلقت على باب البيت المياه التى غلت الزفر فيها حتى يسهل نتف ريشه ، كان الماء فيه ريش كثير ، وقف الأطفال ، الذين لم يحضروا الذبح ، ينظرون إلى الماء وإلى الريش ، يحاولون معرفة نوع الزفر الذى ذبح .

تناولت العزبة أخبار العزومة ، وحكى الرجال لبعضهم ، إن دسامة العزومة وتنوعها ، دليل على ضخامة ما أتى به الضيف من عند بركات . قالوا لو إن الضيف جاء بيد فارغة ما اهتموا به ، وما أنفقوا كل هذه الأموال على عزومته ، لابد أن الضيف معه ومعه ، أثار الذين مشوا فى الزفة أن الضيف ، لا يحمل معه حقيبة يد . سخروا منهم ، قالوا ، إن نقل الأموال – فى هذه الأيام – لا يتطلب شكائر ولا مقاطف ولا حقائب أو أجولة . تكفى ورقة صغيرة ، توضع فى جيب الساعة ، فلا يراها أحد ، وفيها رقم يتعدى المليون . الدنيا تقدمت يا أولاد. وهكذا تكلموا عن المليونات دون أن يعرفوها .

جاءت عظيمة مع هنية ، أخذتها ست أبوها فى حضنها ، وقبلتها أكثر من مرة فى خدودها :

– فات الكثير يا عظيمة . ما بقى إلا القليل .

كان الكلام حلوا له طعم فتافيت السكر على شفتى ست أبوها .

قالت عظيمة :

– الصعب راح والسهل جاى .

تفاءلت ست أبوها كثيرا بحضور عظيمة وفرحت ، أرسل أخوها ابنته لتساعدها وليرفع رأسها أمام العتقا . بعد عظمه ، جاء مرشدى دخل على مندرة الرجالة عدل ، ابتسم وهو يستمع لكلام أمه مع عظيمة . أبوه قال لاسامة أنه مرشدى ، أخو بركات . سلم ومرحب وجلس . كان صوت ست أبوها وهى تتكلم مع عظيمة فى وسط الدار واصلا اليهم . انسحب مرشدى من لسانه ، وقال للضيف الذى كانت أذناه تستمعان لما يقال فى وسط الدار :

– دى خطيية الغالى .

صمت أسامة علوان ، خشى أن استفهم أن يعرفوا الحكاية ، وأن تكلم ربما يتكعبل وسط كلماته ، وينفضح المستور ، استمع للدوشة التى أثارها حضورها وكبس الهم على قلبه . قال عبده بركات :

– حلفت لازمن تاكل من طبيخ ايديها .

لم يرد أسامة علوان فسأله :

– عارف ليه يابنى ؟

وأسامة لم يكن يعرف ، أصابة فزع من السؤال ، وتفاحة آدم وقفت فى منتصف زور عبده بركات ، بين عروق رقبته الطالعة والنازلة وخيل إلى أسامة علوان أن تفاحة آدم حزينة . وعينى عبده بركات غرغرتا بالدموع وهو يجيب عن سؤاله :

عشـــان تحكى لبركات لما ترجع عن طبيخ مراته .

وأكمل عبده بركات كاذبا ، كذب يرفع رأسه أمام المرسال :

– دول رأسهم وألف سيف لازم يعزموك .

أكمل :

– ويمين على يمين ، قلت حتما تكون عزومة ضيف بركات فى دار أبوه .

وقال بعد توقف قصير :

– نقسم البلد نصين ، يوم عندنا ، ويوم حداهم . أنت وراك ايه ؟!

يوم آخر ، وفى بيت خطيبة بركات ، الذى لم يره ، أى عذاب ؟ وأى ألم ؟ ولا يعـرف حتى حكايته ، وهو يستعجل الوقت حتى يمشى ، قبل أن ينكشف أمره ، قال أسامة بفزع :

– عندى أشغال كتيرة .

طمأنه عبده بركات :

– بكره الصبح يحلها من لا يغفل ولا ينام .

وقال أسامة علوان لنفسه :

– يا خوفى من الصبح .

سلمت عظيمة عليهم ، وتكلمت معهم ، خارج المندرة ، وسمعت أصواتهم ، ولكنها لم تسمع صوت الضيف ولم تره . مع أنها جاءت من أجله . عبده بركات ، استأذن من أسامة علوان وخرج لكى يسلم على عظيمة ، طبطب جوز عمتها ، على كتفها ، وقال لها :

– شدة وتزول .

ثم عاد إلى أسامة فى المندرة ، وعظيمة شمرت هدومها ، ووضعت شبشبها جنب الحيط ، وساعدت عمتها فى شغل البيت ، وعمتها قالت لها :

– عقبال ما تبقى هنا على طول .

كانت عظيمة تستمع لما يقال لها بأذن واحدة ، والاذن الاخرى سلكتها بعود كبريت ونظفتها حتى تستمع لدبة النملة ، كى لا تفوتها كلمة واحدة مما قد

يقوله الضيف . كانت تنظر لهم بعين واحدة والعين الاخرى مفنجلة تحاول رؤية مرسال الحبيب . ثم جاء أهل بيت عبده بركات . الذين حضروا قبل العشاء ، اتعشوا . ومن جاءوا بعد العشاء عزموا عليهم أن يمدوا لهم الطبلية ، فأقسموا أنهم أكلوا فى بيوتهم ، وشربوا الشاى ودخنوا الجوزة ، وأصبحوا على سنجة عشرة .

بنت عبده بركات الكبرى شوق جاءت أولا ، بعدها سيحضر موسى ، زوجها النطع ، الذى لا ينزل لعبده بركات من زور ، يشك أنه موالس مع العمدة ، ويبلغه كل ما يحصل عندهم . لا أمان له ، ولكن ماذا يفعل معه ؟ زوج ابنته ولا يستطيع أن يقول له تلت التلاتة كم . هل يخرب على ابنته لمجرد شكوك فى نفسه؟ والمرسال الذى جاء هو مرسال أخو مراته ، وهو يعد نفسه من العيلة ، وسيبقى كاتما على نفسه إلى ماشاء الله .

ثم جاءت ابنته حفيظة ، على كتفها طفلها ، وعلى صدرها طفلة ، ووراءها ولد . حالة من السبق فى الحبل والخلفة ، أفواه لا يعرف أحد من أين ستأكل فى الايام القادمة . الميزة الوحيدة ، أن لكل منها ولدا اسمه عبده ، وبنتا اسمها ست أبوها ، بينما تناثرت أسماء أبنائه واسم بركات تكرر فى الاسرتين أيضا . دون أن يسألها أحد ، عرفوا ، أن محمد زوجها سيلحق بها ، بعد أن ينتهى عمله فى فواريك الطوب الأحمر على شط النيل . يلبس الجلابية السكروتة ، وتحتها الصديرى الشاهى ، والطاقية الصوف ، والجزمة الجاهزة أم أستك التى اشتراها من البندر ، وفى يده السيجارة .

مقمع وعايق ، ومع هذا قد ينام أولاده على لحم بطونهم ، عريان الطيز ويحب التقميز . بيت مزوق من الخارج ، ولكن من يرى الضيق الذى يعانيه أهله من الداخل . ليلة بأكملها ، على عبده بركات ، أن يتحمل القنزحة والفشخرة والنعرة

الكدابة من سى محمد . بناته بختها مايل ، واحدة تزوجت من دلدول العمدة ومعرصه وخباصه . والثانية وقع بختها فى العايق ، الذى يمنع القرش عن ابنه ، لكى يلمع به جزمته من أجل أن يتمخطر بها فى العتقا ساعة العصارى .

عبده بركات أول من رأى ابنته الكبرى ، هلت على باب الدار ، تلبس فستانها الاسود ، الذى تلبسه المتزوجات من النسوان ، تجر أبناءها ، الكبير يرمح أمامها ، والرضيع على كتفها ، والوسطانى تسحبه بيدها . ساحبة وشايلة وجارة ، يادى الزحمة ، وزوجها خلص شغله وجاء إلى بيت حماه من بره لبره .

تضايق عبده بركات من حضور بنتيه ، ورجليهما واولادهما ، وكان ضيقه أكثر من حضور رجلى بنتيه ، لا دخل لهما فى الموضوع ، حيا الله رجالة بناته ، نسايب . لابد أنهم جاءوا ، لكى يحصل كل واحد على نصيبه من الغنيمة ، تمنى لو أن زوجته انتهت من إعداد العزومة حتى يأكلوا بسرعة ، ثم يورونه عرض أكتافهم ، وأجل فكرة الكلام مع الضيف ، حتى ينكشح كل الناس ، فالستر مطلوب وكثير من أبناء العتقا سافروا إلى بلاد العرب ، ولكن لا أحد يهتم سوى بابنه ، كأنه أول وآخر الذين سافروا .

كل بنت كانت تحضر ، تترك عيالها فى وسط الدار ، وتنزل الذى على كتفها ، وتتجه إلى الفرن والكانون ، وقبل أن تسلم ، تقول :

– بسم الله .

ثم تشارك فى العمل ، تمد يديها :

– خلى عنكو ياجماعة .

وتبدأ العمل من خلال الثرثرة النسوانى المعتادة ، عقبال الفرحة الكبرى ، يوم رجوع بركات ، يتذكرن أن عظيمة موجودة ، فتصبح الدخلة هى الفرحة التى لا فرح بعدها ولا فرح قبلها .

كان عسران آخر الذين حضروا ، رجل ملو هدومه ، يعمل الواحد له ألف حساب ، مخه أكبر من سنه ، ليس خفيفا مثل مرشدى ، يتكلم بهدوء ، وتدور عيناه فى محجريهما ببطء غريب .

– اتجمعوا الحبايب .

قالت ست أبوها لنفسها ، قبل أن تجلس إلى الطبلية . حزنت عندما وقفت أمام الجزء الثانى من المثل ، فحبيب عمرها غائب وغيابه هو الذى جمع الحبايب، قالت المثل كاملا ولكن فى سرها :

– اتجمعوا الحبايب ولكن الغالى غايب .

هذه الليلة ، ربما لأول مرة ، منذ سفره ، تشعر ست أبوها بحضوره قويا ، نظرت إلى الضيوف ، ما كانت تتصور أن بيتها يمكن أن يحتمل هذا العدد ، ولكن بساط المحبة يساع ألف حبيب ، وبيتها لم يتذوق طعم الفرح ، صحيح أنه عرف بعض الافراح الصغيرة . البنات تزوجن ، ولكن الفرح الحقيقى أن يتزوج واحد من الصبيان ، فالفرح بزواج البنت نصفه أحزان . بعد الغناء والرقص والطبل والزمر والزغاريد ، لابد ان ترحل البنت إلى دار زوجها ، وتنقص الايادى التى تعمل فى البيت والغيط يدان . أما فرح الصبيان فمختلف ، آخر الفرح ، تأتى إلى البيت عروسة ، تساعدها فى خدمة الرجالة وشغل البيت وتشيل جزءا من هم الغيط ، ولا أحد من صبيانها تزوج ، بكريها ، أخو عمرها وعمر زوجها متغرب ، ولن يتزوج ولد من الصبيان قبله .

وطبلية المحبة أصبحت طبليتين ، طبلية للرجالة فى المندرة وطبلية للنسوان فى وسط الدار ، على باب المندرة ، وبالقرب من قاعة الخزين والزريبة والقاعات الجوانية والكانون والفرن . طبلية الرجال – التى استلفوها من ولاد الحلال – كانت أكبر وانظف ، أما طبلية البيت مكسرة ، والتى تستند بصعوبة على ثلاثة أرجل فكانت للنسوان فى الصالة .

في المندرة ، قعبز عبده بركات ، وبجواره أسامة علوان ، الذى وضعوا له مخدة تحته ، وكان معهما أشقاء بركات ورجالة البنات . وفى وسط الدار ، كانت ست أبوها وبناتها المتزوجات وهنية وعظيمة ، وحولهن كوم لحم من العيال على الارض ، وعلى افخـــاذ أمهاتهم أطفال كثيرون ، يتلخبط الواحد فيهم ، يقولون لعبـــده بركات ياســـيدى ، ويسلمون عليه ويحبون على ظهـــر يده ، ويقـولون لست أبوها: ياستى ، ويحبون على ظهر يدها . والبنـــات تزوجن ، وهـــات يا خلفة ، ما أن تفرغ بطن واحدة منهن ، حتى تمتلىء بعد المشـــاهرة طوالى .

أصناف الاكل كانت مختلفة ، بين طبلية الرجال ، وطبلية الحريم ، والحريم لا يأكلن فى نفس الوقت مع الرجالة ، يخدمن على الرجال ، وأكلهن لا يتم إلا بعد صب الماء على أيدى الرجال من الابريق فى الطشت النحاسى ، وتقديم الصابونة أم ريحة الوحيدة فى البيت ، وأخيرا الفوطة لتجفيف اليدين . ثم تعلق واحدة منهن على الشاى .

اعتذروا لاسامة علوان بأنهم لا يشربون القهوة ، لا يوجد بن ولا كنكة ، والوحيد الذى عنده بن شيخ البلد ، ولا يشربها سوى الضابط فى النقطة الثابتة ، ومهندس الرى ، والدكتور فى الوحدة . بعد أن يخرط الشاى ويغلى ويفور ، وتملأ رائحته وسط الدار ، تعطى البراد والكبايات لواحد من الرجالة ، لكى يصبه ويحليه ثم يبدأن فى الأكـــل . بعد أن ينقلن ما تبقى من أكل الرجالة إلى طبليتهن .

ومثلما وزع عبده بركات المنابات على الرجالة وعزم عليهم ، وكان آخر واحد قام من على الطبلية . فإن ست أبوها وزعت المنابات على البنات والاطفال . قالت لبناتها المتزوجات إن البيت بيتهن ، وكانت عزومتها شديدة على عظيمة بالذات .

الولد نوح أحتار مثل كل المراث ، عين فى الجنة وعين فى النار ، يحب الأكل مع الرجال فهذا تمييز له عن الاطفال ، ولكن قعدة الرجالة ناشفة ، وطبلية الحريم أحلى ، ترد الروح ، وعندما يجلس عليها ، يأخذ أكلا كثيرا ، ويبدو مميزا فى وسطهن ويغمرنه بحنان لا يجده عند الرجالة ، الذين يتحول الاكل معهم إلى دروس فى طريقة الغموس ونظافة الاصابع ومضغ الطعام وعدم التفتفة .

وعلى طبلية الحريم ، كل اولاد وبنات شقيقاته ، وينادونه بياخال وكلمة خال تجعله فى نظر نفسه رجلا .

هذه الليلة اكتشف الولد نوح أن الجماعتين لا يأكلان فى وقت واحد . الرجال أولا ثم الحريم . ماذا يمنعه من الأكل فى المندرة أولا مع الرجالة ، ثم يكمل مع الحريم فى وسط الدار ؟ الليلة مولد وصاحبه غائب ، ولن يكتشف أحد طفاسته ، ولن يتعرض لفرك الاذن ولا لقرص الخد ، ولن يلهفه أحد قلما على صدغه ، ولن يقول له أبوه إن عينيه لن يملأها سوى التراب . فوجود الضيف أمان له .

فى المندرة ، نظر نوح طويلا فى وجه الضيف ، فوجده لا يشبه بركات ، فى وسط الدار ، جلس فى وسط اخوته البنات اللاتى جاء إلى الدنيا بعدهن جميعا ، ونظر طويلا فى وجه عظيمة ، مرات أخوه الغائب ، كان يجد سعادة وهو ينظر إلى حركة فمها الصغير المحندق ، ولا يتصور كيف تمضغ اسنانها التى مثل اللولى الطعام ، ولا كيف ينزل الاكل فى زورها .

لا يعرف أحد من أين جاء ، ولكنه هو يعرف أنه كبس عليهم لحظة الاكل ، لم يعزموا عليه . كان الرجال فى المندرة ، يحمدون الله على الشبع ، ويلمون الأكل المتناثر على الحصيرة ، ويقبلون أياديهم وجها وظهرا ، وست أبوها ومعها البنات،

يحملن الاطباق ، وبها بقايا أكل الرجال . أثار دخوله فرح الاطفال وتوجس الرجال وضحكات النسوان .

وقف فى وسط الدار وصاح :

– يا رحمة فين أراضيكى .

نفس الجملة التى نطق بها ، عندما رآه أسامة علوان فى الحارة ، يبحث عن الرحمة له ؟ أم الرحمة للآخرين ؟ غريب أمر هذا الرجل . أكمل :

– كل وقت له أدانه ، وأدان أيامنا جوابات المتغربين .

رآه أسامة علوان من جلسته ، عيناه الحمراوان يحيط بهما كحل أسود ، لا يتكحل سوى الحريم ، ولكن كل شىء جائز ، وجهه فيه شعر رمادى ، بدأ اللون الأبيض يغزوه .

لم تكن معه عصاه ، استغرب أسامة علوان ، فافهموه أنه يتركها على باب البيت ، لأنها أطول من كل بيوت الغلابة ، أما عندما يدخل عند الاعيان فيأخذها معه ، فأسقف بيوتهم عالية ، وقالوا إنه من الامور الجيدة أن يدخل عند البعدا بالعصا . سأل الطويل الهبيل ست أبوها :

– جايب لكم الديب واللا ديله .

لم ترد عليه . فأكمل :

– استنظروا لما أقرأ لكم جوابه ؟

قال عبده بركات لاسامة أن اسمه يمامة ، وأنه يحلف بالايمانات أنه اليمامة التى باضت وعششت على باب الغار الذى استخبى فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وصديقه . قال له : إن يمامة ابن ناس ، يحفظ كلام الله . جاء له لطف فى عقله من كثرة الكلام ، اتلخبط ومن يومها وهو تائه عن الدنيا .

قال يمامة لست أبوها :

– تلاقى جوابه زى كتابة اليهود ، تلتينها كدب .

طوله بدا واضحا فى الدار ، رأسه يكاد يلمس سقف الدار .

صرخ فى وجه ست أبوها :

– منابى ياولية .

قالوا لأسامة علوان إن يمامة لا يمد يده فى ماعون أكل مع الآخرين ، يأخذ منابه ويخرج إلى الخلاء ، لم يره أحد وهو يأكل أبدا . كانت ست أبوها تعد له طعاما ، وكان يقول :

– لو كان فاكرنا يابا ، مش كان يجينا . هانت عليه عشرتنا وخلاص نسينا ، الله يسامحه يابا ، على هجرته لينا .

أسرعت ست أبوها ، وأحضرت له منابه حتى يمشى . وقف على عتبة البـاب ، ومد يده يأخذ عصاته التى كـانت مركونة جنب الباب ، أخـذ المنـاب وهو يقول :

– يادى المجرجر يا قصب ، والبكا على باب بركات انتصب .

نادت ست أبوها على عبده بركات :

– مشى الواد من هنا ، حايطلع جنانه علينا .

نصحوه بأن يتركه يمشى من نفسه . لأنه لو عند وحرن لن يمشى ولا بطلوع الروح . بدأ يمامة يتطوح فى الحارة ، وهو يقول بصوت عال :

– حبلى طويل ، وقع فى البير ، ونزلت أجيبه ، قابلنى البيه ، عطانى جنيه ، اجيب بيه ايه ؟ أجيب به وزه ، والوزة تكاكى ، وتقول ياوراكى ، يا وراك الشوم .

كانت أذنا أسامة علوان تحاولان الوصول إليه حيث هو ، ود لو قام من مكانه ومشى وراءه ، ولكنه خجل .

ما جرى فى بيت عبده بركات ، كان له تأثير مختلف فى بيوت العزبة وعند أهلها . النساء فى البيوت ، يرتبط الزفر فى أذهانهن بالوصال والوشوشات والهمسات واحتكاك الاجساد ، وليالى التأوهات الطويلة . والرجال على المصاطب تذكروا يبوس حياتهم وجفافها ، وخلو مواسير عظامهم من النخاع ، وظهورهم من ماء الحياة ونطفة الخلق ، وعدم مقدرتهم لا على العمل فى الغيطان ، ولا على الرمح فى السكك ، ولا على الجماع والركوب فى الليالى التى لا أول لها ولا آخر .

والجدعان جرى ريقهم فى أفواههم ، بلعوه أكثر من مرة ، وراح كل منهم يتذكر متى أكل الزفر آخر مرة . والأطفال تمنى كل واحد منهم أن يأتى إلى بيتهم ضيف من آخر الدنيا ، مادام الضيف هو الشخص الوحيد الذى يصبح البيت بعد حضوره فى عيد أو موسم . والبنات حلمن بأن يتكلمن مع الضيف البندرى ، الذى يسحب خلفه غيمة من العطر ، والشبان تمنوا لو أن هذا الضيف كان بنتا من بنات البنادر .

العشـــا

روح النهـــار ، وبدأ الليل يدخل على العتقا . وبين مرواح النهار وحلول الليل ، كانت أهداب المساء المرتعشة ترفرف على العتقا . وقبلها استطالت الظلال . وفى آخر العصارى تداخلت فى بعضها ، واتصلت حواف الظلال ، وشكلت ثوبا واحدا كبيرا يغطى العتقا . وقروش الشمس الذهبية المتناثرة بهتت وأصبحت عليلة اللون .

غبشة المساء الرمادية نزلت من سماء الله العالية مرة ، وطلعت من قيعان الأرض الغويطة مرة أخرى ، لكى تلتقيان ، والغبشة الرمادية تحول لونها لتصبح قطـرات صغيرة من ظلام الليل . العتقا تعرف هذا الوقت ، وعلاماته عندها كثيرة ، صوت المؤذن على المئذنة ، يؤذن لصلاة المغرب ، ثم يصعد مرة أخرى ليؤذن لصلاة العشا .

الدنيا ليلت ، وحول دار عبده بركات حامت الحشرات الليلية ، الذباب يبحث عن مكـان يلبد فيه حتى الصبـاح . الناموس القادم من الغيطـان المـروية حديثا له طنين تعرفه الاذن جيدا . ست أبوها هشت الفراخ : بيتك .. بيتك . براد الشاى على النار يوش ، الدور الثانى ، الدور الثـالث . الشـاى يخرط ، يحـول الماء العكـر إلى حبـر يمكن الكتـابة به على الـورق .

فى بيوت الغلابة ، أيام الضنى والعوز متشابهة ، مكررة ، تأتى ، وكل يوم يفوق اليوم الذى سبقه ، حتى يمضى . أما ليالى الهنا والسرور فما أندرها ،

ولذلك فهى لا تتشابه مع أيام عمرهم الاخرى ، وتظل محفورة فى الذاكرة حتى ينزل عزرائيل من السماء لكى يقبض الارواح .

يوم الضيف كان يوما لا يتكرر ، جاء فيه مرسال الغالى ، ولذلك أكرموا أنفسهم على حس اكرامه ، كان يوما ولا كل الايام ، وبعد أن روح اليوم . جاءت ليلة ولا كل الليالى .

كان أسامة علوان قد وصل إلى شواطىء الحيرة ، مرت ساعات طوال ولم يتكلم مع أحد . سلامات وترحيبات وسؤالات وهز أيادى وطبطبة على كتفيه وارتماء فى الاحضان . ومع هذا لم ينطق بكلمة واحدة عن الذى جاء من أجله . بحر لا آخر له من كلمات المجاملات ، وقاموس هذه الكلمات عندهم لا ينتهى .

وأكواب الشاى التى يقدمونها ، تبدو وكأنهم يملؤنها من الترعة القريبة ، لا تكلفهم سكرا ولا شايا ، والسجائر معهم كثيرة رغم ضيق الحال . وضعوا أمامه سجائر كثيرة ، من أصناف مختلفة قبل الأكل قدموها له ، لكى يحبس بالسيجارة بعد الأكل ، وبعد الاكل قالوا تبلع بها الشاى ، وبعد الشاى ، أشاروا للسيجارة والهواء الذى سيعفرها فيه .

شرب الشاى ، ودخن السجائر ، وسمع الكلمات الكثيرة ، وبدأ يشعر بغيمة من الصداع تحيط برأسه من كل جانب ، وتقف فوق رأسه ، وألم فى أسنانه . الدخان فى المندرة أصبح مثل الشبورة فى صباحية يوم من أيام الشتا فى الغيطان الواسعة .

كان أسامة علوان يود لو أنهم خفضوا أصواتهم قليلا ، وأن يكفوا عن الصــراخ والزعيق لكى يسمع وشوشة الاشجار والماء وهمس أصوات الليل الريفية . ومنذ أن حط قدميه فى العتقا وهو يحاول فتح الموضوع . جاء عبده

بركات وأكلا اللقمة التصبيرة ، تنحنح لكى يتكلم ، فاتحــا الموضوع . وقال له عبده بركات :

- نكرم الضيف الأول ، وبعدين نخش فى الحكاية ، نسمع اللى جاى بيه ونرد عليه .

حاول أن يقول إنه يرغب فى العودة إلى بلده ، وأن الوقت ضيق ولكن عبده بركات قال :

- سلو بلدنا .

لا كلمة إلا بعد أن يقبل الضيف يده ظهرا وبطنا ويقول الحمد لله ويتكرع أكثر من مرة ، ويحبس بأكواب الشاى ، ثم يتكلم :

- عيب يا مرســـال الغالى - قالت أم بركــات - إحنا نعرف الاصــــول برضه .

سمعهم يقولون الحمد لله بعد الأكل ، ورآهم يرفعون أياديهم نحو السماء ويتمتمون بكلمات حاول أن يسمعها :

- اللهم صونها نعمة واحفظها من الزوال يا كريم .

ثم يقبل كل واحد يديه ، ففعل مثلهم . أكلوا وشبعوا وتكرعوا ، مد بعضهم يده وشد قطعة من سمر الحصيرة التى يجلسون عليها وسلك بها أسنانه ، وأخرج نساير اللحم التى اختبأت بين الاسنان ، وقفوا على أظافرهم ، وبدوا سعداء . جاء الدور الأول من الشاى فى كبايات صغيرة من الزنقو ، وأخرجوا سجائرهم التى لا يعرف من أين يأتون بالأموال التى يشترونها بها .

سمع أسامة علوان صوت شفطات الشاى ، ورأى أنوفهم وأفواههم قد تحولت إلى مداخن يخرج منها الدخان ، يشكل حلقات فى فضاء المندرة ، تقترب

الحلقـــات من بعضهـــا . وتصـــعد إلى أعلى وتصبح حلقة واحـــدة بالقـــرب من السقف .

ثم جاءت الجوزة والمنقد فيه الكوالح ، نيران مصهرجة ، سمع صوت كركرة الجوزة ورأى دخانها يخرج من الانوف على شكل خطوط بيضاء . كان يتصور أن الذى يدخن السجائر . لن يدس غابة الجوزة بين شفتيه ، ولكن عندما جاءت الجوزة ، كل الذين كانوا يعفرون السجائر اطفأوها وشدوا الانفاس من الجوزة ، وهناك من احتفظ بالسيجارة بين أصابع يمناه وأمسك بغابة الجوزة بيسراه وشد النفس من الجوزة ، بينما السيجارة مشتعلة فى يده .

قربوا غابة الجوزة من فم أسامة علوان ، ونفسه راحت للجوزة ، كان يرغب فى شد نفس واحد ورؤية الدخان الخارج من فمه وفتحتى أنفه ، ولكنه أعتذر . حلفوا له أنهم أحضروها من أجله بالعنية ، ازدادت كثافة الدخان فى جو المندرة، لدرجة أنه لم يتمكن من رؤية السقف .

نظر إلى باب المندرة ، لعل نسمة هوا واحدة تأتى من الخارج ، فلم ير ســوى البلغ والجزم تملأ عتبة البـــاب ، يحيط بها بصاق ويلغم تفه الجـــالسون حوله .

ها هو يصل إلى اللحظة التى من حقه أن يتكلم فيها . الاكل وكلوا ، الشاى وشفطوا منه ما يملأ كل بحـــار الدنيا . الدخـــان وشفاههم تبدو مكوية من كثـــرته ، وأسنانهم تغطيها طبقات صـــفراء منه ، المرحبات والســلامات وتعبوا منها ، الجوزة وكادت تقع من اللف والـــدوران ، لولا أنهم يمسكونها بأيديهم ، وهـــواء المندرة تلون ، وســـلو بلادهم نفذه لهم حتى القيـــراط الخامس والعشرين .

كان أسامة علوان يتوقع أن يبدأوا هم بالاسئلة ، وقد سألوه فعلا وكل سؤال يصاحبه رشاش من التفتفة . أسئلة سريعة لاهثة ، عن حالة الذى لا يعرفونه ، وأخباره التى لا تهمهم . وعامل أيه ؟ والعائلة الكريمة ازيها ؟ والوالد والوالدة لماذا لم يحضروا معه ؟ وبيت عبده بركات لا يوجد فيه راديو ولا تليفزيون، ولذلك لا يبقى أمامهم بعد الاكل سوى الشاى والدخان والثرثرة .

عند الحديث عن الراديو والتليفزيون ، يقولون إن كل واحد فى البيت بالع راديو ، وإن حياتهم نفسها أحسن من أى تليفزيون . والثرثرة هى ملاذهم الاخير، ثرثرة بسيطة ، تنتقل بهم من موضوع لآخر ، مثل الجوزة التى تلف بينهم ، والثرثرة لا يحكمها سوى خجل الريفى الذى يعتبر أن الستر واخفاء اسراره أهم ما يجب الحفاظ عليه ، والثرثرة لا تكون جماعية ، بل تكون ثنائية . كل اثنين يثرثران مع بعضهما البعض ، وقد بدا لأسامة علوان أن هذه الثرثرة يمكن أن تبدأ ولكن لا أحد يضمن أن تتوقف عند حد معين .

تجنبوا السؤال عما معه ، حياء أهل الريف منعهم من الكلام فى مثل هذه الامور . وهو ، أسامة علوان ، أدرك حقيقة موقفه وقسوته ، عندما رأى حالهم ، وشم رائحة ظروفهم ، ولمس احتياجهم ، وفهم الشدة التى يعانون منها ، رآهم وهم يتكلمون همسا ، وبالاشارة ، وعرف أنهم يدبرون له عزومته ، ويستلفون ، ليس المال ولكن الطعام وأدوات الاكل . لذلك ، أجل الحديث فى الموضوع ، وهم تجنبوا الحكاية أيضا .

لف الكلام بهم ودار ، أخذتهم بحور الكلمات إلى نهايات العالم ، طارت بهم إلى حيث يوجد بركات الآن ، وأن كان كل ما قاله أسامة عن بركات أنه غمغم ببعض أصوات ، لم تتحول إلى كلمات مفهومة ، قال : كويس ، قال : الاشيا عنده معدن ، قال : أحواله زين . قال : ماشي الحال . قال : مش بطال .

سألوه عن بركات ، عن السكن ، العمل ، والذهاب اليه كل يوم ، قلب الأم كان ملهوفا عليه ، سألت عمن يطبخ له لقمته ، ويغسل هدمته ، ويهوى فرشته ويرتب سريره ، ويمسح بلاط شقته ، ومن يكوى ملابسه ، ومن يطبطب عليه قبل النوم ، ويغطيه شتاء ، ويقفل الابواب والشبابيك صيفا ، ويصحيه عند شقشقة العصافير الصباحية ليجد إفطاره وشايه جاهزين .

أمام هذه الاسئلة ، كان اسامة علوان يلجأ إلى خياله أحيانا ، لكى يجيب عنها من واقع تجربته الشخصية ، ولكنه خلال البحث عن الاكاذيب ، وخلال تطبيق ما يفعله هو على بركات ، اهتدى إلى اجابة تغلق الباب على هذا كله مرة واحدة .

قال إن الحياة فى هذه البلاد سهلة . هناك مكن يقوم بكل ما تسأل عنه ، يضع الانسان الغسيل فى المكن من ناحية ، فيخرج مغسولا ومكويا من الناحية الاخرى ، مكن يبرد وقيد الصيف ويدفىء صقيع الشتاء ، أجهزة تقتل الذباب وتقلل الرطوبة .

قالت أم بركات ، إن الحياة سهلة على من معه صرة فلوس ، ولكن بركات مسافر وجيوبه انضف من الصينى بعد غسيله . رد عليها أسامة علوان أنهم كلهم سافروا وجيوبهم نظيفة ، ما فيها ولا تعريفة ، وعادوا يحملون على قلوبهم أموالا لا يعرفون كيف يصرفونها .

جاء زيدان الكفورى ، كان الوحيد فى الذين حضروا ، الذى نزل من فوق ركوبته ، حمارة بيضاء ، تركها ودخل ، وطلب من الولد نوح أن يربطها فى حديد الشباك ، حمارة نتايه ، سمينة ، لا تدخل زرايب أحد فى العتقا ، حتى لا تحتك بحمار دكر يناغشها وينط عليها ، وهى تنخ وتفشخ له كفليها ، زيدان الكفورى لن يترك أى حمار ينط عليها ، لن يتركها سوى لحصان حتى تلد بغلا .

بيت عبده بركات ليس فيه حمار ، ولكن ربط الركوبة فى حديد الشباك عادة عند زيدان . قال عبده بركات فى سره إن زيدان الكفورى غاوى فشخرة ، يربط الركوبة فى الشباك ، حتى يعرف الرائح والجاى والمتطلع فى الحوارى ، أنه موجود فى بيت أخته ، جاء ينجدها ، ويشد حيلها ، ويسلم على الضيف .

شعر أسامة علوان ، أن الرجل له كيان وشخصية ، وأن احترامه مزروع فى قلوب الجميع . وقفوا له كلهم ، وعندما سلموا عليه ، انحنى الكل أمامه ، وقبل بعضهم يمناه . وست أبوها ، وضعت ما معها ، وسمع أسامة صوت ، طرقعات قُبَلْ كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، فأدرك أنها تقبل الهواء ، رغم أنها تحتضن أخوها ، بزهو وخيلاء .

بدا زيدان الكفورى لاسامة علوان مثل فلاحى افلام السينما ومسلسلات التليفزيون ، رجل مهاب ، طويل وعريض ، خشبة ضخم شاربه كثيف ، يلبس جلبابا من الصوف ، ويلف عمامة حول طاقيته المغربى رغم الحر ، يعرق كثيرا ، وتتسلل حبات العرق بين شعيرات شاربه وتتجمع حبات العرق الاخرى تحت طاقيته ، لدرجة أن حوافيها التحتانية مبلولة ولونها قد تغير من كثرة العرق والبلل .

جلس زيدان ، يستمع أكثر مما يتكلم ، بعد صمت ، رف السؤال على شفتى زيدان :

- وايه أخبار ابننا بركات ؟

شهدت الجملة آخر الثرثرة ، وبداية الصمت . سمع أسامة بعض كلماته ، وتاه منه البعض الآخر ، ورغم أن أسامة فهم السؤال من الجزء الذى سمعه ، إلا أنه بحركة لا إرادية ، مد يده اليمنى ووضعها خلف أذنه اليمنى ، حتى يسمع كل

ما سيقوله هذا الرجل الذى يخشاه الجميع . لم يعد زيدان الكفورى السؤال مرة أخرى ، رفع صوته بسؤال جديد :

– زميلك جاى أمتى ؟

لم يكن عبده بركات مستريحا لحضور زيدان ، جاء أخو مراته والذى يبدو لعينيه مثل شيخ المنسر ، فما عليه إلا أن يركن جنب الحيط ، حتى يمشى زيدان من البيت . كان السؤال على طرف لسانه ، أراد أن ينطق به ، لولا وجود الناس ، ولكن هاهو زيدان يأتى يريد نصيبه واتمام زواج ابنته . ليت الضيف أرسل لهم ، وكان هو قد ذهب إليه فى آخر الدنيا بدلا من حضوره إلى العتقا .

كان عبده بركات يريد أن يسأل الضيف ، إن كان بركات بخير لماذا لم يحضر بنفسه ؟ سيقول سؤاله بدلا من أن يبلعه . إلى متى سيخزى وينكسف من وجود زيدان :

– ما جاش معاك ليه ؟

احتار اسامة علوان عن أى السؤالين يجيب ؟ ويكلم مَنْ ؟ والد بركات ، أم خاله ؟ قال لهما معا :

– ما قدرشى ييجى .

تكلم عبده بركات وزيدان ينظر له :

– ليه احنا لا ؟ عشان أيه توصل الحكاية عندنا وتقف ، زى اللقمة الناشفة فى الزور ؟

لماذا لم يحضر بنفسه ؟ السفر صعب ، ولكن حياتنا أكثر صعوبة ، والسفر يتكلف . حالنا نشف ، وبركات يعرف حالنا الواعر ، قبل أن يسافر ، وقد

لا يعلم أن الصعوبـــات تزداد . لام عبدم بركات نفسه ، ليسمع الضيف أولا ثم يحكم . لماذا يريد البلا قبل وقوعه ، وكلمة البلا التى جاءت فى باله عكرت مزاجه، واعتبرها فألا شؤها .

بلع أسامة علوان ريقه بصعوبة ، خلص اللعب وبدأ الجد ، راحت السكزة وجاءت الفكرة ، عليه أن يواجه الموقف الذى لا يعرف كيف ولماذا أوصل نفسه إليه ؟ قبل أن يتكلم أسامة علوان ، قال زيدان ، بصوت يصل لحد الزعيق ، رافعا يديه نحو السقف :

– وحدوا الله .

توقفت ألسنتهم ، وقالوا بصوت جماعى :

– لا إله إلا الله .

قال زيدان :

– وصلوا بينا على النبى .

رد عليه صوت الرجال فى هدير خافت :

– عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وجاء بعد الصوت صمت ، لا يتناسب مع عدد الموجودين فى المندرة .

سأل زيدان بإلحاح :

– بركات جاى أمتى ؟

أجاب أسامة علوان عن السؤال ، قبل أن يكون هناك سؤال آخر :

– قريب إن شاء الله .

سأل عبده بركات :

– معقول الشغل يمنعه عنا ؟

رد أسامة :

– الغايب حجته معاه .

أشار له عبده بركات :

– طيب ما أنت جيت .

– كل واحد وله ظروفه .

كان السؤال هذه المرة عتابا .

– والجوابات ؟ ! سنين ولا كلمة واحدة .

تنحنح أسامة علوان ، اقترب أكثر من المنطقة الخطرة ، لا سبيل أمامه سوى أن يأخذ زمام الكلمات ، يتحدث هو خوفا من أن تكشفه الاسئلة وإجاباته عنها . وقال :

– يا عمى البوستة بين البلاد وبعضها ما بتوصلش .

أكمل زيدان :

– فعلا .

لكى ينهى أسامة علوان هذا الموقف الصعب ، مد يده تحت قميصه ، تسللت أصابعه إلى المنطقة التى يوجد فيها القميص تحت البنطلون ، وأخرج ظرفا أبيض ، مرسوما عليه طائرة . سكتوا جميعا تحولت أعين الحاضرين إلى شريط من النظرات المندهشة ، اللامعة ، وهى تتابع يد أسامة علوان .

ناول أسامة علوان الظرف لعبده بركات ، وشريط الاعين تحرك مع الظرف من يد أسامة علوان إلى يد عبده بركات . صمت ، طنين . استمع أسامة علوان

إلى أصوات الصمت ، وكتمة النفس فى الصدور وجاءت أصوات الخارج إليه بالغة الوضوح . سمع جزءا من نشرة الاخبار ، وإن كانت أذناه لم تلتقطا كلمات واضحة . فكر فى حكاية العدو الذى يزور مصر هذا اليوم . لابد وإنهم طنشوا على وجوده .

سأل نفسه : هل بتنا على جفا مع اخواننا وأخذنا من العدا حبيب ؟ هل هذا معقول ؟ جاءه صوت شجى يرتل آيات من القرآن الكريم ، وصوت ساقية بعيدة تدور .

دق قلب عبده بركات بعنف غريب عليه ، لم يحدث له ، عندما طفش من بلده ، ولا فى لحظة فراق الأحبة ، ولا عندما انقطعت جوابات ابنه بركات . أصبح عرقه مرقه ، وفقد القدرة على النطق ، تمنى لو أنه كان مع الضيف لوحدهما ، دون أن يكون معهما أحد من الأقارب ، فالاقارب فى مثل هذا الموقف مثل العقارب .

العين لا تعلو على الحاجب . امتدت يد عبده بركات بالشريط إلى زيدان فسأل أسامة علوان نفسه : هل أخطأ بأن قدم الرسالة إلى والد بركات ، بدلا من أن يقدمها لخاله ؟ أزاح زيدان يد عبده بركات بالجواب :

– ودى تيجى .

أمسك عبده بركات بالظرف . اكتشف أنه ليس مثل كل الجوابات الاخرى، محشو عن آخره ، ومن زحمة الفلوس فيه يبدو صلبا . القرشينات جاءت أخيرا. هل أموال هذه البلاد مصبوبة من الحديد ؟ أم أن الذى فى الظرف عبارة عن حتة من الذهب عيار أربعة وعشرين قيراطا ؟ تحسس الظرف ، ارتفاعات وانخفاضات ، ولا مفر من السؤال ، ولو سمعت السؤال العتقا كلها :

- ايه ده . ؟

- جواب .

وقبل أن يكون هناك سؤال جديد ، ربما يأتى من أحد الجالسين قال أسامة علوان :

- افتحه يا عمى .

كاد عبده بركات أن يشرمط الجواب من جانبه بفمه ، أو يبله بريقه ، وبعد أن ينوب الصمغ يفركه بأصابعه حتى ينفتح من نفسه ، مثلما يفعل مع الجوابات الاخرى . ولكن لا ، هذا جواب العمر كله ، مزقه من جانبه بعناية وهدوء ، خشى أن يؤثر ذلك على ما فى داخله ، بدا الوقت الذى استغرقه عبده بركات فى فتح المظروف طويلا ، وكانت أعينهم تبربش من كثرة النظر ، لم تكن ترى جيدا ، لضعف النور العليل ، ولأن أمانيهم التى يشيلونها على أكتافهم وأحلامهم المؤجلة، تقف فى منتصف المسافة بين أعينهم والظرف الذى فى يد عبده بركات .

أخرج من الظرف شيئا غريبا ، جسم يراه لأول مرة ، لم يكن فيه ورق مكتوب يقرأه أحد الذين يفكون الخط أو الضيف . نظر عبده بركات ، ونظروا كلهم إلى الجسم الغريب الذى أخرجه عبده من الظرف ، فتح عبده بركات الظرف عن آخره ، نفخ فيه ، وعدله فى اتجاه ضوء اللمبة ، حتى يرى ما بداخله ، وفتش فيه من كل الزوايا والاركان ، لم يجد شيئا . قلبه ونفضه فى حجره ، خشى أن يكون ثمة شىء عالق به .

بص عبده بركات ، وبصوا كلهم معه نواحى أسامة مستفهمين دون أن يتحول الاستفهام المرسوم على ملامح الوجوه إلى سؤال مسموع . قال أسامة :

- شريط .

ضحك أسامة فى عبه من شدة دهشته ، ما كان يتصور أن فى العالم أناسا لم يروا شريط تسجيل . شرح أسامة الامر ، وأولاد عبده بركات الذين يعرفون هذا الشىء ، يكملون ما يقوله الضيف بالتناوب ، شريط - قال أسامة مرة أخرى - شرطان . قال أولاد عبده بركات - مسجل عليه رسالة بركات بصوته . ولكن كيف نعرف ما فيه ؟ هل نفككه ؟ ندشدشة ؟ لا ، لابد من مسجل ، شرح عسران : جهاز تسجيل ، فكر والده به ، مثل الذى شاهدوه فى مدخل محل الفول والطعمية فى كفر الزيات . فكر بجهاز تسجيل شاهدوه واستمعوا إلى صوت حلقة ذكر منه ، عند محل عصير القصب فى كفر الزيات ، عندما كان هناك آخر مرة . أعجب عبده بركات بالانشاد والغناء الرتيب وصوت السلامية . ونظر حواليه ، كان يتصور أن هناك من يقيم حلقة ذكر ، فى مكان قريب ، ولكن عسران أشار إلى المسجل ، وأن الذكر عبارة عن تسجيل على شريط يدور فيه . تساءل عبده :

- وبركات ماله ومال الحكاية دى ؟

تكلم أسامة علوان ، هم فى بلاد الغربة ، لا يكتبون الرسائل لأهاليهم . مسألة متعبة ، ورق وأقلام ، والواحد يعصر مخه ويجهد نفسه ، وينقل من كتب ، ويمقق عينيه ، هذا أشيك ، يسجلون الرسائل بأصواتهم ، وأهلهم يستمعون لها . والناس فى مصر يفعلون مثلهم ، يسجلون وهم يستمعون فى الغربة . أسرع وأسهل .

قالت ست أبوها ، التى كانت تقف فى عتبة المندرة ، تبحث بعينيها عن مكان تجلس فيه ، وسط الرجالة :

- بس بركات كتب لنا جوابات .

أكمل عسران :

– وردينا عليه .

سألت ست أبوها أسامة :

– تحب تشوفها ؟

حكى عسران الحكاية :

– فضلنا نبعت ، وهوه لا حس ولا خبر ، لغاية ما تعبنا من البعتان ، ومن عدم الرد . سكتنا ، افتكرنا جواباته ضاعت والا عنوانه اتغير .

قال عبده بركات :

– أول مرة أشوف الشريط ده .

قال له أسامة :

– تكنولوجيا يا عمى .

خربشت وجه عبده بركات علامات عدم الفهم ، وتقافزت فى صدره عصافير الدهشة . سأل أسامة ، وقد استهوته اللعبة وأخرجته الاجابة من كآبة الحال :

– إزاى ؟ !

وبدلا من أن يرد أسامة ، قال عسران :

– فيه مكنة تحط فيها الشرطان ، وأول ما تدور بركات يتكلم بحسه وانت تسمع ، بتشتغل بسته حجارة طورش .

نطق الرقم ، وهو يشير بأصابع يده الخمسة ، وأصبع واحد من أصابع اليد الاخرى .

سأله أبوه :

– طورش !؟

قال عسران :

– يعنى كبار .

قال أسامة علوان ، عن الجهاز المطلوب :

– كاسيت .

نطقها بطريقة لم يسمعونها من قبل أبدا . فكررها :

– جهاز كاسيت .

سأل عسران والده ، ألم يسمع الشيخ بخاطره يقول فى الجامع ، إن الله سبحانه وتعالى ، يخلق الكثير مما لا نعلم من أمور الحياة ؟

رد عليه :

– سمعته ، بس هو أنا عقلى دفتر ؟ هو أنا فاكر أكلت أيه إمبارح ؟

سألهم أسامة :

– بركات ما جبشى واحد منه فى سفرية من سفرياته ؟ .

رد عليه أكثر من شخص واحد بسؤال ، فى صوت واحد :

– وهو كان جه من يوم ما سافر ؟

منذ سفره لم يحضر ، من يوم أن دخل المطار ، ذلك المبنى المهول فى مصر البعيدة ، وبعد أن عاد عسران ، الذى وصله حتى باب المطار وحكى للعيلة ، وللعتقا ، عن مصر أم الدنيا ، التى لا أول لها ولا آخر ترمح فيها العربية

بالساعات دون أن يجيب آخرها ، والمطار أكبر من العتقا والضهرية وكل بلاد العب ، والطائرة أضخم من سراية أبو مكاسب ، وأوسع من مبنى المركز . يركب الناس ويدخلونها من باب مفتوح على جنبها ، وتبلع الشنط والشيل من فتحة تحت بطنها ، وتطير بهم ، وتعدى فى سماء العتقا كثيرا فى الليل وفى النهار .

قال عسران بعد عودته :

– الداخل للمطار مفقود والخارج منه مولود .

صرخت فيه أمه يومها :

– أنت فولت على أخوك .

كلما مرت طائرة فى سماء الله العالية ، يتذكرون بركات ورحلته التى سافر فيها ، ورحلته الاخرى التى يتمنون أن يعود بها من بلاد الغربة .

قالوا لأسامة علوان :

– أنت أول مرسال من طرفه .

سألوه :

– بعت معاك مكنه نسمع الشريط عليها .

ارتجفت أعماق أسامة ، وداعبت الدموع جفون عينيه ، وكاد ينهار ، ويقول لهم الحكاية . سيطر على نفسه وتماسك ، وإن كان قد أدرك أنه لن يتحرك من هنا ، حتى يجدوا جهازا يسمعون عليه الرسالة .

نظر عبده بركات للشريط وسأل نفسه : ماذا عليه ؟ كلام ؟ ما أسهل الكلام فى بلادنا ، ولكن من يقول إن كل كلام بر مصر قادر على أن يحل مشكلته؟ كان عبده بركات الود وده أن يختلى بالضيف ليسأله : هل على الشريط فلوس ؟

هل مكتوب فيه عقود عمل لاخوة بركات ؟ هل فيه تذاكر طائرة لهم حتى يلحقوا به ، ويكونوا عزوة وأهلا له فى بلاد الغربة ، ويسندوا قلب أخيهم هناك ، يقاسمونه العمل والعرق واللقمة والهدمة والسكن ، يشيل عنهم ويشيلون عنه . الهموم جبال وبحور ، وكل قفة لها ودنين يشيلوها اتنين .

ما دامت رسالة بصوته ، فلابد أنه يشرح فيها الطريقة التى سيصرفون بها الفلوس من البنك ، وكيف يسافر أخوته إليه ، حتى ينصلح حالهم مثل كل الذين سافروا ، ربما وصلت لبركات طراطيش كلام عن خلاف والده مع العمدة أنور كساب ، وحكم المحكمة ، واحتمال طرده من الارض .

وقد يكون على الشريط مخرج من أزمته مع أنور كساب ، هل يذهب بهذا الشريط إلى محامى فى البندر ، فيشيل عنه القضية ؟ ، هل يسمع صوت ابنه وهو يقول فى الشريط ، إنه أرسل له ما يشترى به مدفنا للعائلة فى ترب البلد . حتى لا تعكر عليه ست أبوها صفو الجنة التى ستكون من نصيبه ؟

رأى بعينيه الشريط ، ورأى من جديد أحلامه ، الجلابية الصوف . والصديرى الشاهى والبلغة السوقى البيضاء والطاقية المغربى وساعة الجيب التى يربطها فى الكتينة ، ويشنط الكتينة فى عروة الصديرى وتنزل الكتينة على شكل نصف دائرة فوق الصديرى . الكتينة تلمع والصديرى يلمع ، ويضع الساعة فى جيب الساعة الذى يكون تحت الباط مباشرة . يضع الساعة فى مكانها كل صباح ، رغم أنه لا يعرف قراءة أرقامها ولا حركة عقاربها ، ومواقيت الصلوات يعرفها من أذان الشيخ بخاطره ، وبياض نهاره وسواد لياليه ليست لهما مواعيد . ومع هذا فالساعة مهمة .

رأى نفسه يعود إلى بلده ، ويبحث عن أهله ، ويلم الشتات المتبحتر . بدت الاحلام تجر بعضها وكأنها مربوطة فى حبل واحد مثل بهائم أنور كساب

الكثيرة . وصلت به الاحلام السريعة إلى الحج إلى بيت الله الحرام . لماذا لا يحج ويصبح اسمه الحاج عبده بركات ؟ ويضع أصبعه فى عين التخين فى العب كله ، ويعود محملا بالسبح والبخور الربانى ، والجلاليب التى فى بياض هدوم الملائكة . يزوره أهل العتقا فردا فردا . يباركون له الحج ويهنئونه بسلامة العودة ، يرتمى فى أحضانهم ، ويقولون له يا حاج ، الكلمة التى لا ينادون بها سوى الاعيان .

يستأذن منهم ، يقوم ، يدخل القاعة الجوانية ، ويعود ومعه لكل منهم هدية أحضـــرها له من بلاد الحجاز ، والحج يتطلب أموالا كثيرة ، ولكن من يسعده زمانه ، هو من يســتمع كلمة ياحاج قبل أن يدفن فى القبر ، النساء تقبلن يده عند السلام عليه . تلف المرأة يدها فى الطــرحة قبل أن تمســك باليد التى وضعت على شباك ضريح حبيب الله ، وقبل أن تكلم الفم الذى هتف : أجرنى يارسول الله .

الأطفال يتوقفون عن اللعب ، ولا يقولون الغلط لحظة مروره عليهم ، وهو لن يمشى فى البلد ، إلا والعباءة التى فى سواد ليل العتقا على كتفيه ، والسبحة فى يده اليمنى ، وهو يحرك شفتيه حتى بدون كلام ، ويستمع إلى صوت خبطة حبة السبحة فى الحبة التى تحتها .

ثم يذهب إلى الحج مرة أخرى ، الاموال تلد الاموال مثل الارانب ، سيحج سبع مرات ، وفى آخر حجة يموت هناك ، ويدفن فى الأرض الطاهرة ، ويضمن أن يروح الجنة حتف ، أحلامه كثيرة ، تتطلب أموالا مثل الجبال ، تسد عين الشمس ، المهم أن يعرف ما فى رسالة بركات ، والباقى يهون .

حلم ، وحلم ، وحلم ، كل أحلامه وأحلام الذين حوله تشعلقت فى حبال اللحظة التى شاهدوا فيها الشريط . صحا من أحلامه على صوت زيدان :

- أنت رحت فين وجت ؟

أفاق من أحلامه :

- هيه .

نبهه زيدان :

- صحصح ، الضيف قاعد .

لام بركات فى سره ، عاتبه ، هل لا يعرف ظروفهم ؟ هل نسى الولد كيف يعيش أبوه وأمه وأخواته ؟ حتى يرسل لهم هذا الشريط ؟ هل تصور بركات أن عندهم جهازا ؟ ومن أين يا حسرة ؟

قال بصوت سمعه الحاضرون :

- البعاد جفا .

وأول أشكال الجفوة عدم معرفة أحوالهم . هل كان صعبا عليه أن يكتب جوابا يكفى شخص يعرف القراءة لــكى يقرأه . أو واحــد من خــواته ؟ أما هــذه المرة ، فالجرسة والفضيحة ضخمة ، والسر إن طلع من اثنين لا يصبح سرا .

سيعاتب بركات ويزعق له عندما يعود ، يسأله لماذا نسى أن يرسل لهم الجهاز مع الشريط ؟ فهو يعرف ظروفهم ، ويعرف العتقا . مثل كف يده . سأل عبده بركات أسامة :

- لازم م المكنة دى ، مالهاش حل تانى ؟

رد عليه :

- لابد .

سأل عبده بركات ابنه عسران :

– وتمنها كام .

قال له عسران :

– فلوس كتير خالص .

سأله من جديد ، وهو يريد أن يأخذ ويعطى حتى يزهق الحاضرون ويتسربوا واحدا بعد الآخر :

– يعنى كام ؟

رفع عسران أصابع يديه الاثنين ، شوح بهما خمس مرات :

– حوالى خمسميت جنيه .

– ياه .

قالت ست أبوها ، وكانت تجلس فى عتبة المندرة :

– يعنى تمن بهيمة عشر .

استغرقوا فى التفكير ، ماذا يفعلون فى هذه الوكسة ؟ سألت ست أبوها ابنها :

– وما حدش عنده منه فى العتقا ؟

قال أسامة علوان :

– كل واحد سافر ورجع عنده اكتر من واحد .

قال له عسران :

– الناس مدارياها الحيطان .

شرح عبده بركات :

– اللى يشوف البيوت وتزويقها ، يدخل جوة يلاقى ضيقها .

قال أسامة :

– العمدة عنده واحد أكيد .

شوح عبده بركات بيده :

– يغور من وشه .

سدت ست أبوها السكة فى وجهه :

– دا قطه جمل .

لم يفهم أسامة ، فشرحت له :

– لو خدناه ، وحصلت له حاجة ، يا ويلنا وسواد ليلنا ، ابعد عن الشر وغنى له .

قال زيدان لأسامة :

– الناس كل ربنا مايديها ، تنسرع أكتر على الدنيا . تقولشى حياخدوا الدنيا معاهم التربة .

قفل عبده بركات الموضوع :

– لو ضورنا فيه شريط بركات ، مش حايجيب إلا الاخبار النحس مش حايقول كلام زين .

سألوا عسران :

– مين تانى ؟

قال عسران أنه لا يعرف إن كانت هوانم عندها مسجل أم لا . رفض عبده بركات . قال بصوت هامس ، تعمد ألا تسمعه البنات :

– وبتاع هوانم حانحميه إزاى ، قبل ما نسمع بيه ؟ دا لازم يتطهر ويتوضأ عشان يقول كلام يرضى ربنا .

لم يكن عسران متأكدا إن كانت هوانم عندها كاسيت أم لا . فى بيتها راديو ، وتنوى شراء تليفزيون ملون . قالت ذات يوم إنها ستشترى مسجل ، تسمع عليه حكاية أدهم الشرقاوى . الرجل الوحيد الذى أكل كبدة السبع نية فى الناحية كلها .

صرف النظر عن هوانم ، وقال إن الاسطى متولى ، ترزى العتقا عنده راديو ومسجل ، فى جهاز واحد ، المسجل عطلان لا يعمل ، لأنه ركنه ولم يشغله لعدم وجود شـرائط . والراديو شغال . وقال إن كحيل السحت البقال عنده مسجل .

والده أوقفه ، فالخاطر الذى يدور فى ذهنه ، أنهم يجب ألا يحضروا كاسيتا من العتقا ، لأنه سيأتى صاحبه ، ويجلس معهم ، ويستمع إلى الشريط القادم من عند ابنه ، ويعرف الاسرار التى يجب ألا يعرفها أحد ، فالكلمة التى ستقال فى بيته ، سيضيف لها كل فم فى العتقا حكايات جديدة ، حتى يتضخم الأمر ويصبح حدوته وحكاية وموالا .

فكر عبده بركات أن يستحضروا جهازا من الضهرية ، حتى يدارى على شمعته . سأل عسران :

– والضهرية ؟!

– مليانة مسجلات .

– بس لازم واحد من معارفنا .

وقبل أن يرد عسران على مرش الاسئلة .

سأله والده :

– ونطاط الحيط ؟!

احتار أسامة علوان ، وهو يستمع لكلمتى نطاط الحيطان فقال له زيدان :

– دا مش نقبه ، دى كلمة بنقولها عليه ، وبقت زى اسمه بالضبط .

زادت حيرة أسامة علوان .

فقال له زيدان :

– دا فلاتى ، بتاع نسوان ، عينه زايغة ، الحيطان والبيوت ما لها حرمة عنده .

قال عسران :

– عنده أكتر من واحد . هو قادر يعد فلوسه ؟

أكمل أحد الجالسين :

– دى الفلوس عنده زى الرز .

سأل عبده ابنه عسران :

– دا ما يدكشى الجهاز الا بطلوع الروح .

قال له زيدان :

– تأجره منه ، القرش عنده أغلى من روحه .

ولكل ما فى العتقا قصة ، والمسجل الذى عند نطاط الحيطان له حكاية ورواية ، فى الضهرية ، يقولون إن الجهاز مسروق ، سرقه حرامى من أولاد كنيسة الضهرية ، قاطع طريق ، يلبد تحت جميزة عجوز ، على جسر ترعة ساحل

مرقص ، لن يعودون إلى بلادهم فى الليل . ومن سطوته وخوف الناس منه ، فلا أحد يدل عليه ، مع أن الكل يعلم أنه هو الذى يسرق البيوت ويحرق المحاصيل ويقلع الزرع ويطلق المياه على الزراعة ، يؤجره فلاح ضد فلاح آخر . حتى ضابط النقطة يقول : ما دامت لا توجد شكوى ضده فماذا أفعل له ؟

أخذ الجهاز لقمان عمارة من ولد راجع إلى بلده وقت الفجرية لوحده ، براوى لا أنيس له ، عائد على قدميه ، لم تكن توجد مواصلات فى هذا الوقت ، لبد له لقمان فوق الجميزة العجوز . نط من فوق الجميزة على الأرض فى اللحظة التى كان الولد يمشى تحتها ، أصبح الولد فى مواجهته ، الذعر الذى أطل من وجه الولد العائد أثار ضحك لقمان ، أخذ الولد إلى وراء الجميزة العجوز ، لم يكن معه سوى ساعة وخمسة جنيهات ، وبعض القروش ، ونظارة وولاعة وعلبة سجائر مستوردة من التى ملأت البر فى السنوات الاخيرة .

أعطاه الولد كل ما معه ، رجاه أن يترك له علبة السجائر ، والقروش والولاعة لأن الطريق لا يزال طويلا ، والسجائر ونيسه الوحيد فى الليل . الجوع كافر . الولد المذعور هو الذى نبه لقمان إلى أهمية الجهاز . طلب منه ألا يفرط فيه ، فهى المرة الأولى التى يحضر فيها هذا الجهاز إلى بر مصر .

كان لقمان عمارة يخبط على باب بيت نطاط الحيطان عندما كان أول شعاع من أشعة الشمس يطل على الضهرية ، فهو الذى يصرف مسروقات الليالى السوداء.. حيث يأخذها منه بتراب الفلوس ، ويسافر بها إلى البندر ، وهناك يبيعها بالشىء الفلانى ، متفق مع تجار ، يخلصونه من هذه المسروقات . الناس فى الضهرية تعرف هذا وتقول ، إن نطاط الحيطان مثل منشار المقدس صليب النجار ، طالع واكل ، نازل واكل .

ولقمان عمارة يترك ما معه فى هذا الوقت الصباحى ، إذ لا يمكنه العودة بمسروقاته إلى البيت . لذلك أيقظ نطاط الحيطان من النوم الذى بدأه منذ قليل ، وعفاريت الدنيا تتعارك على وجهه . يعطيه ما معه ، ويأخذ منه قرشين على ما قسم تحت الحساب ، والحساب يجمع ، والناس تقول إن الوحيد فى العب الذى يضحك على لقمان ، هو شيخ المنسر نطاط الحيطان ، فالحساب بينهما مؤجل ليوم الحساب ، وايش ياخد الريح من البلاط ؟

نطاط الحيطان ، لم يذهب بالجهاز إلى البندر لكى يبيعه ، لقمان قال إنه الوحيد فى البر ، فاحتفظ به لنفسه ، قد يبيعه بثمن أغلى ألف مرة لولد غاوى من البلد أو من أى بلد مجاورة . يقولوم فى الضهرية إن الولد صاحب الجهاز ، كان عائدا من الخارج إلى بلده اشليمة وهى من البلاد المجاورة للضهرية ، وأن الولد جاء مع أمه إلى لقمان بعد أيام لأخذ الجهاز منه ، ودفع مبلغا من المال له . فكل الامور تتم عيانا بيانا وعلى عينك يا تاجر .

عرضا عليه مائة وخمسين جنيها لكى يستردوا الجهاز ، جاء لقمان إلى نطاط الحيطان ، الذى رفض وهو يكز على أسنانه والشرر يطل من عينيه . لقد نجح الولد البنوته فى أن يخفى ما معه من أموال عن لقمان ، إنها المرة الأولى التى يضحك فيها أحد على لقمان . لن يأخذ الجهاز حتى لو أحضر كل أموال البر المصرى . تمنى نطاط الحيطان لو أن الولد جاء له لكى يعرفه كيف يعمل الجهاز .

اختلف الناس فى الضهرية حول اسمه ، البعض قال إنه جهاز ، والآخرون أكدوا أنه مسجل ، وهناك من دسوا أنوفهم فى الأمر وقالوا إنه راديو ومسجل معا . والمتعلمون من أولاد البلد قالوا بلسان معووج كاسيت . وقالوا إن آخر اختراع منه فى مثل حجم الكف .

يرجع مرجوعنا لبيت عبده بركات . راقت لهم فكرة تأجير الجهاز من نطاط الحيطان ، فهم يرغبون فى سماع الشريط قبل أن يسافر الضيف ، قد يتطلب الأمر ردا منهم ، فكر عبده بركات أن يذهب هو وابنه عسران والضيف معهما إلى نطاط الحيطان فى داره لكى يستمعا إلى الشريط هناك ويعودا ، ولكن ست الدار شهقت ، قالت إنها مستعدة تبيع حتى هدومها التحتانية لكى تستمع إلى صوت أبنها بأذنيها . حلف لها عبده بركات ، أنهما سينقلان لها كل حرف يقوله بركات . ولكن قلب الأم رفض هذا الكلام .

كان أسامة علوان يسمع ويشـــاهد ما يجرى أمامه وهو فى حالة من الرعب ، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف ماذا على الشريط ، صوت بركات أم غيره . قلوبهم تعرف صوت ابنهم ، وهو لا يعرف شكله ، ولم يستمع لصوته . خشى لحظة سماع الشريط ، وتمنى فى سره للمرة الالف ، لو أنه كان قد مشى وتركهم لشريط ابنهم .

كل محاولاته لكى يمشى فشلت ، والآن سيبقى مثل الجبل فى مكانه ، لن تزحزحه ولا حتى الزلازل حتى يستمعوا إلى الشريط ، من حقهم أن يستمعوا إلى ما على الشريط ، ومن حق ست أبوها أن تشرب بنفسها صوت ابنها الغالى المتغرب وما عليه سوى الانتظار .

كانوا يتكلمون جميعا ، فى نفس الوقت تقريبا ، وفاجأهم زيدان بانطفاء الرغبة داخله فى أن يبقى معهم . قال لاسامة علوان :

– الغدا عندنا بكرة .

وقبل أن يعتذر أسامة . قال له أكثر من واحد :

– معقول تزعل عمك زيدان .

قام زيدان ، قال للرجال ، السلام عليكم ، وقال للنسوان :

اتمسوا بالخير . رد عليه الرجال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، والنسوان قالت : يسعد مساك . نظر زيدان لعبده بركات :

– لما ترسوا على بر بلغنى .

قال له عبده بركات :

– حانسمعك الشريط بنفسك .

وودعوه كلهم لغاية باب الدار .

إنصاص الليالى

لم يكن عسران مستريحا لاحضار جهاز من نطاط الحيطان . سأل أبوه :

– اشمعنى نطاط الحيطان بالعنية ؟

قال أبوه :

– أهو اللى جه على بالى .

– عمره ما سعف مظلوم .

– عايزين نبعد بسرنا على العتقا .

ضرب عسران كفا بكف ، نطاط الحيطان يسلفهم الجهاز ؟ إنه أبرد من طوبة . وأصقع من زعابيب أمشير ، ومن يساعدهم لابد أن يكون فيه نخوة ، ودمه أسخن من حر بؤونة . أما نطاط الحيطان ، فهو يسلف الناس بالفايظ ، مشغول بتفريخ فلوسه عند الآخرين ، يضعها ويجعلهم ينامون عليها حتى تفقس مثل البيض ، والجنيه يفقس عشر مرات وربما أكثر .

عبده بركات حسم الامر :

– قفل بقى ، هوه موال .

طلب من عسران أن يخطف رجله ويروح الضهرية ، إما أن يستلف حمارا ، أو أن يأخذهـا كعابى ، ويطلب من نطـاط الحيطان أحد المسجلات التى يقتنيها فى بيته ، على ألا يحكى له ولا كلمة واحدة حتى لا يشاركهم المقسوم لهم . وقد

يطالبهم بفلوسه التى عندهم ، من يدرى ، قد لا يسلفهم بعد ذلك ، ولا أحد يضمن الايام الصعبة القادمة . ربما جاء يطلب الحلاوة ، ونصيبه فى هدايا بركات ، الذى لم يكن يحب حتى سيرته ، قبل سفره إلى بلاد العرب .

– أن سألك نطاط الحيطان ، قل له ، إنك مرسال وبس .

لا يوجد فى بيتهم حمار ، والدار الوحيدة فى العتقا ، التى يمكن أن يستلف منها حمارا هى دار خاله زيدان ، ولن يعطيه الركوبة العايقة ، التى يشتهيها الرجال أكثر من نسوانهم ، ولكن سيعطيه جمار السباخ ، والمرواح إلى بيت خاله ، وأخذ الحمار منه ، مشوار والحمار بدون بردعة ، يفرد عليه غبيط السباخ مطويا ، ويركب فوقه ، وسلسلة عظم ظهر الحمار ، ستسبب له خراريج ودمامل فى مقعده ، غير المناهدة ونخس الحمار وضربه ، وحا واجرى وشى . مرواح بيت خاله يساوى المشى حتى الضهرية . والحمار الذى سيعطيه له خاله لن يسعف عدوا ولا حبيبا .

الولد نوح ، الذى كان مصهللا ، شبط فى عسران ، يريد أن يذهب معه إلى الضهرية ، والولد نوح يمكنه أن يونس عسران فى السكة ، عبده بركات رفض ، قال إن مرواح الولد نوح معاه سيعطله ، خطوة الولد صغيرة ، وقد ينام منه فى السكة ، فهل يشيله على كتفه أم يشيل الجهاز ؟!

يأخذها كعابى ، ويامحلاها لو جاء واحد كبير معه ، يونسه فى المشوار ، مرشدى عرض أن يروح مع عسران ، ست أبوها رفضت ، قالت إن المساهرة فى الليل ، تجعل الكلام يجر الكلام ، ولن يعود إلا وش الصبح ، واحد فقط هو الذى سيذهب . أسامة علوان الذى تعب من الصخب ، قال :

– لو اتكلمنا فى الموضوع يا عمى من أول ما جيت ، كان الجهاز وصل وكنا خلصنا .

سهره صباحى أمامه ، ليلة بطولها تأتى بعد سفر متعب ، مرهق هو لحد الموت ، يفتح عينيه بصعوبة بالغة ، يكاد يمد يديه لكى يبعد الرموش التحتانية عن الرموش الفوقانية . قدماه أصابعهما تنميل لدرجة أنه لم يعد يشعر بهما ، وأن لسهما خطأ ، تجزع نفسه ، ويقشعر بدنه ، ويدارى حاله عن الناس الذين حوله من كل ناحية .

لم يكن يضايق عسران سوى الحر الشديد ، ولا نسمة هواء توحد ربها هفت على الناحية منذ أن جاء الليل ، والليل هو وقت الهواء الذى يأتى فيكنس الحوارى ودواير الناحية من حر النهار . التراب الذى يملأ السكة من العتقا إلى الضهرية ، يجعل مداسه يسف التراب ولابد أن يتوقف كل كام خطوة لكى ينفض المداس من التراب ، حتى لا يضايق قدميه فى المشى .

ومع هذا لم يكن المشوار علقة سخنة كما تصور عسران ، فالسكة من العتقا إلى الضهرية ، لم تعد مشوارا طويلا . المبانى والبيوت الجديدة زحفت على المسافة بينهما ، وأوشكت أن تلتحم فى بعضها ، والونس يملأ السكة ، مع أن أباه يحكى له ويقول ، إن من كان يسافر من العتقا إلى الضهرية ، كان لابد أن يستريح فى نص السكة ، أمام مدافن النصارى ، وكان يقضى فى المشوار ، روحه بلا رجعة ، نص يوم بكامله ، أما عن الحر ، فهو أقل بكثير من صهد النهار فى الغيطان .

ضحك عسران فى نفسه ، عندما فكر فى منظر الولد النواعمى الذى فى بيتهم ، والذى جعلهم يتبطرون على النعم الموجودة فى حياتهم ، « مافاضلشى غير أنى أجيب مروحة » ، والله زمان . كان عسران يمشى وهو يشيل على كتفه هم التعامل مع نطاط الحيطان . شخص رزيل لا يحبه ، والناس فى العب ينقسمون فى أمر تسميته . البعض يقول عنه نطاط الحيطان عندما يحب أن

يشير إلى علاقاته الحريمى . وهناك من يسميه يهودى بر مصر ، إن أحب الاشارة إلى استغلاله لكل ظرف يمر بالناس ، وهو يعمل فى كل الامور ، وإن كان لا ينطبق عليه المثل الذى يقول : « سبع صنايع والبخت ضايع » ، وإن سئل يقول إنه يعمل فى كل الشغلانات ، وإن كان يعمل فى أمر معين . يتاجر ، يبيع ويشترى حتى الهواء .

نهاز للفرص هو ، يقول إن الحياة مجموعة من الفرص ، التى قد تأتى فى العمر كله مرة واحدة ، ومن لا يستغلها عبيط أو مجنون أو غبى ، ويقول ضاحكا إن الشحات له نص الدنيا . ويردد إن القرش صياد ، يسافر مع أصحاب المصالح لكى يقضيها لهم ، يقرأ ويكتب ، وإن كانت الناس تحلف أنه لم يدفع مليما أحمر فى شراء ورقة أو قلم رصاص ، كل ما يستخدمه خرج بيت يشحته من الناس يقرأ الجرائد التى تصل إلى يديه ، يحكون عنه أنه يقرأ الجرائد ولا يشتريها ، يشحتها أو يستلفها ، ولا يعيدها . بل إنه يبيعها بكل بحاجة بالكيلو لدكاكين البقالة فى الضهرية ، يفاصل فى ثمنها ويقبضه ، ويعد على داير المليم ، ويخرج محفظته ويضعه فيها بهدوء وعناية .

مناخيره وشفاتيره مثل المدخنة من كثرة التدخين ، يولع السيجارة من السيجارة ، ولم يخرج من جيبه نكلة ، لكى يدفعها ثمنا لسيجارة ، كل ما يحتاجه يحصل عليه مقابل خدمات يؤديها للناس ، يخدم الترزى الذى يفصل له جلاليبه بلوشى ، ويقضى مصلحة للجزار الذى يقطع له قطعية لحم حمراء ، وجزاء من بيت الكلاوى ، وأحسن حتة فى الكبدة والمخاصى والمحاشى . إن انتقده الناس قال ببساطة إنه يلبس طاقية هذا لذاك ، وإنه فى زماننا ارشوا تشفوا وابرز تنجز .

نطاط الحيطان ليس اسمه ، وإن سأله أحد عن اسمه لا يرد عليه وان كان يقول له :

- عد معايا ، البركة فى العد .

يضحك من يسأله :

- حتى فى الاسامى بتعد .

يرد عليه :

- الناس فى الدنيا نوعين ، ناس بتعرف تعد ، وناس ما بتعرفش ودول ما يستهلوش أنهم يعيشوا .

يعود لحكاية العد :

- اجمع معايا ، سحس وسحس يساوى كام .

يتوه عقل من يكلمه ، وإن كان يعرف الحسبة :

- سحسين .

يضربه على كتفه ، وكأنه قد وصل لحل حسبة برما :

- اسمى سحسين . حسين اسمى ، وسى للتعظيم ، ولأنى عظيم من يومى، أصبحت جزءا من الاسم .

لابد أن يقال له سى هذه ، ويحتج بشدة ، إن قال له أحد حسين فقط ، حتى لو كان الذى يقول له هذه الكلمة فى سن والده ، واسمه بالكامل : سى حسين أبو حسين . ومن طرافة سى حسين وطريقة قوله ، نسى الناس باقى الاسم : أبو حسين ، ويتعاملون معه باعتباره سى حسين فقط .

والحكايات عن ماضيه كثيرة لدرجة أنها تتعارض ، يقولون إنه كان مجاورا فى الازهر ، والذين يتعاركون معه ، يزعقون فيه :

– أزهرى وفسد ، دى تبقى حكاية ورواية .

شاب شعره مبكرا ، نام وشعره أسود غطيس ، مثل ليل الارياف ، وصحا من نومه ، ليكتشف أن شعره ، قد طق مرة واحدة ، غسله البياض ولم تنج شعرة واحدة وتبقى سوداء .

وهناك من يقولون إنه لا أحد يعرف أصله أو فصله ، والشيوخ يقولون إن جده جاء إلى الضهرية ذات مساء . بلاد الله ، خلق الله . وبقى وعاش فيها . وسى حسين لا يحب أن يؤكد إحدى الروايات التى تقال عنه ، وهو من أكثر الناس الذين يتكلمون عن الفضائل والشرف والتقوى والنزاهة . يداه تدخلان جيوبه ممتلئتين وتخرجان فارغتين ولا يحدث العكس أبدا . عيناه تنظران ، فلا يرى إلا ما يريد رؤيته ، وأذناه لا تسمعان إلا ما يرغب فى الاستماع إليه .

لا مشاعر له ، حتى النسوة اللاتى ينط عليهن فالأمر يتم بدون مشاعر ، شعاره معروف : « نط وأجرى » . ولا تربطه علاقة بأحد من الناس فى الجيرة وجيرة الجيرة . علاقات الناس فى نظرة مثل شبك العنكبوت تكعبل الواحد وتشنكله .

دق عسران ، باب بيت نطاط الحيطان ، فتح له الباب ، عرفه ، الولد الوسطانى لعبده بركات ، من غلابة العتقا ، العزبة الكحيانة العايشة على اللضا . سأل نفسه بمجرد أن رآه : ليه ما جاشى مرشدى الولد الصغير ؟ ، فهو لا يحب عسران ، وعسران لا يريده ، دقة الباب ، جعلت فكر نطاط الحيطان ، يودى ويجيب ، رزق واللا غرامة ؟ رزق طبعا ، لم يخلق بعد الذى يمكن أن يغرمه مليما

أحمر ، لا يمكن أن يكون عسران قد حضر إليه ، يعط فى ظلام الليل ، يدوس مرة على التراب ، وتانية على شخاخ السكك ، وتالتة يندب فى بركة ميه ، من أجل أن يسدد له دينا عليهم .

لا أحد يأتى لتسديد الديون ، هو الذى يجرى ويلف ويدور ويفتعل المشاكل، وأحيانا تدخل الحكومة فى الموضوع ، حتى يأخذ ماله من عند الناس ، جاء عسران الآن ، أكيد يريد مالا أو خدمة . المال يخرجه بالفايظ ، والخدمة يقدمها بثمنها ، وإن كان لا يقول ذلك . يحمل اتعابه على أى بند من بنود الخدمة . يقول عنه ثمن ورق بوستة ، أو دمغة ، أو تسليك زور الناس الميرى ، الذين يتعامل معهم، وهو يعرف والناس تعرف ، أين تذهب هذه الاموال ، ولا أحد يتكلم ، ولا أحد يعترض ، لأن المحتاجة غناجة .

يغضب سى حسين أو حسين من المقدمات . فلوس أو خدمة ، ليتكلموا بوضوح ، ويريحونه من اللف والدوران ، والحكايات التى لا أول لها ولا آخر . يحب الناس الذين يدخلون فى المواضيع دوغرى جلس عسران وتكلم ، تناتيف كلام ، قال له نطاط الحيطان :

– هات من الآخر وقول .

استفهم منه عسران .

– دور الشريط بالعكس .

– آه .

جف ريق عسران وهو يتساءل : هل يعرف هذا الخبيث الموضوع الذى جاء من أجله ؟ ليدخل فى الموضوع ، ما دام نطاط الحيطان ، قد أعطاه أول خيط الكلام .

– « عايزين جهاز » . « جهاز أيه ؟ » .

- « مسجل » .

- « مسجل ؟! » .

- من اللى تحط فيه الشريط يتكلم .

ضحك سى حسين ، استلقى على قفاه من الضحك ، واستغرب عسران ضحكه . فقال له إن الضحك عنده مثل لوازم الكلام . توقف عن الضحك وقال لعسران .

- خش فى الكلام ، الدنيا ليل ، جهاز ايه ؟

عسران مكشر ومبوز دائما ، لا يستجيب لهزار الناس الذين عامت فشتهم . شايل الهموم من صغره . نزل من بطن أمه ، ووشه يقطع الخميرة من البيت ، عمره ما تبسم حتى ولا لرغيف الخبز الساخن الخارج من الفرن لتوه .

قال له عسران بجديته ، إنه جاء من العتقا ، ليس من أجل أن يقول له : العواف عليك أو مساء الخير ، ولكن لكى يأخذ جهازا . أخرج سى حسين سيجارة ، أشعلها دون أن يعزم على عسران . تساءل عسران من صاحب العلبة التى يدخن منها ؟ تكلم سى حسين :

- قلت لى بقى ، عايز جهاز .

هذا أغرب ما كان يتصوره فى هذه الايام ، ابن عبده بركات يريد مسجلا، ماذا سيفعل به ؟ ما هى الحكاية وما فيها ؟ لابد أن يعرف الموال كله . سند سى حسين خده على بطن كفه ، واكتشف أنه مهما حاول أن يفكر فى أمور هذه الايام الغريبة ، فكل غريب يأتى يمسح الذى قبله . عسران ابن عبده بركات يريد مسجلا فى هذا الوقت من الليل . غريب وعجيب ما يجرى ، وفى هذه الايام خرجت الاسلاك من قلب الحيطان ، ونورت ظلام ليالى الضهرية ، وانشق جوف

الارض وأطلت من باطنها المواسير التى ينزل منها الماء يروى العطشان ، وحمل الهواء وولد صورا يرونها فى التليفزيون . ولكن ما هو أكثر غرابة من كل هذا ، أن يأتى عسران فى الليل ويطلب جهاز كاسيت .

حاول سى حسين أن يخفى دهشته ، وأن يبدو كما لو كان عليما بفسية النملة ، سيلعب من الولد عسران كل ألاعيبه .

- « عندكم ميتم ؟ » .

- « فال الله ولا فالك » .

- « فرح ؟ » .

- « لسه مشوار الافراح بعيد » .

- « مولد ؟ » .

- « ما جاشى أوانه » .

- « ليلة ذكر شىء لله يا أهل الله ؟ » .

خـــاف عسران أن استمر فى الاخذ والعطاء أن ينكشف أمره دون أن يدرى ، شوح بيده ، وهو يحاول أن يبدو وكأنه يهم بالقيام منصرفا :

- بالك رايق ، مبسوط ومعمر الطاسة ، وعايز تتسلى لغاية الصبح ليلك نهار ونهارك ليل .

سأله سى حسين .

- « أبوك اللى بعتك ؟ »

- « امال جاى من خطرى » .

لا مفر من السؤال المباشر ، وأمره لله :

– وعايزه ليه أبوك ؟

راوغه عسران :

– نسيت أسأله .

– والجهاز عايزينه الليلة ، الليلة ؟ !

قلده عسران فى نطقه للكلمات وهو يرد عليه :

– « الليلة ، الليلة » .

– « دلوقت .. دلوقت » .

– « دلوقت .. دلوقت » .

– وما ينفعشى بكره ، دا حتى النهار له عينين .

خشى أن يرد :

– ماكانشى خلانى اخبط على بابك فى الضلمة .

دس سى حسين أنفه أكثر :

– يبقى الموضوع خطر ومهم .

خاف عسران أكثر وهو يقول :

– الكذب خيبه ، علم دا عند ربنا ..

انتقل سى حسين إلى موضوع جديد .

– الجهـــاز مســـئولية ، وأنا من حقى أعــرف حايعمل ايه ، جايــز يذيع خطب .

كان يحاول كسب الوقت حتى يفهم الفصولات التى يعملها ابن عبده بركات ، ويكشف ملاعيبه . لم يتبادر إلى ذهن سى حسين أن هناك شريطا مرسلا من بركات ، الذى يعمل فى ديار العرب ، فهو يعرف أن من يريد ارسال جواب لأهله يكتبه على ورق أبيض ، وهو يقرأ بعض هذه الجوابات عندما تأتى ، ويكتب بعض الردود عليها .

وجد نفسه برغم الخبرة ، والسنوات الطويلة ، والمعرفة الدقيقة بظروف الناس ، يقف ولأول مرة ، أمام موضوع محير ، لا يستطيع الوصول إلى قرار فيه « مشكلة » ، قالها نطاط الحيطان لنفسه ، وقد أوشك أن يصل إلى حافة الجنــون . طرأت له فكرة من أفكار الحشاشين تخرجه من ملل هذا الوقت من الليل . سأل عسران :

– تعرف الجهاز اللى عندى بكام ؟

تصور عسران إن الحكاية قربت تفرج :

– ومنين أعرف ؟ كنا اشتريناه ، ما أنت عارف البير وغطاه .

رد سى حسين على نفسه :

– ثمنه خمسميت جنيه ، نص أستك .

استفهم عسران عن معنى الكلمة الاخيرة ، قال سى حسين إن الاستك يعنى الالف ، لأنه لا يوجد ما يستطيع جمع الالف لبعضه سوى الاستك ، لا محفظة ولا غيره ، وأن تركت بدونه تضيع . قال سى حسين :

– ما أقدرشى آمن عليه ، معذور ياخويا ، دافع فيه خمسميت جنيه كل جنيه ينطح جنيه .

كان عسران يريد من سى حسين أن يمشى الشوط حتى آخره .

قال سى حسين :

– آجى مع الجهاز .

شرح الامر .

– تشغيله صعب .

لا يوجد منه فى مصر سوى ثلاثة ، واحد مع الرئيس ، والثانى مع مليونير ، والثالث معى .

قال له عسران :

– وحانتعبك ليه ؟ إحنا فى حصة متأخرة .

طبطب نطاط الحيطان على ظهر عسران بكفه الكبيرة :

– تعبك راحة ، أنا باتعب عشان جهازى ، وأنا والجهاز فى خدمة ناس ليه عندها فلوس .

يلمح لدينه عليهم . سيقول ما عنده بقلة أدبه المعروفة :

– دى فلوسى دلوقت أقدم من المش اللى فى زلعة الوالدة .

قال عسران :

– الدار أمان ، واحنا لنا معاملات معاك .

– كلها حتت صغيرة ، مافيهاش حاجة بخمسميت أهيف .

كانت أصابع سى حسين طويلة ، ومفرطحة ، ومعوجة من آخرها :

– دا جهاز حساس .

وجد عسران نفسه فى مواجهة موقف ، لا يعرف كيف يتصرف فيه ، لم يعمل حساب ما قاله نطاط الحيطان ، أخرجه من أفكاره صوت نطاط الحيطان :

– واللا تكون فيه أسرار ، والليل بيدارى .

برق فى ذهن حسين ، وهو ينطق بكلامه الاخير خاطر ، جعله يطمع أكثر ، يتآمرون على أنور كساب ، يسجلون له كلاما يقدمونه فى المحكمة ، يمنعونه من أخذ الارض ، وازن الأمر فى عقل باله . هل يساعدهم على ذلك ؟ هل يبلغ أنور كساب ويكسب عنده بنطة ؟ أيهما الافيد له ؟ هؤلاء ناس غلابة يمكنه أن يأخذ منهم ما يريده ، أنور كساب بطنه واسعة ، ذمته يرمح فيها القطار ، شيخ بلد وطالع فيها ، فاكر نفسه عمدة بحق وحقيقى .

لماذا يتعب نفسه ، تاهت ولقاها ، يلعب على الحبلين ، يمسك العصا من النص ، يمشى مع الغلابة ، ويبلغ ابن الاكابر ، يكسب الذين يمص دماءهم ، ويضع حصوة فى عين الذى يمكنه من أكل لحمهم ، نسيرة نسيرة ، ويجعل عظامهم تعريشة يكوم تحتها أمواله ، التى أصبح يخاف منها بسبب كثرتها . آه لو جاء الولد مرشدى بدل عسران ؟ حظوظ ، عسران ولد متنمرد ، طول بعرض ، غريب على خلفه عبده بركات ، واعر وغويط ، الناس تقول إنه طالع لأمه ، والولد مرشدى سهتان ودبلان والناس تلطعه لأبيه لزق ، أما بركات فهو لخاله بركات لزم .

جاء عسران وليس أمامه سوى جرة حتى يقر بما يعرفه :

– حاتسجلوا لأنور كساب حاجة .

رد عليه عسران :

– لما تطلع الميه فى العلالى من غير مكن .

هل أخطأ عسران بما قاله ؟ أكمل :

– ما أعرفش .

شخط فيه نطاط الحيطان :

– هيه الاسطوانة اللى جواك علقت على ما عرفش .

تدارك نطاط الحيطان الامر ، قال من باب مد حبال الكلام :

– عايز رهينة للجهاز بنفس تمنه .

شرح فكرته بهدوء هذه المرة ، ما دام مرواحه إلى بيت عبده بركات غير مرغوب فيه ، وهم أحرار فى بيتهم ، وهو تعبان من رمح النهار ، السكك أكلت من قدميه راقات . فهو يطلب من عسران رهينة ، يأخذها ويسلمه الجهاز ، ويعيدها إليه عندما يحضر له الجهاز بعد استعماله سليما .

بدأ الكلام بطيئـا ، ولكن الكلمات أسرعت فى فمه ، حتى تداخلت الأحرف .

– اللى أوله شرط آخره نور ، ومن تحكم فى ماله ما ظلم ، الجهاز أمانة عندى يا ابن أخويا .

بدأ يتكعبل فى أكاذيبه ، والكذاب نساى ، ومن يصدق نطاط الحيطان ، قال منذ قليل إن الجهاز اشتراه بخمسميت جنيه ، والآن يقول إنه أمانة ناس عنده ، والقرآن الكريم طلب منا أن نؤدى الامانات إلى أصحابها .

قال عسران :

– وهيه حصلت لكده ؟

كان سى حسين أبو حسين يريد أن ينتهى من الموضوع ، ما دامت أبواب الحكايات والأسرار قد سدت فى وجهه قال :

– الاصول ما تزعلشى ولاد الاصول يا ابن الاصول ، واللا ايه ؟

سأل عسران نفسه : وايه عندنا يترهن ياحسرة ؟ استربع سى حسين على الكرويته ، ووقعت فردة البلغة اليمنى من قدمه اليمنى ، وفردة البلغة اليسرى من قدمه اليسرى ، ونفض قدميه من التراب العالق بهما .

– « ما أنت عارف اللى عندكم ؟ » .

– « وهو لو كان فى البيت حاجة تساوى الخمسميت جنيه كان بقى دا حالنا ؟! » .

– خش فى عبى يا واد . فكر كويس .

– والبنى آدم فى بيتنا ما يساويش خمسميت جنيه .

تصور عسران أن الرجل يماطله ليس إلا ، ولا يريد أن يعطيه الجهاز ، ولكنه فوجىء بنطاط الحيطان يسأله :

– غلب حمارك ؟

سكت عسران ولم يتكلم ، من العيب أن يقول : غلب حمارى .

قال نطاط الحيطان :

– الجاموسة العشر بخمسميت جنيه ، تشرف عندنا وتاخد الجهاز وهيه فى الحفظ والصون .

قال عسران :

– ما تاهتشى عن بالى ، بس دى شرك .

أشار نطاط الحيطان لمخه :

– ودى تغيب عنى يا فالح ، هو أنا حا اشتريها منكم ؟ رهينة وبس ، سواد الليل وخلاص .

شرح عسران ، إن الجاموسة ليست شركا فقط ، ولكن الذى فى بطنها شرك أيضا .

زعق فيه نطاط الحيطان .

– أنت حاتتناهد فيه ليه ؟

ثم سأله :

– أنت مش حيا الله مرسال أبوك ؟ عاود له واعرض الموضوع عليه .

معه حق نطاط الحيطان ، ليس من حقه أن يتشرط ، يرجع إلى أبيه وأمه يتشاور معهما فى الموضوع. على باب بيت نطاط الحيطان قال له عسران :

– بس خليك فاكر .

رد عليه نطاط الحيطان وهو يسلم عليه :

– ودى حاجات تتنسى .

عاد السكة مرة أخرى ، أحس بخوف لأول مرة ، الحكاية ستنزل فى الغويط ، وقد تأخذهم جميعا ولا يطلع أحد منهم ، ليت المرسال ما حضر ، تمنى عسران لو أنه وصل إلى العتقا فاكتشف أن المرسال هرب ومعه الشريط الذى سبب لهم كل هذه المتاعب ، ويا عالم عليه ايه .

استغرب نطاط الحيطان . قال حكاية الرهينة ليطفش الولد ، ولم يكن لديه أى يقين إن الولد سيرجع إلى أهله ، ثم لماذا يحدفون أنفسهم عليه بهذه الصورة البلد فيها أجهزة كثيرة ، وقد لا يرجع عسران له ، وإن رجع بالجاموسة ، ستكون حكاية ولا كل الحكايات . شعر حسين أبو حسين بفائدة سهر الليالى .

وجلس ينتظر .

– ٢ –

الليل ستار العيوب ، يغطى العريان ، ويمنح من يطلبون حماة الامان ، والليل له أولاده يحاجى عليهم ويحميهم حتى من الحكومة نفسها ، وعبده بركات تمنى لو أن الجاموسة وصلت إلى الضهرية ، وجاء الجهاز إلى العتقا ، واستمعوا إلى الرسالة ، وأعادوا الجهاز ووصلو بالجاموسة إلى مربطها ، قبل بكه الشمس ، وأدان ديوك الفجر ، قبل أن تمتلىء الحوارى والغيطان بخلق الله ، الذين لكل واحد منهم ألف عين ، والف اذن ، ولا عمل لهم سوى البحلقة والتصنيت .

تحت عباءة الليل ، يفعل الانسان مالا يمكن أن يفعله فى النهارات الفضوحية ، المفروشة بالنور والشمس والآخرين . الليل ستار – قال عبده بركات لنفسه – بس لو ما يكونولوشى نهار ؟ الليل طويل ، وفى رحابه طولة ، قد يقضون حاجاتهم .

– « اعقلها وتوكل » .

قالها عبده بركات بنفس طريقة الشيخ بخاطره .

لحظة خروج البهيمة ، قال لنفسه : ربنا ما يكتب على فلاح طلوع بهيمته من بيته ، دا طلوعها ولا خلع الضفر من اللحم . كان عسران قد عاد من الضهرية ويداه منفضتان ، وبوزه شبرين قدامه ، ووقف ساكتا ، كأن لسانه انحاش فى بقه، وشه أصفر لون الكركم ، وعيناه كأنهما ، قطعتان من الزجاج ركبتا فى وجهه ، عقله يودى ويجيب .

تصور عبده بركات ، أن الجهاز يمكن أن يختبىء فى الجيب . سأله :

– سبع واللا ضبع ؟ !

لم يرد عليه عسران ، أخذه أبوه من يده لكى يتكلمان فى الداخل ، كان العثور على مكان خال فى البيت مسألة صعبة ، فالنيام فى كل مكان فى البيت ، مثل أكوام اللحم ، فوق بعضها البعض ، هذا ميل على مخده وآخر أسند رأسه إلى حائط ، وكانت أصوات النيام تملأ المكان ، ورائحة النوم يتنفسها كل الحاضرين .

لم يجد عسران مكانا يخلو من البنى آدمين سوى الزريبة بالقرب من الجاموسة ، وقف عسران مع أبيه . سأله أبوه بدهشة :

– فين الجهاز ؟

كانت أعصاب عبده بركات ، قد بدأت تفلت منه :

– عايزين نخلص .

قال له عسران :

– بده رهنيِّه .

ابدى عبده بركات استعداده :

– اكتب له الشرطية اللى عاوزها .

وضع عسران يده على ظهر الجاموسة :

– عينه على الجاموسة .

الجاموسة رهنيِّه ؟ ! خبطت الكلمة فى دماغ عسران ، لو كان الود وده ، والكلمة كلمته ، والشورة شورته ، لقال لنطاط الحيطان :

– « الله الغنى » .

حتى الجاموسة الشرك يحسدهم عليها نطاط الحيطان . دى الكحكة فى يد اليتيم عجبة .

– الجاموسة ؟ !

سأل عبده بركات ابنه العائد من عند نطاط الحيطان ، جاموسة رهنيِّه لجهاز ؟ لأول مرة يستمع عبده بركات لهذا الكلام . قال عبده بركات لعسران :

– الجاموسة شرك .

– قلت له ، إنما هو مصمم .

طلبت ست أبوها أن يأخذوا مع الجاموسة أكلها وشربها . قال له عبده بركات :

– دا سواد الليل وبس .

« ولو » أشارت له رافضة « دا ياكل مال النبى » لن يقدم للجاموسة أى أكل من لحظة دخولها بيته ، وحتى طلوعها منه .

« دا حايفليها » – قالت ست أبوها لهم جميعا – « ويسرق البراغيث من جلدها » . طاوعها عسران وأخذ الأكل ، أما الماء فشيله صعب ، وقد يندلق فى السكة الطويلة . الجاموسة العطشانة تستجير بأبى خيمة زرقا ، الانسان انطس فى نواضره ، خلقه ربنا لحكمة يعلمها الله ، لا يعرف كلام الحيوان والطيور .

عسران طمأنها ، قال لها إن فى زريبة نطاط الحيطان بهائم أخرى . وإن شربها ، ستشرب الجاموسة معهم :

– ياريت كانت جمل .

كان عبده بركات يرغب فى خروج الجاموسة فى صمت ، من غير أن يدرى أحد فى العتقا ، ولكن مرسى زوج ابنته شوق سأله :

– « مش تقول لشريكك ؟ » .

لم يرد عليه ، أكمل :

– « دا من الكسايبة ، ابن عم العمدة » .

– « دى يا دوبك ليلة » .

– « برضك واجب تقوله له » .

– « هو أنا حا اتصرف فيها ، دى رهنيِّه » .

– « فيه رهنيات بتكون عقدتها حرير » .

– « صلى على النبى ، عدنى سلفتها ليلة متعلقة فى الساقية » .

طلعت الجاموسة من بيت عبده بركات بعد مناهدة .

طلب عبده بركات من عسران ، أن يلف بالجاموسة ، حول العتقا وأن يمشى بها من سكك لا تدب فيها الرجل كثيرا ، وأن يذهب إلى الضهرية من سكة الترب التى يتجنب الناس المشى فيها بالليل ، خوفا من عفاريت الجبانة .

بكت ست أبوها ، لحظة خروج الجاموسة من البيت ، تذكرت يوم دخولها البيت لأول مرة ، عندما جرت إلى قفة الدقيق العلامة الابيض ، وأحضرت دقيقا فى طرحتها السوداء . وقفت أمام البيت ، وغطت وجه الجاموسة ورقبتها بالدقيق، هكذا فعلت مع كل حيوان دخل البيت . لكنها تبكى عند خروج أى بهيم من بيتهم، ترمى نفسها على الأرض ، تكبش التراب والطين بأصابع يديها وتشيله وترميه على رأسها .

شاهد عبده بركات مقدمات الدموع فى عينيها ، شخط فيها :

– بشرتى عليها .

قالت له :

– قلبى بينخسنى وعينى الشمال بترف .

– يا وليه دا سواد الليل يادوبك ، وحاترجع .

شهقت وهى ترد عليه :

– فيه حاجة رجعت من عند نطاط الحيطان .

أصبح صوته أعلى ، ربما لأول مرة ، وست أبوها لم تنتبه لذلك ، بسبب صعوبة الموقف :

– افضحينا بقى فى سواد الليالى .

توقف عسران عندما سمع كلام أمه وأبيه ، تمنى لو أن الأمر توقف عند هذا الحد ، ما كان راغبا فى الذهاب بالجاموسة إلى نطاط الحيطان ، كان يتصور أن الذهاب بها يعنى روحة بلا رجعة ، ولكن والده مصمم ، لأول مرة يمشى كلمته على الجميع ، وحتى على ست أبوها ، كان مرشدى يستبدل ملابسه لكى يذهب مع عسران ، فالامر يتطلب رجلين .

حاولت ست أبوها منع خروج الجاموسة لآخر مرة ، حسم عبده بركات الامر ، ضرب بكفه على كفل الجاموسة « عة » ، وقبل أن تتكلم ست أبوها ، قال لها وهو يشوح بيده :

– ما تبقيش زى غراب البين يا وليه .

جرت ست أبوها إلى داخل البيت ، تبحث عن بنت من بناتها ، تتكلم معها ، وعاد عبده بركات إلى الضيف ، وكل همه ألا يكون قد شعر بما حدث .

وصل قلق أسامة علوان إلى مداه ، آثار قرص الناموس واضحة على وجهه ، أشعلوا النار فى قش الارز فى وسط الدار ، فسعر التبن أغلى من القمح، ثم اطفأوا النيران حتى يملأ الدخان البيت فيطرد الناموس . سأل الحاضرون عن المسجل ، قال عبده بركات إن الموضوع عقدته انحلت والجهاز جاى ، فركة كعب بسيطة ، دور شاى وكرسى معسل وتفرج .

مشيا معا بالجاموسة ، مرشدى أمسك حبلها وسار أمامها ، وعسران كان خلفها وفى يده أكلها ، كانا يتلفتان يمينا وشمالا وكأنهما من رجالة المنسر يسحبان جاموسة مسروقة .

عندما شاهد الذين لم يناموا بعد من أهل العتقا ، المنظر الغريب فى هذا الوقت ، قالوا إن حكاية عبده بركات دخلت فى الغويط ، الموضوع أصبح غميقا ، فالذى يسحب الجاموسة ، والذى يمشى وراءها لا يرتديان ملابس الشغل فى الغيط ، فلا البلغة السوقى فى قدميهما ولا هما حافيان ، ولا توجد فأس على كتف أى منهما ، ومعلق فيها المقطف ، وطنبوشة الساقية ليست محملة على حمار .

الذى يسحب الجاموسة ، الولد مرشدى ، يلبس جلابية العصارى وفى قدميه الجزمة أم أستك ، تحتها شراب ملون ، وعسران الذى يمشى وراء الجاموسة شرحه ، وفى يده لفة لم يرها الناس فى الليل . قد تكون أكل الجاموسة . لا يخرج أحد بهذا الهندام ومعه بهيمة فى عز الليل إلا إذا كان ذاهبا إلى السوق لكى يبيعها ، فمن المعروف أن هذه الايام ليست موعد مناوبة المياه ، ولا رى ولا يحزنون فى الغيطان كما أن الغد ليس موعد السوق .

عند مخارج العتقا ، كان السؤال الذى يلقى على مرشدى :

– على فين ؟

والناس فى العتقا لا تسأل كل الخارجين منها ، أو الداخلين إليها ، فى النهار أو فى الليل ، ولكن حكايات الضيف أثارت فضول الناس ، قالوا إن الضيف ترك ما معه فى الضهرية ، وعسران ذهب لكى يحضر الحمولة التى تركها الضيف فى الضهرية ، لا يستطيع عسران حملها وحده ، عاد بما قدر عليه ، ومعه هذه المرة أخوه ، يد على يد تساعد ، والجاموسة تمثيلية يعتقدون أنهم سيضحكون بها على الناس ، قال آخرون إن الضيف ترك ما معه بعيدا عن الضهرية ، وأن الذهاب إلى الضهرية من أجل التغطية فقط :

– على فين ؟!

كان السؤال موجها إلى مرشدى ، ولكن الرد كان يأتى من عسران :

– الضهرية .

ومن باب التماحيك ، وفتح ابواب المساهرة الليلية ، كانوا يسألون :

– خيرا .

كلمة خيرا ، كانت تعطى عسران مفتاح الاجابة :

– كله خير بإذن الله .

الكلام العائم لا يدخل دماغ أحد ، ما الذى يشحطط ولاد عبده بركات على السكك فى انصاص الليالى ؟ حكاية غريبة ، تحتاج عقول متكلفة حتى نفهمها ، كان المشى بطيئا ، رجل الجاموسة العشر ، التى اقترب أوان ولادتها ، ثقيلة ، والظلام أصبح مؤكدا ، والجاموسة لا تسير بسهولة فى السكك المظلمة .

فى منتصف السكة بين الضهرية والعتقا ، حرنت الجاموسة . وقفت ، صلبت نفسها ، وخشبت عظمها ، وأصبحت رجلها كأنها مغروسة زرع بصل فى

الأرض . البهايم - قال عسران - مكشوف عنها الحجاب ، ما دام الحيوان أخرس لا ينطق ، فهو يرى مالا يراه الذين يتكلمون . يبدو أن المشوار نحس من عنوانه ، وقد لا ترجع منه ، والعشرة لم تهن على الجاموسة ، ولو هانت على البنى آدمين .

وقفت الجاموسة ، وعلا صوت مرشدى وعسران يتحايلان عليها فى هذا الصمت الليلى ، حتى تمشى . طبطب عسران بكفه على كفلها بحنيه ، وما لانت ولا تحركت . حاول دفعها ولكنها اتسمرت فى الأرض ، لاينها ، حايلها ، فك أكلها الذى معه ، وقدمه لها . رفعت ذيلها . فتحت قدميها الخلفيتين ، وقوست ظهرها ، وشخت على الأرض ، وشخاخها كانت له رائحة ، تحددت أكثر عندما نزلت على تراب السكة .

شمشمت فى الخضرة التى فى يد عسران ، وتحركت وراءه بهدوء وبدون كلمات استبدلا موقعيهما ، عسران سحبها من قدامها ، ومرشدى رجع وراءها وهو يقول : « ربنا يهديكى ، حاكم الجاموسة رأسها ناشفة » .

فى الوقت الذى كانت فيه دقات الراديو فى الضهرية النعسانة اثنتى عشرة دقة ، وهى أطول دقات يسمعونها من الراديوهات مرتين فى اليوم بليله . الأولى لحظة صلاة الظهر ، والضهرية لا تسمعها لأن اذان أهاليها تروح لصوت المؤذن فوق مئذنة الجامع ، والبلد تكون مثل جوف الفرن ، وتهويه الحر وتنشيف العرق يشغل الناس عن الاستماع .

أما فى نص الليل ، فالواحد يستمع إلى دبة النملة ، لا صوت سوى طنين الصمت ، والدقات الاثنتى عشرة تبدو طويلة ، الصوت يعلو وصداه يمتد إلى مالا نهاية ، وكأنه يخبط فى بوابات الدنيا البعيدة ، وبعد الدقات تهفهف نسمات من نواحى الغيطان ، فيها خضرة ورائحة ماء .

عند الدقة الثانية عشرة من الراديو ، كان عسران والجاموسة ومرشدى يقفون أمام باب دار حسين أبو حسين . خبطا على الباب ، صفق عسران بيديه ، قال مرشدى :

- « يا ساتر ، يا أهل الدار » .

نادى :

- « ياعمى سى حسين » .

نطاط الحيطان كان فى الداخل مصهللا وعلى سنجة عشرة ، منذ أن مشى عسران وهو متأكد أن عبده بركات وأولاده ضربهم السلك ، وقعوا من السما وهو استلقاهم ، ولابد من عودة عسران ومعه الجاموسة ، وما داموا قد عادوا ، فالحكاية فيها وفيها . هل من المعقول أن يسلم فلاح جاموسته رهينة لحتة حديد يمكن أن تتلف فتصبح خردة ؟

أشرقت المسائل بداخله ، الحكاية ليست حسبة برما ، وحتى لو كانت حسبة برما لقعد لها وعرف رأسها من رجليها ، وأولها من آخرها . ونون مخه ، وانعدلت الطاسة ، جهاز يعنى شريط تسجيل ، ربما كان رسالة من الولد بركات ، كان نطاط الحيطان قد عرف بعد عودة عسران إلى العتقا ، أن ضيفا غريبا قد جاء إلى عبده بركات من طرف ابنه . هناك رسالة إذن . كانت لدى نطاط الحيطان رغبة فى أن يعرفهم أنه يعرف ، ثم يتحدث عن نصيبة من الحكاية .

أمام باب سى حسين أبو حسين ، كان عسران ومرشدى والجاموسة يقفون ، لمبة كهرباء منورة فوق الباب ، والنور سهتان نعسان ، والرسومات على الجدران والباب صارخه ، وألوان البوهيه جديدة ، فهو قادر ويجدد الدهان كلما تاهت ملامحه تحت التراب ، وفوق الباب مكتوب : القناعة كنز لا يفنى .

نقر عسران بأصبعه على الباب ، لم يسمع ردا من داخل البيت ، أمسك بيده قطعة من الحديد ، معلقة فى منتصف الباب ، دقها بهدوء حتى لا يخطف أحد من سابع نومه ، ولا يسرق نائما من أحلامه ، أما نطاط الحيطان فهو صاحى يحصى النجوم فى الليل ، لأنه يعد أمواله طول النهار . وأن كان هناك من قدر على عد النجوم ، سيقدر على نطاط الحيطان على عد فلوسه .

فتح الباب ، وقف نطاط الحيطان فى منتصفه « يا مراحب » ، سلم على عسران من جديد ، وسلم على مرشدى ، بنفس طريقته ، يخطف يده فى كفه ، يضغط عليها ويهزها بعنف « أنت مرشدى ؟ » « أصغر ولاد عبده بركات ؟ » قال لهما معا ، أنه لا ينسى شخصا قابله ولو لمرة واحدة فى حياته .

وقعت عيناه على الجاموسة ، وهو يسلم ويتكلم ويأخذهم فى دوكة ، تملاها بعينيه ودورها فى مخه ، فتح ضلفة الباب الثانية وشاور لوسط الدار . قال لمرشدى :

– دخلها أنت بنفسك واربطها بأيديك اللى حاياكلهم التراب وحط لها الاكل والمية ، وانت اللى حاتفكها بكرة الصبح إن كان لنا عمر وصبحنا من أهل الدنيا .

كان كلام نطاط الحيطان موجها لمرشدى ، ومع هذا دخل عسران وسحب الجاموسة حتى الزريبة ومعه مرشدى ، وربطاها ، عملا لها عقدة وشنيطة ، يعلمان بها ربطة الجاموسة حتى يتأكدا فى الصباح ، إن كان أحد قد حلها ، أم أنها ظلت كما هى ، لم يقترب منها جنس مخلوق ، ولأن مرشدى هو الذى فكر فى حكاية العقدة والشنيطة قال له عسران : فالح .

جاء نطـــاط الحيطان تسبقه اعتذاراته الكثيرة . نظر لمرشدى أولا ثم أعتذر ، واتجه لعسران ثانيا وأعتذر ، ولهجة الاعتذارات التى تسيل منها الرقة

والنعومة جعلت الظنون تكبش فى قلب عسران . نطاط الحيطان – كما تعرف الناحية كلها – لا يعتذر لأحد . صهيونى لا يضع للأمور الانسانية أى اعتبار ، ها هو يعتذر عن إحضار الجاموسة ، فالمسجل ليس مسجله .

فى فكاهة مرة ، جعلت مقدمات الابتسامات تصل إلى وجه عسران ، عرض نطاط الحيطان مبيت مرشدى مع الجاموسة فى داره ، إن كانا لا يأتمانه عليها ، مع أنه سيعطيهما المسجل دون أن يشترط أن يكون هو – أى نطاط الحيطان – معه .

– « عشان يبقى فى بطن كل واحد منكم بطيخة صيفى » .

شكراه على ذلك ، وقال عسران ، إن مرشدى لن يبيت مع الجاموسة «الدار أمان » قالها عسران ، وهو يدرك قبل غيره ، أنه يكذب . وقفوا فى وسط الدار ، وجاء الصمت غير المرغوب فيه . نطق عسران بكلمة واحدة « المسجل » . خبط نطاط رأسه بيده « نستونى » جرى إلى الداخل ، وهو يتمتم لنفسه ، بتمتمة تشبه ما يفعله الأئمة فى الجـامع ، بعد الصلاة « كلمة الانسان جاءت من النسيان » .

عاد من الداخل ، يسبقه الجهاز الذى كان يحمله ، بيديه معا ، وكان يخبط فى ركبتيه أثناء حركته ، التى كانت بطيئة ، سمعاه يعتل ويئن فتصورا أن الجهاز ثقيل ، كرر ما قاله ، أكثر من مرة ، من أن الجهاز ليس جهازه ، وأن مصر فيها ثلاثة فقط . واحد مع الرئيس ، والثانى مع مليونير ، والثالث معه، وأن كان غير متأكد ، إن كان أصحاب الاجهزة الثلاثة يعرفون بعضهم أم لا ؟ وأن هذا النوع من الاجهزة وجوده نادر ، حتى على مستوى العالم كله . قال عسران فى سره كلمة واحدة : فشار .

أخـــرج نطاط الحيطان أســلاكا كثيرة من بطن الجهـــاز . قال لهما ، أن كـانت الكهرباء دخلت العتقـــا ، يمكن عمل توصيـــلات بهذه الاســلاك ضحكا وقالا :

- « هية فين الكهربا ؟ »

العمدان معلقة ، والاسلاك ممدودة ولكن التيار لم يصل ، وضع نطاط الحيطان الجهاز على الارض بعناية ، حسس عليه ليتأكد أنه فى وضع سليم ، وقال : مشكلة ، لا زمن حجارة ، ست حجارة كبيرة .

أدرك عسران أن نطاط الحيطان ، يحاول أن يجعل من الكلام فرشة وقعدة بأى طريقة . فى المرة الأولى تكلم معه ، أما الآن فمعه مرشدى ، ونطاط الحيطان يميل ناحية مرشدى لصغر سنه وقلة خبرته ، ربما يرسم عليه لكى يستخدمه فى بعض شغلاناته العفشة مستقبلا . سأله مرشدى « والجهاز فاضى دلوقت ؟ ! » رد عليه نطاط الحيطان : « طبعا فاضى » . شرح له أن وجود الحجارة داخل الجهاز بدون شغل يجعلها تملح .

احتاروا ، نطاط الحيطـــان شبك يديه على صـــدره ، ومرشدى ســـأله : « ومنين نجيب الحجارة دلوقت ؟ » والوقت يسرح بهدوء فى الدقائق التى تأتى بعد انتصاف الليل . فك نطاط الحيطان يديه ، أشار بيده إلى ساعة الحائط الكبيرة المعلقة فى وسط داره : « دا عقرب الدقايق الكبير نط على عقرب الساعات الصغير وركب فوقه ، ونزل من عليه ، ومشى بعيد عنه » اقترب منهما أكثر ، أصبح وجهه الذى تبرق عيناه فى منتصف المسافة بين وجهيهما وســـألهما معا : « فيه حـــد يبيع حجارة فى انصاص الليـــالى ؟ » شوح بيده : « دا احنا دافنينه سوا » .

من يبيع الآن فى الضهرية ، لا يبيع سوى الممنوعات ، امرأة سارحة على حل شعرها تبيع عرضها ، وتاجر مخدرات يعرض قرش حشيش أو فص أفيون، ومسروقات مخزن الجمعية التعاونية الزراعية التى تهرب ، ولاعبى الكوتشينة فى دار النتاية نعمة ، التى يسهرون فيها حتى وش الصبح ، وزبائن حبوب الهلوسة فى حارة الضباع ، والواد عبده البقرة ، ملموم عليه كام شاب عفى مادخلوش دنيا وراء مكنة الطحين عشان ينطوا عليه بالدور .

خبط يده اليمنى ، فى يده اليسرى : دول اللى صاحيين دلوقت . أضاف عسران موضحا : واحنا فى بيتك ، أشمعنى دى نسيتها ؟ حول نطاط الحيطان الأمر إلى نكتة : مانا انسان والانسان نساى . نطاط الحيطان كان عنده الحل ، ولكنه كان يرغب فى تأزيم الموقف أمامهمـــا ليصلا إلى اليأس ، ولذلك عندما يقدم الحل ، يقبلانه دون مناقشـــة « غريق لقى قشاية فى نص البحر ، قال جالك الفرج » .

هرش نطاط الحيطان فى عرق الهيافة فى قفاه ، وحرك طاقيته أم سور مدور ، والمتفصلة من نفس قماش جلبابه ، وقال إن لديه بالداخل ستة حجارة طورش ، ليست ملكه ، يعطيها لهم ، على أن يحضروا له غدا ستة أخرى بدلا منها . أو أن يدفعا له ثمنها .

سألاه عن الثمن ، قال خمسة جنيهات ، شهقا معا ، الحجر الواحد بأقل من جنيه ؟ ، قال لهما مستوردة ، جاءت من بلادها اليوم طازجة بالطائرة ، ردا عليه أنهما سيستخدمانها لحظة الاستماع للشريط فقط :

- أن قدرت أغش اللى أنا مستوردهم لى ، يبقى أغشكم ، استعملوها بعد كده فى أيها حاجة .

وهما يفكران فى استخدامها ، صاح فيهما :

– يمكن تكون قدم السعد .

كانت آخر المشاكل ، أنه لا يوجد فى جيبى عسران ومرشدى الجنيهات الخمسة . سألهما :

– منفضين على الحميد المجيد .

قال عسران بحدة :

– معانا فلوس ، بس ماتكملش خمسة جنيه .

قبل أن يجرى إلى غرفته الجوانية ، قال : « الحساب يجمع » .

ما دام قد تم التوصل إلى الاتفاق ، اقترب منهما : « اسِتبينا » . مرشدى هو الذى رد : « استبينا » . كان نطاط الحيطان يرغب فى سماع الكلمة من عســران ، فهو الكبير ، ونطاط الحيطان يعرف الاصول ، لم تطاوع عسران نفسه ، ومرشدى تحايل عليه ، ما دام الامر يمكن أن ينتهى بكلمة . اغتصبها عسران : « استبينا » .

دخل نطاط الحيطان وعاد ومعه الحجارة الستة . طلب منه عسران أن يشغل الجهاز ففعل ، قال لهما إن الجهاز صاغ سليم ، وجعلهما يرددان الكلمة وراءه . حلف بالايمانات أنه لولا العشرة والعيش والملح لكتب شرطية بتسليم الجاموسة والجهاز ، وجعلهما يوقعان عليها وتكون الشرطية من أصل وصورتين ، يكتبها بالقلم الكوبيا والكربون الاسود ، يأخذ هو صورة ، ويحتفظ بالاصل عند طرف ثالث ، قد تحدث مشاكل ، ويصل الامر إلى العمدة ، قال له مرشدى إنهم لن يختلفوا فى أمر كهذا ولن يصل الامر للعمدة .

قبل أن يسلمهما الجهاز ، قال إنه حساس وغالى ، ولا يمكن أن يأخذاه هكذا ، دخل وأحضر حقيبة وضع الجهاز بداخلها : « دى شنطة جايه معاه من بلاد بره » أغلقها بالسست والزراير ، مدا أيديهما لكى يأخذاه ويمشيان . قال لهما إنه لابد من لف الشنطة فى ملاية سرير أو بطانية ، قد يقع الجهاز منهما لأى سبب ، فتحميه الشنطة والبطانية ، فالجهاز لا يمكن اصلاحه فى مصر كلها، وأعاد نفس القصة عن عدد الاجهزة التى مثله فى بر مصر . للجهاز شنطة للسلوك والسماعة والوصلة والحجارة شنطة أخرى أصغر . قال لهما إن الحجارة توضع فى الجهاز قبل تشغيله ، ويتم إخراجها منه بعد ذلك خوفا على الجهاز وعلى الحجارة معا .

دخل وأحضر ملاءة سرير ، قال إنها ملاءة سريره الذى ينام عليه ، سيكمل نومه – بسبب هذه التضحية – على السرير بدون ملاءة ، لف الشنطة التى يوجد بداخلها الجهاز ، والشنطة الصغيرة فى الملاءة من كل ناحية ، وجعل لها طرفين ، طرف يمسكه عسران ، والثانى يحملها منه مرشدى ، ويصبح الجهاز فى منتصفهما .

لفت نظرهما إلى أنه لو أن شخصا آخر غيره ، هو الذى أعطاهما الجهاز لأخذ أجره نظير استخدامه ، ولكنه يتبرع بالاجرة ، الرهنيِّه من أجل سلامة الجهاز ، أما استخدامه فهو مجانا ولوجه الله ، الناس للناس ، والدم لا يمكن أن يصبح ماء .

كانت له ثلاثة اشتراطات ، الاول أن يصله الجهاز سليما وسيجربه قبل أن يأخذه فى الصباح . والثانى : أن يكون الجهاز داخل شنطته والسلوك والسماعة فى الشنطة الصغيرة ، والشنطتان ملفوفتان فى ملاءة السرير البيضاء . والثالث: احضار الجنيهات الخمسة ثمن الحجارة .

إن نفذا شروطه ، يرجعان إلى العتقا ومعهما الجاموسة ، وقت الضحى «ويادار ما دخلك شر » ، وأن حدث أى اخلال بالشروط « حايكون لنا كلام تانى ». قال إنهما رجاله ، والرجل يربط من لسانه ، أكد أنه فكر فى إحضار رجل يشهد على هذا الكلام ، ولكن : ياداخل بين البصلة وقشرتها ، ما ينوبك إلا صنتها . أما حساباته القديمة معهم فستؤجل إلى ما بعد ، واضح أنهم فى ورطة ، ولكن الامور بخواتمها .

بعد التسليم والتسلم ، الجاموسة مربوطة فى مدود نطاط الحيطان واقفه فى زريبته ، والجهاز مع عسران ومرشدى . ناغش نطاط الحيطان الولدين . قال لهما .

- « هوه ما كانش عارف يكتب جوابات بدل الشحططة دى ؟ » .

قبل أن يردا عليه ، قال :

- كان وفر عليكم وعلى نفسه التعب دا كله .

بهت الولدان ، كاد الجهاز يقع على الأرض . قال له مرشدى متسرعا :

- مين اللى قال لك ؟

شعر عسران بغيظ لا حدود له من مرشدى ، ربما لم يكن هذا الشيطان الذى اسمه نطاط الحيطان يعرف الموضوع ، وقد يكون ما قاله عملية استدراج لهما ، مرشدى عيل وأهوج ومتسرع . رد عليهما نطاط الحيطان ، بأنه لا توجد أسرار فى هذه الايام . حتى الدول والحكومات لا أسرار لها . يكفى أن تفتح الراديو ، حتى تعرف ما جرى فى العالم . « والضهرية فيها خمسة واربعون الف حنك وتسعون ألف ودن، وكلهم ليست لهم شغلانة سوى الكلام والحكايات » « خبر

المرسال وصل ، وكل الناس تعرف ما جرى وما حصل » . نسى عسران ومرشدى أن الغريب جاء إلى الضهرية أولا ومنها وصل إلى العتقا .

مشيا ومعهما الجهاز ، وتركا نطاط الحيطان الذى كان قد وصل إلى قمة يقظته . جلس يسأل نفسه : وهل تأتى الفلوس على شريط كاسيت ؟ ربما كان خبر الفلوس على الشريط وطريقة صرفها . الرسالة على شريط ؟ ! نوع جديد وغريب . يبدو أن الكلام مهم ، ومن شدة أهميته رهن عبده بركات الجاموسة ، من أجل سماع الكلام المبعوث من بلاد العرب . إذن فإن ما ينتظره عبده بركات أكبر من ثمن الجاموسة .

رسالة على شريط كاسيت ؟ سأل نطاط الحيطان نفسه : هل تنقرض كتابة الجوابات ؟ لن يكتب للناس جواباتها مقابل أجر ؟ مصدر آخر للدخل يضيع منه ، علمته الايام والليالى ، أن ربك يقطع من هنا ، ويصل من هناك ، لم لا يطور نفسه ؟ لم لا يحضر شرائط والمسجل لديه ؟ يسجل للناس رسائلهم ، لديه أكثر من مسجل ، كل المطلوب علب شرائط ، ثم يعرض على الاهالى الذين سافر أولادهم إلى الخارج تسجيل الرسائل بدلا من كتابتها ، ومن لم يسافر له أحد فى هذه الايام ؟ !

شريط ينشال ، وشريط ينحط ، وصباع يدوس على الزراير ، والناس تتكلم ، تتشحتف وتبعت . بهذه الطريقة يدخل فى حسابات أخرى ، الناس تعرف ثمن الاقلام والورق والجوابات ، التى كان يستخدمها . ويعرفون ثمن ورق البوستة ، وعندما يصل الامر إلى عرقه ، يدفعون أقل القليل ، فمن يمسك بالفأس ، لا يتصور أن من يكتب فى الورق يتعب ، لا أحد يعرف ثمن شريط التسجيل ، ولا قدر الكهرباء المستخدمة ، والجهاز ثمنه كبير فى نظرهم .

سيشرح للاهالى أن التسجيل أحسن من الكتابة ، صوتهم يصل إلى أبنائهم فى الغربة . دوره لن يتوقف عند تسجيل الرسائل إلى المتغربين ، عندما تأتى الردود إليهم ، سيحضرون إليه من أجل سماع الرد عليها . سأل نفسه : من الذى يمتلك جهاز تسجيل فى البلد ؟ تعب عقله من الاحصاء والعد .

مشكلته الاساسية هى الكلام مع الناس ، واقناعهم بأن يجلسوا أمام المسجل لكى يحكوا ما بداخلهم ، ويقولون كل ما يودون قوله . سيبدأ فى ذلك من الغد ، لن يتعب من الكتابة ، يكفى أن يضع الجهاز أمام الناس ، ويطلب منهم البدء فى الكلام ، ولكل منهم ساعة كاملة يقول فيها ما يشاء ، ثم يحصل على ثمن الشريط ، وأجر تشغيل الجهاز وثمن الكهرباء . هل يحصل على عشرة جنيهات فى الساعة ؟ لا المبلغ كبير ، وقد يجعل الناس تهرب من هذه الطريقة التى ستتعب جيوبهم ، من الاحسن له البدء برقم صغير ، ليكن خمسة جنيهات ، فمن يبدأ صغيرا يمكنه أن يكبر ، ولكن من يبدأ كبيرا ، قد يفزع الناس من التعامل معه ، ربما يصغر حتى يعود إلى أصله .

سيرفع الاتعاب بهدوء ، ووفق نظام ، ولن يتشدد فى طلب الفلوس ، من يريد أن يعطيه محصولا سيقبل ، ومن يعمل عنده مقابل الأتعاب سيرحب به ، المشكلة الكبرى التى تقف أمام المشروع ، هى أن الشريط مستحيل إرساله بالبريد ، ولابد أن يتم ذلك مع مسافر .

تضايق ، تعكرت نفسه فى صمت الليل ، لام نفسه ، لماذا يضع العقبات أمام مشروعه قبل البدء فيه ، ربما تقبل البوستة حمل الشرائط ، عندما يفضل الناس هذه الطريقة ويرفضون ما عداها . ويغيرون عاداتهم لابد أن تغير البوستة نظام عملها ، ويصبح المستحيل ممكنا .

ليبدأ التجربة وليرى إلى أين يمكن أن تقوده ، المهم أنه كان أول من يعرف هذا الاختراع الليلة ، وسيكون أول من يجربه ، وسيكسب من خلاله الكثير ، أنه فتح جديد .

سار عسران ومرشدى وهما يحملان الجهاز ، يبدو أن الامر يستحق كل دوشة نطاط الحيطان ، الجهاز ثقيل ، خشى عسران أن يكون بداخله قتيل ، تعرضـا لمضايقات العدد القليل من الخفر الساهرين فى النصف الثانى من الليل ، الذى يأتى فيه الطل والندى والشبورة ، حاولا فى مشيهما أن يقرآ نجوم الليل فى السماء ، تذكرا ما تقوله أمهما فى البيت عن العصى والنجوم المعشقة فى بعضها والتى تأتى وقت الفجر . مرت أكثر من طائرة ، بعضها طالع إلى مصر ، والاخر نازل نواحى اسكندرية ، رأيا الطائرات واضحة فى الليل ، فى النهار لا يسمع أحد سوى أزيز الطائرة ، ولكن فى الليل يصبح صوت الازيز رعدا ، ويرى أنوار الطائرة تبرق وتنطفىء ، وخط من الشبابيك الصغيرة المضاءة فى أعالى السماء .

سمعا صوت القطار النازل من مصر ، وصوت الفلنكات والحديد يخبط فى الحديد ، ورأيا أنوار عربة ترمح فوق جسر البحر شرقهما وعربة أخرى فوق جسر ترعة ساحل مرقص غربهما ، قابلهما خفير عند مفارق السكك ، فى المكان الذى تتحول فيه السكة من العتقا إلى الفهرية إلى سكتين ، واحدة كبيرة تعدى على ترب المسلمين ، والأخرى صغيرة تمر على مدفن وحيد لنصرانى غنى ، بنى حوله مساكين النصارى تربا كثيرة .

اشتبه الخفير فيهما ، عرفهما ، عسران ومرشدى اولاد عبده بركات ، سألهما عما يحملانه ، قالا إنه مسجل ، أحضراه من سى حسين أبو حسين ، قال لهما الخفير إن المشى بمثل هذا الجهاز فى الليل غلط ، أى واحد يتصور

أنهما سرقاه ، تمنى ألا تقابلهما دورية النقطة الثابتة التى تمر عليه . فضابط النقطة والعساكر الذين معه ، والذين يركبون خيل الحكومة التى تمشى على السكك وهى تصهل ، والخفر الذين يرمحون أمامهم وخلفهم وحولهم ، يدهسون الزرع فى وسادات الغيطان . لا يعرفون أحدا من أهالى العب كله .

لو جاءت الدورية لن تتركهما سوى فى النقطة الثابتة فى التوفيقية ، سألهما الخفير ، لماذا لم ينتظرا حتى الصباح ، والناس لا تشك فى الناس عندما يغطى نور الله الجميع ، نصحهما بالمشى من سكة الترب ، وإن جاءت الدورية عليهما بالاختباء حتى تمر . ومشكلة سكة ترب المسلمين انها ضيقة ، فردانى ، مرشوشة بالفحت والنقر ، كادا يقعا ، لم يخافا على نفسيهما ولكن على الجهاز الذى يساوى الجاموسة .

فى نص السكة بدلا الحمل ، الذى كان يحمل من ناحية اليمين ، شال من الشمال ، والذى كان يشيل بالشمال بدله باليمين ، لكى يحمل كل منهما الجهاز ، بيد غير اليد التى كان يحمل بها ، وتعبت وخدلت ونملت . تكررت عملية التبديل ، وشعرا بتعب غريب ، فكرا فى الجلوس حبتين ، يأخذان فيهما نفسيهما من كرشة المشى ، ولكن رغبتيهما فى الوصول إلى العتقا والدنيا مضلمة والليل ستار ، جعلتهما يستحملان التعب الذى بدأ يدق فى العظام .

آخر الليل ، قرب الفجرية ، والطل ينزل عليهما ، والشبورة تتداخل مع الظلام ، وتجعل أجزاء منه رمادية اللون ، نباح كلاب ونقيق ضفادع وطلقات أعيرة نارية ، تصفر فى الريح ، وأصوات جرارات تجرى فوق جسر البحر العالى، أنوارها تهتز بعنف من مطبات الجسر ، يعرفان أنه التجريف ، الكل يعمل فى هذا الوقت ، فلا أحد من المسئولين يكون صاحيا ، وأن حضر سريخ ابن يومين ، يجد فى انتظاره أكثر من مرسال ، يلبد فى البوص ، ويعطى

الاشارة ، حركة فواريك الطوب تصل إلى ذروتها بعد أن يغوط الليل ، خوفا من العمل فى النهار ، وتوفيرا للغرامة .

جاءهما عواء كلاب من الترب ، التى اقتربا منها ، فبدأ كل منهما يقرأ الفاتحة فى سره ، بتحريك الشفتين فقط ، وبعدها يقرآن الصمدية ، ثم يترحمان على من مات لهما . وكل موتى أمة محمد أجمعين ، استمر العواء وكان لاكثر من كلب ، قال عسران :

– الكلاب ماسكة الليلة ، لزمن حد حايموت أو مصيبة حاتحصل .

رد عليه مرشدى :

– سيبك من كلام العجائز .

عسران أكد له ، كون الكلاب ماسكة الليلة ، معناه أن عزرائيل نزل من سماء الله العالية ، لكى يقبض على أرواح عباد الله ، أو أن ابليس يعط فى الأرض ، يغوى أصحاب النفوس الخرعة على أذية الناس . قال عسران إنه مستعد أن يراهن مرشدى على أى الامرين سيقع من الآن وحتى الصبحية .

طالت ممسكة الكلاب ، فكر عسران أنه لو كان حر نفسه ، لرجع إلى الضهرية ، وأعطى لنطاط الحيطان جهازه ، وأخذا الجاموسة وانتهى الامر . وأما عن عقدة الشريط ، فلا بد أن من لا يغفل ولا ينام سيحلها . خاف من أبيه وأمه إن فعل هذا .

مرشدى ، وأن كان قد قال لعسران إن ما يقوله تخاريف شيوخ ، إلا أنه كان يصدق ما يقوله عسران ، وان كان لا يحب أن يظهر ذلك ، حتى لا يبقى الاخ الصغير دائما . خاف على أهله وأقاربه من عزرائيل ، ومن ابليس أن يكشف سرهما . فكر أن يستأذن لحظة من أخيه ، ويضعا الجهاز على الارض ، ويخطف

رجله ، ويجرى إلى الكلاب يمنعها من العواء ، يخنقها ويملص أذانها . شعر عسران بخوف لم يتسلل إلى قلبه من قبل ، ولذلك حاول أن يتكلم مع أخيه .

كانت الرحلة غريبة ، وما يحملانه أكثر غرابة ، ومن شاهدوهما من أهل العتقا ، فى هذه الحصة المتأخرة من الليل ، تأكد لهم ، بما لا يدع أى مجال للشك ، بأنهما أحضرا الهبرة ، وأن الاخراج كان جيدا وجديدا على العتقا . الشيلة ثقيلة والالم من ثقلها يبدو واضحا على وجهى مرشدى وعسران ، وقدرتهما على المشى محدودة . المبلغ فات المئات والالوفات ، الفلوس فى خفة الريش ، ولهذا تصور البعض أنها ربما كانت قطعا من الذهب .

وصلا إلى العتقا ، وكانت بعض الاذاعات تشطب ، تعلن انتهاء إرسالها ، وهذا معناه أن ساعتين ونصف قد مرتا بعد انتصاف الليل ، كان صوت الراديو واضحا لأن الصمت كان غويطا . الخفير الوحيد فى العتقا لم يتعرض لهما . هـكذا كانت تعليمـات أنور كسـاب له . كل المطـلوب . معرفة ما يحصل من بعيد لبعيد .

رأى الخفير المنظر واحتار هل يصحى العمدة أم ينتظر حتى الصباح ، استهون الخفير بالأمر . سأل نفسه : هل من المعقول أن تكون الاموال التى أحضرها الغريب بهذه الكثرة ؟ داخ عقل باله وهو يحسب الحسبة ، هل تكون برايز وشلنات أم من الورقة بعشرة جنيهات ؟ سمع أخيرا أن الورقة أم مائة جنيه رجعت البر تانى ، ولو كانت الربطة الثقيلة من الورقة أم مائة لاشترى عبده بركات العتقا والضهرية بناسهما ، قد يحصل على المركز والمديرية ، من يدرى ، ربما يمتلك بر مصر كله . سأل الخفير نفسه : وهل الفلوس ثقيلة حتى يحملها جدعان فى عز شبابهما ؟

إن ايقاظ العمدة فى هذا الوقت أمر صعب ، العمدة رجل تعلب ، وقد يتظاهر أمامه أن السبب الذى أيقظه من أجله لا يستحق ، لا يضمن ألا يصل الأمر إلى توبيخه وإهانته أمام عياله الذين يشخون فى الفرشة ، وعلى مسمع من مراته .

سيتصرف من نفسه ، سيلبد فى أقرب مكان إلى دار عبده بركات ، ليرى حتى عفاريت الليل بعينيه ، ويسمع دبة النملة ويشم بمناخيره روائح الفسا والجياص التى ستضرب مثل المدافع لحظة خروج الفلوس من شدة الفرح .

فى بيت عبده بركات كان الانتظار ثقيلا وصعبا . شخص واحد فى الدار، لم يشعر بمرور الوقت ، أحس عبده بركات بونس لأنه أخذ الشريط معه ، من لحظة مرواح عسران ومرشدى الضهرية ، إما فى يده اليمنى أو يده اليسرى ، كان يخشى على الشريط من عرقه فيضعه فى أحد جيوبه ، ويتذكره ، يخيل إليه أن الشريط ضاع ، فيبحث عنه حتى يجده ، ومن باب التأكد يخرجه وينظر إليه ثم يضعه فى جيب آخر .

ولعبده بركات جيوب كثيرة خالية ، جيبان فى الجلباب وثلاثة جيوب فى الصديرى ، منها جيب صغير لساعة كان قد طلب من ابنه عند سفره أن يشتريها له ، وعندما فصل الصديرى طلب من متولى الترزى أن يعمل حساب جيب ساعة وعروة للكتينة ، وجيب فى القميص الذى تحت الصديرى فى منتصف صدره .

أخذ الشريط من ست أبوها ، بعد أن مشى الاولاد إلى الضهرية ، طلبت ست أبوها أن تملى عينها وأن تشبع من النظر إلى الشريط قبل أن يأخذه ، كانت قد لاحظت التغيير الذى طرأ على عبده بركات بعد حضور الضيف . فلوس بركات ستقوى قلبه عليها ، ولكن لا ، كل برغوث على قد دمه ، وبركات ابنها قبل

أن يكون ابنه ، وكل وقت وله أدان ، بعد أن يمشى الضيف ويروح كل واحد لحاله سيكون لها تصريف تانى مع الغرباوى الذى لمته من السكك ، وفتحت له بيتا وجعلته رجلا ملو هدومه .

لابد أن تذبح الديك العجوز قبل أن يرفع عرفه الاحمر . فلوس جاءت من بلاد العرب ، ستدفع عبده بركات لأن يقول : أنا راجل . لا ستذبح القط بعد أن يمشى الضيف .

دخلت معه إلى الزريبة ، نظرت له ، سألته ، « لم يطلب الشريط الآن ؟ »

قال لها بصوت هامس : « إنه لولا وجود الضيف ما طلب الشريط . الاصول يا بنت الاصول ، القعدة قعدة رجالة » نظرت إلى الشريط على خيوط الضوء المتراقص الذى يأتى من وسط الدار . قربت الشريط من عينيها ، حركته أمامها حتى يأتى تحت الضوء فتراه صعدت نظراتها وهبطت متحركة مع الشريط ، قربته من عينيها حتى كاد يلامس بقايا رموش العينين التى نتفها الزمن ، ولم يبق سوى شعرة هنا وأخرى هناك .

– حايطرف عينيه .

قال عبده بركات :

– أنت فى ديكى الساعة .

ضاحكها :

– طيب يقلع عينيه من جدورها . بس ينطق ونسمع اللى فيه .

سألها :

– مش أحسن من الورقة المكتوبة ؟ !

قالت له :

– ودى فيها كلام ، حانسمع صوته ذات نفسه .

عظيمة أخذت بالها من المساهرة التى فى الزريبة ، وعندما خرج عبده بركات من الزريبة ، سألت عن الشريط . لهفة الدنيا كلها كانت فى عينيها ، وهواء الصبر والاشتياق يملأ صدرها . أخرجه عبده بركات ، أعطاه لها ، وضعته بين كفيها ، وتحول الكفان إلى حضن نام فى داخله الشريط ، أغمضت عينيها . هنا صوته ، الذى سجله بنفسه ، كانت متأكدة أنها ستسمع من الشريط ، رسالة لها .

كان بركات يناديها دائما باسم عظيمة ، لم يكن أسم عطيات ، طبعا لن يبدأ كلامه معها بكلمتى « حبيبتى الغالية » . سجل كلامه أمام الناس ، ويعرف أنها ستسمعه فى حضور العائلة . « زوجتى » ربما قالها ، وقد يمنعه الكسوف من نطقها « العزيزة الغالية » . هكذا كان يكتب ، سائلا عنها فى كل جواباته إلى عائلته أو إلى أبيه .

ربما تحدث عنها فى الشريط بنفس الطريقة ، عاتبت بركات فى سرها ، على نسيانه إرسال جهاز مع الشريط ، مع أن عقله وقلبه ومخه كما أوراق الحكومة المنظمة والتى لم تكن قد تبعثرت بعد ، لو أن هناك فرصة ، لانفردت بالضيف ، مرسال جوزها وحبيبها ، وكلمته وسمعت منه . جاءها خاطر أن الشريط ليس من عند بركات ، لا يمكن أن يضعهم فى هذا الموقف ، ولو كان الشريط من عنده لأرسل معه جهازا ، أبعدت الخاطر النكدى من مخها . نظرت إلى الجزء الذى يبدو من سماء الله العالية ، من سقف الدار وهتفت :

– طمنى يارب .

تحسست قلبها ، لم تكن مطمئنة ، كانت ترغب فى الكلام والحكى والفضفضة ، بحثت عن البنت هنية ، لم تجدها ، حمدت الله أنها لم تجدها ، من

يدريها لو أنها قالت ما تفكر فيه . لم يكن فى حياتها ذكريات كثيرة . بركات كان كل ما فى عقلها . سرحت ، سهمت . فكرت فيما راح ، وفى الايام الآتية ، واجتماع الشمل ، وطردت اليأس من روحها . جاء من قال إن عسران ومرشدى وصلا بالجهاز ، فخطف عبده بركات الشريط منها :

– دى حاتنام فى حضن الشريط .

دخل المندرة والشريط فى يده . وقال بصوت جديد عليه :

– سمعنا يا عم صوت بركات ذات نفسه .

صفق بيديه كما يفعل المغنواتى فى ليالى الافراح ، والسييط فى الموالد ، والمنشد فى حلقات الذكر وصاح :

– النايم يصحى ، اللى بياكل رز مع الملايكة يستأجز منهم .

ركبته حالة من الفرح الطارىء :

– والصاحى ينام .

أكمل :

– اللى ودانه مسدودة يسلكها .

أصبح صوت تصفيق يديه أعلى .

– كل من يحب النبى يصلى عليه . ويقول : سمع هس .

صلى الجاضرون على النبى ، والاصوات التى خرجت من أفواههم قالت بأحرف ممطوطة :

– سمع هس .

وهكذا طار النوم من عينى العتقا مرة واحدة .

الفجر رزقه واسع

لكنهم فى العتقــا يعرفون ان المصائب تأتى مع بعضها مثل سحب الشتاء ، وكموجات بحر النيل . وصل عسران ومرشدى الى دار عبده بركات ، وقفا امام باب الدار ، الذى كان مفتوحا لايزال . الكل فى الانتظار ، حتى الذين ناموا كان الترقب واضحا على ملامح وجوههم المستغرقة فى النوم .

معظم الذين حضروا فى أول اللــيل مازالوا فى الدار ، والنيام فى كل مكان ، ونوم الضيوف فى بيوت الفلاحين لا يتم الا وقت زنقة ، ويحدث كيفما اتفق ، بدون مخدة ومن غير غطا ، ينام البعض وعيناه مفتوحتان ، وهناك من يقفل عينا ويفتح الأخرى .

ناموا فى المندرة ، ووسط الدار ، وعلى عتبة الزريبة ، وفى بعض القاعات الجوانــية . أمــا الضــيف ، فكــان كما تركوه . جالــسا والتعب يــدق عظامــه ، ويغفل ، تميل رأسه وتميل ، حتى تخبط فى الحيط ، فيفيق قليلا لكى ينام من جديد ، وخده مرسوم عليه علامات يده التى يسنده عليها .

يوم بليــلة ، قضــاهما بدون لحظــة نوم واحدة ، ولكنه كان يخجل من النوم أمام ناس لايعرفهم . عبده بركات لم ينــم ، طول عمــره وهو ينــام من المغرب ، وهذه ليلة العمر ، كان يقظا . لكن مجئ عسران ومرشدى صحا الكل . وقال بركات لست أبوها :

– صحصحينا بدور شاى .

الشاى الثقيل ، الذى مثل الحبر هو وحده القادر على ايقاظ الناس ، وست أبوها كانت عيناها مفنجلتين . كبست الهواء فى بطن وابور الجاز بالكباس الذى يسمع الآخرون صوته ، غسلوا عدة الشاى . وغيروا مياه الجوزة ، ودلقوا الجاز على الكوالح فى المنقد وولعوها .

الـذين صحــوا من النــوم ، نظروا الى السماء ، تصـوروا ان النهار طلع ، وعندما شاهدوا الظلام طيات فوق طيات . قالوا : الليل وآخره .

عسران ومرشدى انشغلا فى فك الجهاز ، الذى كان مربوطا بأكثر من رباط ، واحد فوق الثانى ، قال أسامة علوان :

– صاحب الجهاز دا حويط

رد عليه بركات :

– انت حاتقول لنا .

فكا الملاءة ، لفاها بعناية ، وشالاها فى مكان أمين . لفت عسران نظر الكل إلى أن الملاءة بيضاء ، ويجب أن تعود لصاحبها وهى مثل القشدة ، دون ان تشيل تراب البيت ، فيعايرهم بأنهم يعيشون فوق كوم سباخ . اخرجا كل شنطة لوحدها . شنطة الجهاز الكبيرة ، وشنطة السلوك والحجارة الصغيرة .

طلعا الجـهاز من الشنطة الكبيرة ، والحجارة والسلوك من الشنطة الصغيرة ، وشالا الشنطتين مع الملاءة ، وضعا الجهاز على الأرض . خاف عسران أن ينكسر ، سحب ثلاث مخدات ، سند بها الجهاز . قال مرشدى لعسران :

– ابعد المخدرات عن السماعات .

نظر له عسران فأوضح :

– عشان نسمع

بصوا للجهاز ، لم يصدق عبده بركات نفسه ، هذا الجهاز يساوى جاموسة ، التى هـى كل حيلتهم فى الدنـيا ، يشارك عليهـا لأنه لا يملك ثمنها ، فى بطنها عجل ، تعمل فى الغيط ، تجر المحراث ، تلف فى الساقية ، ومن لبنها يأخذون السمن والقشدة والجبنة القريش التى تصبح جبنة قديمة بعد وضعها فى زلع المش ، والباقى يصبح لبنا رائبا ، وكل سنة تلد بطنا . ان حياتهم بدونها – لا قدر الله ولا كان – لا تساوى شيئا .

الجاموسة تساوى هذه القطعة من الحديد ؟! ياسبحان الله ، أحاطوا بالجهاز من كل ناحية . ترش الملح لا ينزل الارض ، لم يكن هناك خرم إبرة يمكن ان يرى منه أسامة علوان الجهـــاز ، حاول ان يقوم من مكانه ، ليقترب من الجهاز ، افسحوا له مكانا :

– عيب ياجدع وسع للضيف .

ألقى نظرة على الجهاز :

– فعلا ، آخر موديل .

أكد أن البلاد التى عاد منها ، لم يصل إليها مثله . تعجبوا من وصول هذا الجهاز الى نطاط الحيطان بهذه السرعة . أشار عبده بركات لأسامة علوان والجهاز . قال وهو يحاول ان يبدو مسيطرا على الموقف :

– ادى العيش لخبازينه ولو ياكلوا نصه .

خجل وهو يكمل النصف الثانى من المثل . فقاله لنفسه فقط : بكرة يكتر الدهب عندك وترصه . كان قد اكتشف لذة جديدة ، حلوة وطارئة ، لم يشعر بها من قبل ، ان يكون رجل البيت ، صاحب الكلمة والشورة ، وقرر ان يمضى فى السكة حتى آخرها . قال المثل فى الهواء دون ان يوجهه لأحد . أكمل موجها الحديث لولديه :

– أدوا الجهاز للفندى .

قال أسامة علوان ، وهو يقترب من الجهاز :

– دى مافيهاش أكل .

قال عبده بركات ، إنه لا يقصد ولكن المثل حبك . فكر أسامة علوان فى تشغيل الجهاز ، فهو البندرى الوحيد ، والعائد الوحيد من بلاد العرب ، ولكنه تخوف من حرصهم على الجهاز ، بعد ان سمع توصيات لا حصر لها على الجهاز ، وخاف من موضوع رهنيّة الجاموسة ، ان الكاسيت أغلى من حياتهم ، هكذا فهم من كلامهم . سيترك أسامة علوان الحكاية الخطرة لهم . زحف مبتعدا ، اعتذر عن عدم تشغيله . أدرك عبده بركات مدى الحرج الذى شعر به أسامة علوان ، فقال له :

– تقولشى جايبين الديب من ديله .

الصهللة صباحى ، وليس هناك مفر من الاستماع للرسالة . ذلك أفضل من صباح الغد . من يدريه عدد الضيوف الذين قد يحملهم ضوء الغد الى بيته ؟ قال عبده بركات لابنه عسران :

– توكل .

نظر عسران لأبيه ، الضيف موجود ، ولا داعى للفضائح أمامه ، وعسران لا يحب ان ينفذ كلام أبيه دون الرجوع لأمه . يخاف العراك . والعركة ليست

مشكلة ، ولكن أسرارهم قد تتناثر فى العزبة ، عسران يخشى لأن أباهم شد حيله بأولاده ، وأصبح يختلف عن الاول . شرابه الخرج أصبح رجلا ملو هدومه . عبده بركات فهم نظرة ابنه ، ولم يعطها اى اهتمام .

دخلت ست أبوها فى الموضوع عدل ، نصحت عسران أن يأخذ باله ، وأن تكون عيناه فى وسط رأسه ، فهو يعرف . قال لها :

– انا مش عايز وصاية .

فتح عسران ومرشدى الجهاز من ظهره ، حركا بابا صغيرا ، ووضعا الحجارة فى مكانها ، وحسب الطريقة التى شرحها لهما نطاط الحيطان ، اكتشفا أنه يضحك عليهما . فطريقة وضع الحجارة مرسومة على الجهاز ، يمكن حتى للشيخ بخاطره الكفيف أن يراها . قال عسران ، وهما يركبان الحجارة لأمه وأبيه ، إن نطاط الحيطان سيحاسبهم على ثمن الحجارة ، خمسة جنيهات كل جنيه ينطح جنيه . لم ترد أمه . كانت تخاف ان يخرج الامر على فاشوش .

وضع عسران الشريط فى الجهاز ، وقبل يده لكى يشغله – كما عرفه نطاط الحيطان – شخطت فيه ، ذكرته بقراءة الفاتحة ، قالت إن الجيل الجديد ، خرج الى الدنيا وكلام الله ليس مزروعا فى قلبه ، توقفت يد عسران ، وابتسم ابتسامة المعتذر عن خطأ كبير وقع فيه . قال لها :

– معاكى حق .

الكل يحفظ الفاتحة ، الذين يقرأون ، ومن لا يعرفون القراءة ، بل ويحفظون بعض قصار السور من أجل الصلاة ، لم يقرأ عسران الفاتحة لوحده ، وهم يقرأونها بتحريك الشفاه دون صوت ، رفعوا أياديهم نحو سقف المندرة .

ابتسم عسران لثالث مرة ، كانت الاولى وهو يسلم على الضيف ويسأله عن بركات . والثانية وهو يسأل الضيف :

– معقول يساوى جاموسة ؟!

تحفظ اسامة علوان فى اجابته . قال إنه لم يشتر مثله ، ولم يستعمله ، مالم يقله اسامة علوان ، انه لا يعرف ثمن الجاموسة قال :

– مش بعيد

دهش الحاضرون ، وتهيأوا لاسئلة اخرى ، حتى يكون عندهم كلام كثير يحكونه على المصاطب ، وفى الغيطان ، فى الايام القادمة ، قال اسامة علوان :

– فيه أجهزة تساوى ألوفات .

شرح لهم ، أن بعض الاجهزة فى حجم الزرار ، وبعضها يلتقط الاصوات من بعيد ، والآخر يشغل نفسه بمجرد ان يسمع الصوت ، ويتوقف أول ما يتوقف الكلام من نفسه ، ويقلب الشريط بدون إنسان .

أضاف عسران إن بعض الأجهزة يلف الشريط فيها ، فتسمع الصوت وترى الصورة وبألوان ، قالوا :

– عجايب .

أضافوا :

– إحنا مش عايشين .

بدت اللحظات التى استعرض فيها اسامة علوان معلوماته ، هى الوقت السعيد الوحيد فى الرحلة كلها . شعر بزهو وهو يتكلم ، وأحس برثاء نحوهم ، فالاحلام توشك ان تنزل من أعينهم على الكلام الذى قاله . كان يتمنى

ان يستمر فى استعراض معلوماته ، لولا انه يريد الانتهاء من الحكاية ، وهم يرغبون فى سماع الشريط .

ابتسامة عسران الثالثة كانت وقت قراءة الفاتحة ، تخيل دوافع ورغبات الحاضرين ، الذين يقرأون معه الفاتحة . طرد الخاطر من ذهنه . قال عسران وهو يعدل الجهاز :

– جانسمع صوت بركات .

نظرت ست أبوها الى السماء من وسط الدار ، لأن نجوم ماقبل ساعة الفجرية ، النجمة أم ديل فوق العتقا ، وبعد ان تمشى نواحى الضهرية ، تأتى اربع نجوم على شكل عصا ، وبعدها تجئ بعض النجوم الصغيرة ، التى تبدو مثل النقط على صفحة السماء .

إنها الساعة الموحشة ، فى ليل الناحية التى تسبق الفجرية ، هواء الليل الطرى المندى ينقل لها تواشيح ما قبل آذان الفجر ، التى تسبق آذانه ، من ميكروفون مركب فوق مئذنة جامع سيدى عبد الله النشابى فى الضهرية . يأتى الصوت قويا ، وعندما يهب الهواء ، يروح الصوت ويجئ ، يخفت ويعلو ، تستطيل الاحرف وتتمدد ثم تجئ لاهثة .

يشقشق الفجر ، يصبح الظلام رماديا ، ثم يأتى صوت المؤذن من الضهرية : الصلاة خير من النوم . بعد صوت المؤذن يستيقظ ديك مصحصح فى عشته ، ينشر الفزع والاضطراب بين باقى ديوك العزبة ، التى أصبحت تنعد على الاصابع من قلتها ، وتدب الاصوات فى الحارة ، كحة مخروشة لا تصدر إلا من صدر عليل ، يسكنه المرض ويسده فلا يتحرك فيه الهواء ، صوت رجل

يتف وينف ، وصوت سقوط بلغمه على الأرض ، وعندما يطلع النهار يكون هذ البلغم لايزال طريا وطازجا ، تحت خيوط الشمس الذهبية .

شاهدت ست ابوها علامات الفجرية فاستبشرت خيرا ، كان عبده بركات فـــى المندرة ، لم ير علامات الفجر الواهنة التى بدأت تنتشر على صفد السماء ، لو رأى اقتراب آذان الفجر لاجل سماع الشريط لحين ذهاب الرجا لصلاة الفجر فى الجامـــع ، من يخطف الفجر جمـــاعة ، يحسب له قيـراط فى الجنة ، ومن يسعده زمانه هو من يستيقظ ساعة الفجرية بصورة ربانية دو أن يصحيه أن أحد .

المسجل أصبح جاهزا ، عسران ومرشدى قالا أن المطلوب هو ضغطه على الزرار الذى تعلوه حبة عدس صفراء ، يضع كل منهما اصبعه الكبير عليا ويضغطان بهدوء ، فيأتى صوت بركات ، ينساب حتى يصل الى حبة القلب ويستقر فى الدم ويعشش فى الروح ، يأخذهم جميعا إلى حيث هو ، أو يحضر إليهم فى التو واللحظة .

نادى عسران على أمه التى كانت تتملى من سماء هذا الوقت :

– تعالى اسمعى بركات يا أم بركات .

الذين مازالوا نياما ، استيقظوا وجاءوا ، أحاطوا بالجهاز على شكل دائرة ، استعجب عبده بركات من استيقاظهم ، لو انه كان من المفروض ان يسرحوا للغيط ، لوجد ألف مشكلة فى إيقاظهم ، ولحدث عراك وزعل البعض منهم ، وجدت فى الامور أمور .

امتدت أيادى البعض ، تحاول مسك الجهاز أو التحسيس عليه ، بدا منظرهم كحلقة ذكر ، والجهاز منشدهم ودليلهم ، ولكنهم لا يذكرون ، حاول كل

منهم أن يقترب من الجهاز أكثر . أفهمهم عبده بركات أن ذلك قد يبوظ الجهاز ، قد يختل توازنه ، يقع ، الزحمة تقلل الهواء حوله ، من الجائز انه – أى الجهاز – يتنفس ، وان حصل للجهاز أى شئ ، فمن يضمن عودة الجاموسة لهم ؟ من يده فى الماء ، ليس كمن يده فى النار :

– هس .

عادوا للهسهسة ، كل واحد قالها للآخرين ، حتى الاطفال ، الذين استيقظوا ، قلدوا الرجال وقالوها . يضم الواحد شفتيه الى بعضهما البعض ، ويضع إصبعه امام الشفتين ، ومن كثرة الهسهسات التى تطلب الصمت من الاخرين ، اصبحت دوشة . شاور عبده بركات لهم ان يسكتوا ، لم يسمع كلامه ، فعلا صوت ست ابوها ، تطلب من الجميع السكوت . نظرت لمرشدى وعسران :

– اتكلوا .

مد عسران ومرشدى اصبعيهما فى وقت واحد . داسا على الزرار . كاد أسامة علوان أن يضحك . ذكره مايراه بما يفعله المسئولون عند قص شرائط افتتاح بعض المشروعات . بدوبك وصلت طرطوفة اصبع كل منهما الى حبة العدس . وداسا على الزرار ، مر جزء من الدقيقة .

سمع الكل طنين الفجرية وأعينهم على الجهاز ، وآذانهم على سماعته . راح كل واحد منهم يتذكر آخر مرة استمع فيها الى بركات ، ماذا كان يميز صوته ؟ عن اى الامور كان يتكلم ؟

توقف الزمان ، عقارب الساعات حلفت ألا تتحرك ، النجوم توقفت فى أماكنها من سماء الله العالية ، الشمس ظلت فى محبسها فى باطن الارض ، والليل اوشك ان يرجع ويطرد الفجر ، ويمنع الصباح الذى يأتى بعده من المجئ

قلوبهم وهنت ، وعظامهم لانت ، واعصابهم ارتخت ، واجسامهم سابت مفاصلها ، وأياديهم فقدت السيطرة على أعصابها .

لم يسمعوا الصوت الذى انتظروه . جلس عسران فى مواجهة الشريط ، فلم يتمكن من رؤيته ، فعبز حتى أصبح الشريط فى مواجهته . بربش بعينيه وركز نظراته ، وقال إن الشريط واقف لا يلف والجهاز لا يدور .

جاء زيدان ، استغربوا حضوره ولكنهم أعلنوا فرحهم بوجوده بينهم . رحبت ست ابوها بأخيها :

– وتاعب نفسك ليه ياسيد الرجالة .

قال لها إن النوم جافاه ، وهل من المعقول أن ينام فى ليلة لا تأتى فى العمر كله غير مرة واحدة ؟ ركب الركوبة وجاء ، يطل عليهم ، عرف المشكلة فطلب من عسران أن يخرج الشريط ويفحصه ويركبه ، وان يتأكد من ان وضع الحجارة سليم ، فهى يتم تركيبها خلف خلاف ، فهل أخذ باله من ذلك ؟ .

فعل عسران ماطلبه خاله . سأله عن مصدر الحجارة ، فقال إنها من نطاط الحيطان . اعاد عليه السؤال ان كانت شغالة أم فاضية ، فالرجل ذمته أستك . سألهما ، هذه المرة ، عسران ومرشدى معا ، ان كان الجهاز سليما أم معيوبا ؟ عندما اخذاه من نطاط الحيطان . جربه وشغله أمامهما قبل ان يأخذاه ، وأنه سيجربه عندما يعيدانه إليه .

فكر أسامة علوان فى تجريب الجهاز ، واستغلال خبرته ،. أكلته أصابعه ورغب فى مشاركتهم ، ولكنه شم رائحة أزمة قد تحدث فسكت ، لو طلبوا منه اى خدمة سيفعلها ، لن يتقدم من نفسه ، لا يريد ان يصبح طرفا فى مشاكل هؤلاء الناس الغلابة ، يكفيهم ماهم فيه .

بدا على عسران ومرشدى أنهما فعلا كل ماعرفه لهما نطاط الحيطان ، سألتهما ست أبوها :

– غلب حماركم ؟

رد عليها عسران :

– هو احنا لنا حمار علشان يغلب .

اقترح مرشدى ان يعودا – هو وعسران – الى نطاط الحيطان ، يسألاه ويرجعا . قال عبده بركات :

– مش حانخلص ولا الليلة الجاية .

حسم زيدان الموقف ، أشار لأسامة :

– لا يفتى ومالك فى المدينة

ما كان أسامة علوان راغبا فى ذلك ، ولكن هيبة زيدان جعلته لا يقدر على التراجع ، انتقل من مكانه ، وحلقة الدائرة المحيطة بالجهاز أفسحت له مكانا بالقرب منه . حاول من جديد ، الحجارة وأخرجها ، شافها ووضعها فى مكانها ، وقال إنها سليمة . الشريط وسحبه ونظر فيه وحركه بظفر إصبعه الصغيــر الذى كان طويلا فتحرك أمامهم ، نفخ فى السماعتين ، كل سماعة مرة ، نقر على الجهاز بإصبعه .

نظر فى جنب الجهاز ، حتى يتأكد انه يشتغل بالحجارة وليس على التيار ، وتأكد أن الكهرباء تصل اليه من الحجارة . أعاد كل شئ لمكانه ، ضغط على الزرار الذى تتوسطه حبة العدس الصفراء ، فلم ينطق . أعاد المحاولة أكثر من مرة . قرب إحدى اذنيه من السماعة ، ربما كان صوته وشوشة . نظر الى زيدان والى الحاضرين ، وهو يقف من القعدة المتعبة ، وينفض يديه من التراب :

- حماري أنا اللى غلب .

سأله عبده بركات :

- ايه الحكاية ؟ .

قال له لابد ان هناك عيبا ، إما فى الجهاز أو الشريط أو الحجارة . سأله زيدان إن كان قد استمع الى الشريط من قبل ، أو حضر بركات وهو يسجله لهم ، وعرف ما فيه ، حتى يبل قلب أمه المتشحتف عليه .

كانت المرة الأولى التى يسمعون فيها زيدان يتكلم بانسانية ، نفى أسامة علوان حضوره التسجيل وأنكر معرفته بما على الشريط من كلام . لو كان يعرف لأراحهم من الاول ، من كل هذا التعب .

قال له زيدان ، « وهل هذا معقول » ؟ فى الغربة يكون الرجل سر الرجل ، والصديق قبل الطريق ، وبينما هما هكذا ، أخذ وعطاء سؤال وجواب ، كلام واستماع ، اذ بعبده بركات يقترب من الجهاز ، تصور الكل أنه سيجرب حظه ، قد يجعل الله سبحانه وتعالى البركة فى يده . هز عبده بركات الجهاز أكثر من مرة ، أماله على جنبيه ، جنبا بعد جنب ، ونظر فيه ، طبطب عليه ، رجاه أن ينطق ، كاد مرشدى يقول لأبيه إن الجهاز ليس بنى آدم حتى يفهم هذه الامور ، ولكنه خشى من سخرية الحاضرين من والده فسكت .

كانوا مشغولين كلهم عندما رفع عبده بركات يده اليمنى ، أصبحت كلوة يده فى مواجهة الجهاز ، ضربه بكل عزمه وصاح :

- ماتنطق بقى

ضربة عبده بركات قسمت الجهاز نصفين

ويد عبده بركات قطعت وسال منها الدم ، وطرطش على الحاضرين فى المندرة ، كان الدم ساخنا وله رائحة مختلفة عن رائحة دم الطيور التى يقوم بذبحها الشيخ بخاطره ، والذبائح التى يذبحها الجزار ، وجاءت نقطة من الدماء على الجهاز ، سمعوا صوتا من الحاضرين ، وان كانوا لم يعرفوا من الذى نطق به :

- جه يكحلها عماها .

احتار الذين يشكلون حلقة حول الجهاز ، ابتعد البعض ، ونزل الهم على الاخرين ، بأى الامرين يهتمون ، بيد عبده بركات التى تشلب دما ، أم بالجهاز الذى انكسر وأصبح قطعتين . اتجه اسامة علوان الى المكان الذى كان يجلس فيه منذ حضوره ولبد فيه ، وتمنى لو أنهم انشغلوا عنه بأمورهم ، ربما جرى من المكان كله حتى يشوف لنفسه صرفة .

أدرك عسران ان مخاوفه كانت صحيحة ، ليته ماذهب ، وما دخل فى الموضوع ، قال لنفسه ، دون ان يحرك شفتيه : وهل عمرت كلمة ياريت أى بيت ؟ ملعون من يقول ياريت بعد فوات الاوان . سكت زيدان ، حتى لايزيد الموقف تعقيدا وصعوبة ، خاصة ان عبده بركات من المفروض ان يبدو كرجل البيت أمام الضيف .

ست أبوها كانت أول من تحرك ، شالت التراب من عتبة المندرة التى يجلسون فيها ، ورمته فوق رأسها ، ورشته على الحاضرين . رقعت بالصوت الحيانى المقلوع من حبة قلبها ، والخارج من عروق رقبتها بطلوع الروح :

- ياخراب بيتك ياست أبوها .

خرجو من ذهولهم ، مصيبة وقعت ، لم يكن يهم ست أبوها يد عبده بركات ولا ذراعه ، كانت تصوت لان الجاموسة أصبحت بعيدة . خبط زيدان يدا ب

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

نظر إلى السماء التى تطل على وسط الدار :

- دا يبقى موت وخراب ديار .

كان الجرح فى يد عبده بركات غائرا ، ولحم يده بان ، جلد يده أصبح مغموسا فى الدم ، وظهر جزء من عظام يده ، لم يتصور أحد أن يكون عظم عبده بركات بهذا القدر من البياض الشاهق .

صوات ست أبوها ، وكلام زيدان ، وخبطات الكفوف ، جعل كل الاهتمام موجها الى الجهاز الذى أصبح قطعتين ، علاوة على القطع التى اصبحت فتافيت متناثرة تملأ المكان وانشغل الاولاد فى جمعها .

أهملوا عبده بركات ويده ، لم يربط له أحد جرحه الغائر ، أو يكبس الدماء التى سالت من عروقه ، وعبده بركات حاول تطبيب نفسه « ياروحى مابعدك روح » . مد يده السليمة لكى يحوش بها الدم النازف من يده المجروحة ، قاوم ألما لم يشعر به فى حياته كلها من قبل . قليل من التراب يكبس به الجرح وأنتهى الامر .

نظروا الى اسامة وأشاروا للجهاز ، وقبل ان يسأله أحد عن مصير الجهاز ، رد على سؤالهم ، الذى لم يقله أحد :

- يتصلح .

استفهموا منه اكثر ، رد عليهم وهو يتمنى الهروب من نظرات أعينهم التى يملأ لمعانها المندرة :

- كل اللى ينكسر يتصلح .

أكمـــل :

- صنايعى شاطر يرجعه لأصله .

وجد عبده بركات فى كلام اسامة إنقاذا له من الكل ، حرك يده السليمة ، بعيدا عن اليد المنصابة ، فنزل الدم من جديد :

- فى المركز صنايعيه شاطرين .

صرخت ست ابوها فيهم :

- هو اللى انكسر يتصلح ؟

وبدأت ست أبوها تهذى ، بكره شريكك فى الجاموسة يطلبك فى قعدة عرب ، ميعاد رجالة ، يمكن يجرجرك على العمدة ، وتبقى جت للعمدة على الطبطاب . جايز يحطوا الكلبشات فى ايديك ، ويمشوروك على النقطة ، زى اللى انمسك بسرقته على أكتافه . يمكن يوقفك فى القفص الحديد فى المحكمة مع المجرمين .

إنما المهم انك لن تجـد من يقبل أن يشاركك على امواله ولو رهنت له لحمك .

الصباح رباح

لا مفر من الهروب ، انه يعرف ان من يستدير ويعطى ظهره لهؤلاء الناس ويطلق ساقيه للريح جبان . ولكن من يجرؤ على القول ، أن أسامة علوان ، يستطيع أن يكون شجاعا بعد كل ما تسبب فيه ، وهل أمامه خيار آخر سوى أن ينفد بجلده من المصيدة التى وقع فيها بنفسه ؟ وجاء إليها بقدميه ؟ .

ما اصطاده صياد ، ولكنه تدحرج حتى أصبح فى الفخ ، وصل وقت الضحى على أساس أن يعود مع طراوة العصارى الندية ، يكسر القيالة فى ظلال بيت الذين حضر لهم بالرسالة التى معه ، ويعود عندما تستدير الشمس الى الناحية الاخرى .

انكسرت القيالة ، وجاءت العصارى ، ولكن بدون نسمات ندية ولا يحزنون ، والموضوع الذى جاء من أجله ، لم ينته بعد .

اقتربت ساعة المغارب ، ونزلت مقدمات الظلام على العتقا ، فقال أسامة علوان : « آهى ليلة وفراقها الصبح » ، والآن لابد من الهروب ، قبل أن يأتى هذا الصباح ، يخشى أسامة علوان أن أمسى وبات وأصبح وهو فى العتقا أن يبقى هنا الى الابد .

جئت الى هنـا ، لأن ابنهم الذى لم أعرفه ، ولم أره عينى عينك ، فى شدة ، على أمل ان يتحركوا ويخرجو ابنهم من عسر حالته ، ولكن الذين تصورت

انهم قد يتحركون لانقاد ابنهم ، وجدتهم في أمس الحاجة لمن يشيل عنهم حمول الهموم .

الجرح هنا ، والجرح هناك ، احترت والله ، لاأعرف حقيقة من الذى حاله أكثر صعوبة من الاخر ؟ البعيد الذى تركته هناك ، أم الذين حولى من كل ناحية ، تطل من أعينهم شرائط نظرات الاحتياج ، ويسيل العوز من بين أشداقهم ، ونظرات أعينهم تحاصرنى ، ولا أستطيع الهروب منها أبدا .

جئت و فى جيبى لعنة على شكل رسالة ، لن أتركهم - ان افلحت فى الهروب - كما كانوا قبل وصولى اليهم ، شدتهم أصبحت مصيبة ، وورطتهم تحولت الى مأساة ، ان تمكنت من الهـــروب قد أتصور أن الأمر انتهى بالنسبة لى ، ولكن هيهات ، من المستحيل انتهاء هذا الذى يجرى فى نفسى ولو يوم الموقف العظيم ، وان فشلت فى الافلات ، لا أدرى متى أخرج من هذه العزبة التى على شمال السماء ؟ ماكان يريد قضاء الليل عندهم ، كان خائفا مما أن يكون على الشريط ، جاء برسالة لايعرف ما فيها ، غير متأكد ان كان ما يحمله بشارة ، أم قد تجعل الناس تقول عنه انه مثل غراب الشوم .

وصلت تباريح التعب لنخاع عظامه ، عائد الى دياره ووطنه بعد سنوات الغربة ، وبقدر بهجة السفر ، ودهشة اكتشاف العالم ، فإن رحلات الرجوع ، تصبح نوعا من التعب الذى لا ينتهى ، يؤلم العظام ويتسلل الى الأعصاب .

كان يرغب فى المشى من لحظة حضوره ، يترك لهم الرسالة ويمضى ، ولكنه بقى لكى يعرف ، كانت لديه رغبة حارقة فى أن يطمئن على شدة الذى هناك ، وأن يدفع أهله الى مساعدته ، قرر الا يتكلم عن شدة ابنهم - التى لا يعرف عنها اكثر من انها شدة - الا بعد الاستماع الى صوته على الشريط ،

والاطمئنان عليه ، ثم يبدأ فى الكلام ، يحكى لهم ويقول ، ولكن بعد أن يقول ابنهم أولا .

هو الوحيد الذى يعرف معنى الشدة ، عندما تحدث فى المكان الذى نجح فى الافلات منه بأعجوبة فى اللحظة الأخيرة ، سرقة الكلام ، والترحيبات والوجوه الجديدة التى يراها لأول مرة فى حياته ، أخذوه من زمانه وأسلموه لايقاع زمانهـــم ، وجعـــلوه جزءا من واقعهم دون أن يدرى ، لا يعرف كيف حدث هذا ، ولكنه حصل .

صدره ثقيل ، وجسمه مشدود الى الأرض ، أصبح الموقف أكثر غموضا ، وابنهم أضحى فى أبعد مكان على الأرض ، نقطة لا يعرفها أحد ، ومع هذا ليس أمامه سوى ترك هذا المكان والجرى فورا ، وإن كان لا يعرف الى أين ، لهم أن يفر ، أما الى أين ؟ فتلك حكاية أخرى .

تؤله عيناه ، تحت الجفون ملح خشن ، وفى زاويتى العينين كثير من لشطة السودانى الحراقة ، يفرك عينيه بيديه فتتسع دائرة الألم ، يحتوى الوجع خدين ويمتد فيمسك فى الوجه كله ، يتمنى لو بكى ، أو أسعفته دموع العين سلتهما من الملح والشطة والألم . ولكن من قال إن دموع العين تسعفها وقت زوم ، رائحة عرقه النوشادرية تحاصر أنفه ، إصابع قدميه ألتصقت من ذلك زيج الغريب الذى تكون من العرق والغبار .

كانت حيـاتـهم معقولة قبل أن يأتى ، ابنهم غائب وعندهم أمل فى دته ، حضــوره فتح باب التساؤلات التى لن تجد لها إجابة ، الكاسيت شدش ، والشريط أصبح مائة قطعة ، والحجارة عجنت بدماء عبده بركات ،

والجاموسة التى حيلتهم ، لا يملكون سوى نصفها ، أصبحت وراء الشمس . للجاموسة مالك آخر غيره ، مالك النصف الآخر ، الذى سيقف فوق رءوسهم مطالبا بحقه فور أن يعرف ماجرى .

كان لديه أمل أن يكون على الشريط ما يشكل انقاذا للبعيد المتغرب ، بعد وصوله الى العتقا ، ورؤيته للحال ، قال فى نفسه ، إن الرسالة التى معه ، إن لم تنقذ الذى تركه هناك ، فعلى الأقل قد تخرج الذين هنا من أزمتهم التى لم يعودوا يشعرون بها من كثرة التعود .

لن يخرج مشواره على فاشوش ، خيرا فعل بحضوره ، لا أحد يتصرف هكذا فى هذه الأيام العصيبة ، الكل يعيش زمن الخلاص الفردى ، شعار الجميع : أنا ومن بعدى الطوفان ، ولذلك فالكل يشكره على حضوره ، ويقول إنها جدعنة تعود لزمن مضى ، والبعض يتصور انها ربما كانت صداقة نادرة ، بينه وبين بركات ابنهم ، ومع هذا يشعر أن حضوره لم يتسبب سوى فى تأخرهم سنوات وسنوات .

وجهه وجبهته وصدره ، يغطيهم عرق اختلط بتراب يونيو المتناثر فأضحى لزجا ، خيوط من الطين الأسود على وجهه وصدره ، وقميصه اتسخ والتصقت أجزاء منه بالجسم ، وتحول العرق الممزوج بجلده ، المثقل بالتراب والطين الى بقع ، أصبحت واضحة ، فهو ككل أبناء هذه الأيام ، يلبس القميص على اللحم .

هل يمشى ويتركهم هكذا ، يضربون الودع ، ويفتحون المنادل ، ويشوفون البخت ، ويحاولون معرفة النصيب ؟! ، حرام عليه ما يفعله بهم ، أخذهم من بر أمان الانتظار الى بحار المجهول التى لا شاطئ لها سوى التخمين ، كم تبدو جريمته ضخمة أمام عينيه ؟ .

فكر أن يكتب لهم رسالة ، يعتذر فيها عما جرى ، ويحكى حكايته كلها بصدق وأمانة ، حتى لو قالوا عليه إنه نصاب ، يكفيه حسن نيته ، وأنه ماقصد سوى الخير ، عندما يعرفون القصة ، سيكبر فى أعينهم أكثر ، جاء بدون معرفة بأبنهم ، وليس له هدف سوى خدمته وخدمتهم فقط ، حرام عليه أن يحضر وأن يمشى وأن يسلمهم لحيرة أكبر من التى كانت تعصف بهم قبل حضوره .

استراحت نفسه ، الكتابة أفضل الحلول ، يختلى بنفسه بضع دقائق ، يدون فيها الامر كله على الورق ، رسالة يتركها ويمضى من حيث أتى ، وقراءة الرسالة لن تكون فى صعوبة الاستماع الى الشريط ، وعندما يقرأون الرسالة ، يكون هو فى رحلة الهروب ، دفعة طارئة ومفاجئة من النشاط واليقظة دبت فى أوصاله .

فتش جيوبه بحثا عن قلم يكتب به ، لم يجد فهو لا يحمل الأقلام أبدا ، ليس محاميا ولا كاتبا ، استخدامه للأقلام يصل الى حد الندرة ، بحث عن ورقة يكتب فيها ، لم يجد سوى ورق علبة السجائر ، ولكن مازالت معه سجائر لم يدخنها ، وحتى إن حمل السجائر فى جيبه فرط ، فإن ورق العلبة لن يكفيه لكتابة مايريد كتابته .

فكر ان يطلب منهم ورقة وقلما ، ومن يدريه أن عندهم أقلاما وأوراقا . ثم أنه لو طلب منهم الورقة والقلم ، قد ينبههم اليه ، فيحاصرون وجوده ، فلا يبقى أمامه سبيل الى الأفلات ، وحتى لو أحضروا له الورقة والقلم ، أين يخلو بنفسه ، لكى يكتب فى هذا الزحام ، الذى يجعل البيت يبدو وكأنه يوم الحشر العظيم ؟

عاد من جديد الى فكرة الحكى والقول ، وهم يستمعون اليه ، ومع الكلمة الأخيرة من حكايته ، يقوم ، يمشى فورا ، ولا يستجيب لأى طلبات منهم بالبقاء ، حتى ولو للصباح فقط ، بدأ يرتب الكلمات التى سيقولها لهم ، فى خاطرة ، حاول أن يتجنب أى كلمات يمكن أن يكون لها أكثر من معنى .

عليه أن يخلص نفسه من الموضوع كما تخرج الشعرة من العجين ، وأن يطمئن هؤلاء الناس المساكين على ابنهم ، وأن يستبعد من كلامه أى شىء عن شدته ، ثم يمضى ، شعر باستحسان فكرته ، تحسس حنجرته بيده ، وأطمأن على حركة تفاحة آدم فى الصعود والهبوط .

سيقول إنه لم يكن يقصد سوى الخير للناس وابنهم ، أما كون الحكاية وصلت إلى ما وصلت إليه ، فهل كان فى وسعه أن يوقف ما جرى عند حد معين ؟ هل كان فى مقدور أحد منهم منع المصيبة وأن يحول دون حدوث المأساة ؟

سيقسم بأغلظ الأيمان أنها القسمة والنصيب ، والمقدر والمكتوب وأن ما جرى للجاموسة ، كان سيحدث بطريقة أو بأخرى ، كل مافعله إنه حمل رسالة من ابنهم وجاء بها ، وما حصل بعد وصوله هم الذين فعلوه وليس هو ، كان ضيفا يكتفى بالجلوس والانتظار وهم الذين تصرفوا . وعندما جاء الجهاز – وليته ما وصل – لم يمد يده اليه ، إنه ليس مغسلا وضامن جنة .

الذنب ليس ذنبه ، ولا ذنب ابنهم ، ولا ذنب هؤلاء الناس الغلابة المشكلة أنهم جميعا يعيشون فى زمان عصيب ، أكتشف – خلال محاولة أن يعيش الموقف بعين الخيال – إنه لو قال هذا ، واشتبك فى حوار وتناثرت العواطف ، وتحدثوا عن الموضـوع على المكشوف ، سيبقى معهم ، سيربط مصيره بمصيرهم ، لن يتحرك من هنا ، حتى تحل مشكلة ابنهم ، ومشاكلهم ، التى قد تحتاج إلى سنوات قادمة حتى تحل .

الهروب هو أفضل الحلول ، ينسل فى صمت ، دون أن يثير انتباه أحد اليه ، واللحظة هى أنسب الأوقات للهروب فيها ، بل هى اللحظة الوحيدة التى سيخرج فيها دون أن يلحظ أحد ذلك . أنها لحظة الهول الاعظم ، يوم القيامة نفسه ، هرج ومرج ، اختلط الحابل بالنابل ، فوضى لا مثيل لها . مولد وصاحبه غائب . سوق ضخم ، الكل يتكلم فى وقت واحد .

إنها المرة الأولى التى يفرد فيها حيله بعد جلسة طالت ، كانت قدماه يجرى فى عروقهما النمل ، والخدر أصاب عظامهما ، وجسمه تصلب وتيبس على شكل الجلسة التى جلسها منذ وصوله إلى البيت ، وظهره يبدو وكأنه خاصم الحركة منذ سنوات .

شعر بالدماء تجرى فى عروقه ، وسمع طقطقة عظامه وهو يقف ، تمطع وفرد جسمه على آخره ، مال جهة اليمين ، ومال جهة الشمال وكأنه يقوم بتمرينات رياضية حتى يتعود على الحركة .

تسلل أسامة علوان ، حنى ظهره ونظر إلى الأرض ، داس بقدميه على الأرض بهدوء ، مع أن الصخب الذى حوله كان كفيلا بأن يغطى على أى صوت آخر . ولبس حذاءه ، والكل مشغول عنه بالمصيبة التى وقعت . الذين شاهدوه يخرج من المندرة إلى وسط الدار ، ثم يغادر وسط الدار إلى الحارة ، قالوا فى عقل بالهم ، إن الضيف يريد أن يشم نسمة هواء بعد كتمة البيت .

رآه الولد مرشدى وهو يخطو عتبة البيت إلى الحارة ، فتصور إنه ربما يريد أن يفك ميه ، أو أن يقضى حاجته ، ويفعل زى الناس فى أقرب غيط للبلد . لايوجد فى بيتهم كنيف ، وهم يقضون حاجتهم خارج البيت ، والضيف انكسف أن يسألهم إن كان فى دارهم بيت أدب أم لا .

شاهدت ست أبوها قدميه فقط ، فهما اللتان وقعتا تحت نور السهارى الذى كان يهمس بضوء آخر الليل النعسان ، حزمة هفتانة من الضى الأصفر العليل ، عبث بها هواء ساعة الفجرية الطرى ، فجاءت على قدميه . قالت لنفسها « إن الضيف ناداه أذان الفجر ، فقام يصليه جماعة فى المسجد مع الشيخ بخاطره » أتاها يقين أنه فعلا زميل بركات ، فبركات كان يصلى الفجر جماعة مع الشيخ بخاطره ، وكان يضحك على الذين لا يذهبون الى الجامع سوى فى موسم الصلاة السنوى ، فى شهر رمضان والعيدين ، وموسم الصلاة الأسبوعى يوم الجمعة .

تمنت لو أنها أحضرت له شيئا يغير به ريقه ، حتى لو كان كوب شاى ، ولكنها مشغولة بالمصيبة التى وقعت ، الجهاز الذى انكسر ، والجاموسة التى لن تراها ، ولا حتى فى المنام ، فرصة وجاءت لنطاط الحيطان حتى باب بيته ، لكى يدفس أنوفهم فى تراب السكك .

الواجب هو الواجب ، مهما يكن ما حدث لهم ، لابد من تجهيز إفطار للضيف عند عودته من الجامع ، فكرت أن تطلب من واحد من الحاضرين فى البيت ، وما أكثرهم ، أن يدل الضيف على الجامع فى الذهاب والعودة ، ربما يريد الضيف أن يخلو بنفسه ، وقد يكون مكان الجامع معروفا له ، ولو أنه كان يريد أحد عيالها معه لطلب ذلك .

لأول مرة منذ أن دخل البيت ، يجد نفسه فى الحارة ، وإن كان الحال قد تغير كثيرا ، أتى وشمس النهار الحارة تفرش المكان ، وخرج والظلام الدامس من أمامه وخلفه وفوقه وتحته ، وعلى يمينه وعلى يساره .تصور أسامة علوان أن العتقا فى سابع نومه ، لن يصادف أحدا ، ولكنه ما أن خرج من الدار ، وأصبح

فى الحارة حتى وجد من يجلسون فيها ويتكلمون . أنقلب ليل العتقا الى نهار . هجعت العتقا منذ مجئ الليل وحاولت أن تنام من تعب النهـــار ولكن النوم جفاها .

بجوار الجدار المواجه لباب الدار ، كانت تجلس فتاة جميلة ، مستربعة على الأرض . فلقة قمر أربعتاشر . ياه ، كان شريط من الضوء الباهت الخارج من باب دار عبده بركات المفتوح ، يروح ويجئ ، يمر على وجهها فيبدو جمالها الفتان ، يذهب عنه فيبقى نور الوجه المستدير واضحا فى ظلام الليل ، حتى يعود الضوء إليه مرة أخرى .

تمنى أسامة علوان لو أستطاع أن يمسك شريط الضوء المتعب بيديه ، حتى يوقفه على الوجه الصبوح من الآن والى الأبد . سأل نفسه : « هل فى العتقا كل هذا الجمال ، ولماذا لم يره قبل لحظة الهروب » ؟!

هبت البنت واقفة ، عود سرو من أيام الرخاء ، نظر لها ، ذكرته بالصور الفاتنة التى كان يقطعها ، فى زمن المراهقة ، من المجلات ويلزقها على حوائط بيته . حملق فيها مندهشا ، وقبل أن ينطق صاحت فيه :

– أنت جارى منين ؟ ورايح فين ؟ ايه حكايتك ؟ .

قبل أن يرد عليها ، اقترب منها رجل ، وبخ الفتاة الجميلة :

– عيب ياعطيات ، دا مرسال الغالى .

بلع أسامة عوان ريقه بصعوبة ، سأل نفسه ، كيف طاوع هذا الرجل لسانه ، الذى فى فمه ونطق لها بكلمة عيب ؟ جمالها يجعل عشماوى يحل القتيل من فوق حبل المشنقة ، وقادر على أن ينطق الحجر . ويوصل الحيوان الأخرس الى لحظة الغناء . أشار الرجل لأسامة علوان ناحية الحارة :

– أتفضل ياأبنى .

مشى فى الحارة ، دهش عندما وجدها تشغى بالناس ، ورغم أن الحصة كانت متأخرة ، البعض ينام وهو جالس ، والآخرون أعينهم مفنجلة ، يرى لمعانها فى الظلام ، النيام يشخرون ، والسهارى يتكلمون ، ثرثرة ليلية بصوت أقرب الى الهمس ، وإن كان الهمس مسموعا فى هذا الوقت الليلى .

حمل الهواء إليه الطراوة ، وإن كانت الأرض التى تشربت شمس النهار وحرها ، تخرج الصهد ونار النهار الذى أصبح اسمه أمبارح ، من جوفها ببطء ، لابد أن النيام ، داخل البيوت ، يسبحون فى عرق صيفى فالجدران تبخ فيهم الوقيد .

استغرب أسامة علوان من استيقاظ الناس فى هذا الوقت ، لم يتصور أنهم يجلسون فى الحارة بسببه ، وأنهم تعودوا على الحر والصهد والسباحة فى العرق طول الليل ، وأن مجيئه الى العتقا دفع الناس الى هذه اليقظة الحارقة ، فالناس تعودت أن تنخمد فى بيوتها فور مجئ الليل .

لاحظ أسامة علوان أن كل الذين مر عليهم ، كانو يصمتون لحظة مروره ، ثم يستأنفون الكلام همسا بعد ذلك . وشوشة الليل الصامت كانت لها طعم خاص فى أذنيه . أعطته الانطباع أن مايقوله الناس أسرار نادرة ، أو أحلام من النوع الذى لايجرؤ أحد على البوح به للآخرين .

الذين مر عليهم أسامة علوان ، وهو يتسحب ، قالوا إنه رغب فى شم هواء ساعة الفجرية الطرى ، والبعض أكد أنه ذاهب لكى يصلى فى الجامع ، والذين ضحكوا ، قالوا إن الضيف لم يجد بيت راحة فى دار عبده بركات ، فقرر أن يعملها فى الغيطان . مسكين لم يذهب معه من يرشده لطريقة عملها فى البراح .

لم تطرأ فكرة هروب أسامة علوان من العتقا على بال أحد منهم ، سار هو بصمت وهدوء ، كان يتحسس على الأرض بقدميه قبل أن يدوس عليها . ينظر فلا يرى سوى الظلام ، وبعض السجائر تشتعل لحظة سحب النفس منها ، وتفرش المكان بضوء أحمر قان ، ثم تعود نقطة باهتة ، يكاد يبتلعها الظلام الدامس .

أسلمته حارة صغيرة لحارة أكبر ، حتى وصل الى داير الناحية ، سمع نباح الكلاب الشرس ، تصنع أسامة علوان الجد ، ولم يحب أن يبدو فى نظر الناس كما لو كان ولدا خرعا من أولاد البنادر ، يخاف من نباح كلب ، فهو فلاح أبا عن جد ، والرجولة اختراع فلاحى ، هكذا فكر أسامة علوان ، على الرغم من أنه كان خائفا من الكلاب الليلية التى تختلف ضراوة نباحها عن الكلاب التى رآها بالنهار عند حضوره .

تذكر ما سمعه فى قريته البعيدة ، عن كلاب الغيطان ، التى تكون خلفة ذئاب ، فالذئب عندما يعشر الكلبة ، تحبل وتخلف كلبا ، ومن ينظر له عن قرب يرى فيه ملامح الذئاب . وصل الخوف الى نخاعه ، كان يسمع أن الغيطان الخالية ، التى هجرها الرجال ، أصبحت تشغى بالذئاب والضباع والثعالب ليلا والسكك ترمح فيها العفاريت والجن والأرواح نهارا . ومع هذا ليس أمامه سوى اكمال مشواره .

اقترب من الخلاء ، هاهو الظلام الذى يبدو مثل جوف الارض السابعة ، شعر أنه يخوض فى كتل الظلام ، وان العتمة تلمس يديه وقدميه وأعصابه ، رأى سماء الفجرية تبدو من بعيد ناحية الشرق ، فى النقطة التى تلتقى فيها السماء عند حافة الافق مع شواشى الاشجار ، كان لون الفجر البعيد هشا . انفلقت

أرض الليـل اللا نهائية عن حبة الفجـر الندية ، وتموجت عباءته السـوداء عن شقوق رمادية .

الخلاء ، الخلاء الليلى ، نباح كلاب ، نقيق ضفادع ، صمت الصمت ، طنين الليل ، أنثاه تصفران ، لايرى سوى بقع الضوء الشاحبة وسط الغيطان . ضباب الليل ، ترتدى السماء والأشجار العالية ، والنباتات والأرض ألوانها الصباحية ، وإن كانت لا تزال باهتة ، ينفجر فى المكان قدر من الحيوية ، لم يكن موجودا منذ لحظات .

أخيرا ، أصبح خارج العتقا ، فأصبحت مشكلته معقدة ، عندما كان يمشى فى حوارى العتقا ، كان يتصور أن همومه ستنتهى عندما يخرج منها ، تركها وراءه فلم يجد أمامه سوى الحقول والزراعات والأشجار والمدقات وقنوات الماء ، ولا يعرف الطريق الذى يمكنه العودة منه ، والخروج من العتقا بأسرع ما يمكن وقبل أن يصبح النهار أمرا مؤكدا .

فى الخلاء جاءت اليه ، وسط الزرع الأخضر والماء الذى أصبح يخلو من الطمى ، وتحت السماء الرمادية ، وقفت أمامه ، تبحث عيناها عن رجل مدهون بالمجازفات ، والسنابل ذبلت من فرط الوجد . عليها طل الليل ونداه ، سأل نفسه من تكون هذه السنيورة التى دوخه جمالها .هل من المعقول أن يجتمع كل هذا الجمال فى إنسانة واحدة ؟ لو جرى توزيعه على كل نساء العالم لكفاهن . وهل من العـدل أن يشاهد هـذه الفاتنة فى لحظة رحيله ، بعـد العناء الطويل الذى مر به هنا ؟ .

سندت ظهرهـا الى شجـرة صفصاف ووقفت فى الانتظار ، ولكن الشجرة ، بسبب طول الوقت وبعد المسافة ، كلت وانحنت باتجاه النهر ، وظلت تنحنى ، أما هى فكانت تنتظر ذلك الذى سيشق غيوم السماء ويصل اليها .

جف حلقه ، جرى النمل فى أطرافه ، أسرعت دقات قلبه ، وقفت صامتة ، بدا له الصمت غير محتمل فى مواجهتها ، سألها :

– أنت ؟!

ردت عليه فى قلب بكارة الفجر والغيطان :

– أوعى تسأل .

كانت ترش السمسم والعسل على الحقول ، ولسانها يدور فى فمها ، يختلج بملح الغياب ، سألته ولم يرد ، تدخل الرجل الكبير فانصرف من أمامها تاركا تساؤلاتهـا معلقة فى ظلام الحارة تبحث عن إجابة ، عطشان ومرهق وجائع ، يكفيه أن تنظر إليه حتى قيام الساعة

تؤلمه عظامه ، ودقات القلب على القفص الصدرى باتت توجعه ، بحث عن أجمل وأرق الكلمات التى يعرفها حتى يقولها ، تاهت منه الكلمات وخانته ذاكرته ، حاول أن يتذكر ما كان ينقله من كتب رسائل العشق والغرام ، غطس فى بحور ذكرياته ، فلم يجد على سطح الذاكرة سوى صورتها التى يراها أمامه ، أشارت للعتقا ، فأخذت يدها عينيه الى البعيد والنائى فقالت :

– ماكفكشى اللى عملته هناك ، بتهرب كمان .

غاضبة كانت ، بين الكلمة والأخرى هسيس شهقات بكاء محبوس ، جميلة حتى وهى فى لحظات جنون غضبها ، لم يلون الغضب سيمفونية الجمال التى تعزفها ملامح وجهها ، ولم يعكر صفو أبتسامة لا يراها الانسان فى عمره سوى مرة واحدة .

تحول غضبها منه وثورتها عليه ، الى وسادة من الزبد تحت القلب ، اللقاء الثانى وما عرفها ، كـــان يعذبه سؤال واحـــد : من هى ؟! من أى الجنات

هبطت على الأرض ؟ والى متى تبقى ناشرة عطرها السحرى حولها أينما تحركت ؟ .

أما هى فقد كانت تعرفه ، اللفندى الوحيد وسطهم . همس بداخله خاطر ، ربما كانت خطيبة بركات التى سمع عنها وإن كان لم يرها .

رأى الخط الذى ترسمه ملامح وجهها على لوحة الفجر الرمادية ، أخذه جمالها إلى العوالم البعيدة ، حلق معه فى الأعالى ، مشى فوق السحاب ، ونام على هدهدة الماء ، هى الوحيدة ، بعد أم بركات ، التى تمنى لو أنه اعتذر لها ، عما سببه حضوره من الألم فى حبات القلوب .

عاش وهو يقف أمامها ، ما سمعه فى طفولته من جدته - يرحمها الله ويبشبش الطوبة التى تحت رأسها - عن الجنية التى تأخذ البنى آدم وتذهب به الى شواطئ البحار البعيدة . إما أن يخاويها ويعاشرها تحت الماء ، أو أن تقتله وتتغذى على كبدته التى تأكلها نيئة ، وتشرب كل قطرة من دمائه ، والنداهة التى تنادى من يمشون بمفردهم فى الليل ، وتلف بهم أركان الدنيا السبعة ، وتعود به قبل أضواء الفجر ، وتتركه بعد أن تكون قد أخذت عقله معها ، فلا يبقى له سوى عراك ذباب وجهه ، وضرب نسمات الهواء والتفتفة طوال الوقت . وبنات الحور اللاتى يقمن بفك خنقة القمر .

جنية أم نداهة ؟ أم واحدة من بنات الحور تلك التى تقف أمامه ؟ استغرب لأنه لم يشعر بالخوف منها ، كانت لديه فقط رغبة فى أن يشرب جمالها بعينيه ، جميلة تخطف البصر وتأخذ القلب معها الى العلالى التى تعشش فيها ، طيف أم رؤيا أم إنسانة من لحم ومن دم ؟ قريبة وبعيدة ، أمامه ونائية ، لا عينيه صافحت عيناها ، ولا يمناه لامست يمناها . ولا صوته خدش أذنيها ، ولا صوتها وقف على باب قلبه المغلق بالضبة والمفتاح ، منذ أيام الحل والترحال ، ومع هذا شعر

أنه يعرفها منذ سنوات ، غالب شهقات البكاء ، وأوقف دموعها فجرية ، ما أن داعبت عينيه حتى شعر بمقدمات ملح حادق وحار تحت الجفون .

قال لنفسه لن يتمكن من الهروب من طيفها ، كلبشت فى حشاه والسلام ، مثل حكايات العنكبوت والعشش القديمة ، قلبه عشة قديمة ، لم يقترب منها أى عنكبوت من قبل ، ستطارد أيام يقظته وتقلق غفواته إن غفا ، ستأخذه من المنام وتسرقه من الأحلام ، إن جاءته مستقبلا القدرة على الحلم ، وتريه نجوم السماء فى عز الظهر .

جاءته ، فى وقفته حكايات أمه ، عن الرجال الذين نزلت بهن بنات الجان تحت سابع أرض ، حيث تخاويهم ويبقون معها الى آخر أيام العمر ، ويكون الجنون هو محاولتهم الهروب منها بعد ذلك .

ليت النهار ما جاء بوضوحه الذى يقتل الاحلام والأطياف والخيالات والرؤى ، حن إلى لون الفجر الرمادى ، الذى يولى هاربا أمام ضوء النهار القاسى ، حلم أن تخطفه تلك التى يقف أمامها . مستعد أن يعيش معها حتى لحظة نزول جثمانه الى القبر . سابع سماء أو سابع أرض ، المهم أنه سيكون معها ، حتى لو ذهبت به الى آخر مكان فى العالم ، لا يعنيه سوى أنه لن يفارقها بعد ذلك أبدا .

جاءت أمه الى باله وسكنت فيه ، عششت بين تلافيف مخه ، مع أنه حاول طوال حله وترحاله أن ينساها ، جاء الى العتقا هروبا من صورة رحيلها فى غيابه ، وصلت معها الدموع ، شهقات دموع لم يتذوق هدير ارتجاف الجسم قبل مجيئها من قبل .

هدأت نفسه ، وتبخر صوت غليانه الداخلى . تساءل وهو ينظر الى العتقا: وهل تريح الدموع الذين تركهم هناك ؟ هل تصلح الذى انكسر ، وتعيد الجاموسة،

وتحضر بركات من الشدة التى يعانى منها ؟ وحتى لو بكى من الماء مايروى أرض مصر كلها ، لن تفعل دموعه أى شئ .

أغمض عينيه ليتذوق جمالها ، وفتحهما فلم يرها أمامه ، صعدت الى السماء أو نزلت تحت الأرض ، نظر فى الهواء ، فخيل اليه أنها تطير بجناحين لم يرهما ، عندما كانت تقف أمامه ، حرك يديه فى الهواء ، حاول أن يلحق بها فى العلالى التى تنظر إليها ، اكتشف انه لايستطيع أن يطير ، مكسور الجناح ، كسير القلب ، والقدرة على التحليق لا يقدر عليها ، إلا من له جناحا نسر وهمة صقر، ومن له بذلك بعد ما فعله بعبده بركات وأهل بيته ؟

سار أسامة علوان وحده ، مشى بين الغيطان ، وهو لا يلاحظ نقاط الندى التى تجمعت على مقدمة حذائه ، واختلاطها بتراب الأرض المبلل أيضا بالندى ، كان يفكر فيها ، فلتكن ما تكون ولكن قلبه تعلق بها .

أفزعه خروجه من الغيطان ، خطفه من الأفكار التى كان سعيدا بها ، كان لابدا فى الزراعة ، إنخض أسامة علوان منه ، لو لم يره من قبل ، لانقطعت خلفته . وتيبست نطف الاولاد والبنات المرصوصة فى ظهره قبل أن تنتقل الى رحم إمرأة وتتخلق أطفالا .

نفس الطويل الهبيل الذى رآه مرتين منذ حضوره الى العتقا ، وقف فى منتصف الطريق ، تذكر أسامة علوان حكايات قطاع الطرق ورجال المنسر، شيخ منسر هذا ، أم واحد من المجاذيب ؟ مكشوف عنه الحجاب ، ويقرأ الغيب ؟ هل يمكن أن يقول له ما يريح خاطره ويجعل باله يهدأ ، ويطمئنه على أحوال عبده بركات وأهله بعد رحيله ؟

– هدهد بيسأل ياغريب الشوم .

قبل أن يسأله العبيط ، فط السؤال من فم أسامة :

– هدهد ؟ هدهد مين ؟!

قال له العبيط :

– هدهد سيدنا سليمان ، ياجاهل القلب .

أشار لنفسه :

– هدهد العتقا .

سمع شخللة العصا وهو يحرك يديه ، رأى أسامة علوان جمال وجه العبيط ، الذى لم يره عن قرب وبعيدا عن زحام الآخرين ، سوى هذه المرة ، كحل عينيه كان واضحا ، وعلى وجهه آثار غسيل بمياه لم تجف بعد ، وقطرة ماء واضحة ، تقف فى تجويف حسنة فى منتصف ذقنه :

– وديت بركات فين ؟!

– بركات ؟! .

– إحنا غلابة وبركات كان عكازنا

لم يكن الطويل الهبيل يسأله لكى يستمع منه إجابات ، كانت الأسئلة جزءا من جمل ينطق بها ، وبين الحرف والحرف فى الكلمة الواحدة ، سيل من التفتفة ، التى تبدو مثل رغاوى الصابون ، كان الكلام يتناثر من فمه ، ينطق به وهو يتطوح يمينا وشمالا ، شرقا وغربا :

– الغايب مارجــع ، والحاضر غاب ، والضيف بــدل ما يفك كيــسه ويفــرق علينا ، لما كلنا فى الكيس وهرب بينا محبوسين فى الكيس اللى جاى بيه فارغ .

توقف فترة من الوقت ثم أكمل :

– الغايبين ، الزمان بقى زمانهم ، والوقت أصبح وقتهم .

أشار للعتقا التى كانت نائمة لاتزال ، رغم نور الصباح الوليد :

– الحصان الأبيض ماجاشى ، والموال الأخضر ماانتهاشى .

لم يعط أسامة علوان الفرصة لكى يسأله ويسمع منه ، كانت الأسئلة تدور فى ذهنه ، كان يرتبها ، لكى يطرح المهم منها أولا ، كان أسامة يفكر فى الجلوس مع العبيط حتى يسمع منه ما يريد معرفته ، ولكن العبيط ، كما ظهر، اختفى ، جرى على السكة نواحى العتقا :

– اللبن عند البقرة ،، والبقرة ، عاوزة برسيم ، والبرسيم عند الفلاّح ، والفلاح عايز رغيف ، والرغيف عند الخباز ، والخباز عاوز بيضة ، والبيضة جوه الفرخة ، والفرخة عاوزه قمحة ، والقمحة عند القماح ، والقماح عاوز فلوس ، والفلوس عند الصراف ، والصراف بده رغيف ، والرغيف عند الخباز ، والخباز نفسه فى بيضة ، والبيضة ...

كان أسامة علوان قد توقف واستدار يتابع جرى الطويل الهبيل ويستمع الى ما يقوله ، كان يريد الوصول الى نهاية لهذه الدائرة المفرغة ، الكل يعوز من الكل ، ولا أحد يعطى ، وبدلا من أن يريحه الطويل الهبيل بنهاية للمتاهة التى يحكى عنها ، توقف هو أيضا واستدار ، شوح بعصاه ، ورغم بعد المسافة ، سمع أسامة شخللة العصا ، وبعزم الصوت قال العبيط :

– يارحمة فين أراضيكى .

نزل فى أحد الغيطان ، ابتلعه الصمت ، ودخل فى جوف السكون الذى لا حد له ، فكر أسامة علوان فى الجرى والعودة له ، ونزول الغيط وراءه ، وعدم تركه

مالم يشف غليل معرفته منه ، ولكنه خاف من فكرة العودة ، إنه يهرب ، وكل خطوة تمكنه من الفرارخاف من فكرة العودة ، انه يهرب ، وكل خطوة تمكنه من الفرار يربحها ، أما العودة الى الـــوراء فهى خسارة ، ولا يعرف الى أين يمكن أن تقوده .

نظر أسامة علوان الى المكان الذى اختفى فيه العبيط ، انتظر قليلا لعله يظهر على السكة من جديد ، فكر : عصا موسى ؟ يمامة النبى ؟ هدهد سليمان ؟ مجنون أم نبى ؟ أم أنه واحد من علامات هذا الزمان العصيب ؟ ربما كان رسالة قادمة من مكان بعيد ، ولكن هل تصبح مثل رسالة بركات التى حضر بها الى العتقا ، ولم تحمل سوى الخراب لمن حضر اليهم بها ؟

إشارة أم رسالة ؟ روح أم بنى آدم ؟ السنيـــورة أم العبيط ؟ ليمشى والســـلام ، يسلم نفسه لأول طريق يقابله ، دون أن يفـكر فى أى أمر ، شم هواء الصبـــح الطرى ، ونداه والخضرة والأرض المروية ، رأى السماء فوقه كخيمة لا لنهائية من اللون الرمادى المائل الى الزرقة .

عند خط الأفق المغسول بالصمت ، رأى جسر البحر العالى ، وسمع هدوء الصباح ، وتذوق صوفية الألوان . خيل اليه انه يرى على مدد الشوف ، جبلا نام طول الليل ولم يستيقظ بعد ، وشجر التين الشوكى وأعواد البوص وأشجار الكافور والجازورين تبدو من بعيد مثل خطوط مشرشرة فوق قمة الجبل .

مفارق طرق ثلاثة أمامه ، ولا توجد علامة واحدة يمكنه أن يميزهاأو يتذكرها . كيف يتصرف حتى يخرج من المكان قبل أن يمتلئ بخلق الله ؟ تذكر الورقة التى فى جيبه ، فيها العنوان الذى حضر به الى العتقا ، يمكنه استخدامها فى رحلة العودة ، قرأها ، لم يستدل منها على أى الطرق يمشى .

جاء عن طريق الضهرية ، سمعهم يتكلمون عن المدافن فى منتصف المسافة من العتقا الى الضهرية ، بحث بعينيه عن شواهد القبور ، رآها تطل من بين زراعات الحقول ، اكتشف أن طريقين من الطرق الثلاثة تتجه اليها ، طريق من شرقها وآخر من غربها .

سار تجاهها ، المهم أن يصل الى الضهرية ، والباقى مكتوب فى الورقة التى تصف له طريقة الوصول حتى الضهرية ، يستخدمها فى العودة ولكن بالعكس ، هارب منهم ، من شدة ابنهم ! من حالهم الذى ازدادت صعوباته بحضوره ! هارب من نفسه ولكن الى نفسه ، ما أحوجه الى خل وفى ، صدر يبكى عليه ، ما فعله بنفسه اكبر من احتماله ، وما تركه عند الناس أكثر من قدرتهم على شيل الحمول ، لم يسيئوا اليه ، ومع هذا خرب بيتهم ، أجهدوا أنفسهم يوما وليلة من أجل إسعاده ، جاءوا ليملأ بطنه ويقف على أظافره ، عطشوا ليرتوى ، تعبوا ليستريح ، ولم يجد ما يقدمه لهم سوى الهروب الذى سيوصلهم لحافة الجنون .

تركهم وهم لا يعرفون سوى اسمه الاول ، أسامة ، وفى مصر أكثر من مليون أسامة ، اسم وافد جديد وكل الناس تسميه ، لا يعرفون باقى اسمه ، ولا عنوانه ، كان التائه ابنهم فقط ، والتائه قد يعود يوما ما ، أصبح لهم مائة ضائع ، وأول من ضاعوا كانت الجاموسة ، التى كانت أنفع من ألف بنى آدم بالنسبة لحياتهم اليومية .

اقترب من المدافن ، رأى شواهد القبور ، فقال إنه الطريق الذى سيوصله للضهرية ، ومن الضهرية ستكون رحلة العودة سهلة ، توقف ونظر وراءه الى العتقا ، كانت نظرة أخيرة ، يؤرشف بها المكان فى مخيلته ، حاول أن يعرف على

البعد مكان بيت عبده بركات ، كان ذلك صعبا ، راح يتصور حالهم عندما يكتشفون هروبه من بينهم .

شعر بغصة فى الحلق وسار باتجاه الضهرية .

بدأت الخطوات الضالة فى رحلة العودة ، وترك خلفه أشواك الصبار وغبار المتاهات ، وذكرى اللحظات الغريبة ، والحقول المزخرفة بالنعناع وحولها الفقراء المثخنة أجسامهم بالجراح ، والمدهونة باليأس الذى لا حدود له .

وقف واستدار لآخر مرة ، قال بعلو الصوت الذى بدا واضحا فى سكون الصباح : ياعتقا من الذى أعتق أهلك ؟! أين هو الآن لكى يعتقهم مرة أخرى من جديد ؟! أين هو ؟ دلونى عليه .

الـضحى

وهو كان فيه ضيف من أصله ؟!

صحت العتقا ، التى لم تنم ، على سؤال أنور كساب ،الذى قام من نومه مبكرا على غير عادته ، طول عمره ناموسيته كحلى ، يصحو وقت الظهر ، ويسهر حتى وش الفجر ، سؤال أنور كساب كان واحدا ، ولكن الاجابات تنوعت .

قال بعض الناس إنه شاف الضيف عينى عينك ، والبعض أكد أنه سمع عنه ، وهناك من وافق أنور كساب على رأيه ، وأكد أنه لم يكن هناك ضيف ولا يحزنون .

استلقى أنور كساب على ظهره من الضحك ، فعل ما يقوم به عندما يصل الى أقصى درجات سعادته ، أمسك عضوه وتحسسه وفركه قائلا :

– عبده بركات أنمسك من محاشمه ، وأبو حسين مش حايسيبه حتى ولا بالطبل البلدى .

شخط أنور كساب فى الذين حوله :

– مرسال مين ؟ وشريط أيه ؟ صح النوم يابلد ، العتقا لا دخلها مرسال ولا خرج منها غريب ، تلاقيهم بيحلموا .

والذين يقفون حول أنور كساب أمنوا على كلامه مرة أخرى .

جرى ما جرى والدنيا ليل ، من المفروض أن العتقا نائمة ، والضهرية تأكل الأرز مع الملائكة وكل عزب وكفور العب نائمة فى العسل الذى طعمه مثل الخل ،

كان من المفروض أن يمر يوم أو يومان ، وربما أكثر ، قبل أن يعرف الناس ما جرى بالضبط ، ويضيف اليه كل مايريد إضافته ، ويحذف ما يرغب فى حذفه ، ولكن الغريب - هذه المرة - أن العتقا عرفت ما يجرى ، أولا بأول ، كأن هناك من يعلق على مايحدث ، قال أنور كساب وهو يختم الكلام والختام دائما فى حكايات أنور كساب مسك :

- سى حسين أبو حسين يكسب .

وكان نطاط الحيطان ، من باب الاحتياط ، ومسك العصا من النص ، واللعب على كل الأطراف وإرضائها ، قد أبلغ أنور كساب بالحكاية ، هز أنور كساب كتفيه ، قال إن الأمر لا يعنيه ، ثم إن نطاط الحيطان لا يعيش فى زمام العتقا ، إنه من أهالى الضهرية وهى بلد كبير ولها عمدة .

كان أنور كساب كذابا فى أصل وجهه ، فقد اهتم بالموضوع وتحركت مصارينه فى بطنه ، استمع الى ما حدث ، وعندما وصلت الأمور الى كسر جهاز نطاط الحيطان ، تساءل العمدة : كيف فعلها عبده بركات هذه المرة ؟ هل أستأذن ست أبوها ، قبل أن يكسر الجهاز ؟ مثلما يستأذنها قبل أن ينط عليها ، وهل أذنت له ؟ قال إنهم ناس لبط ، مسح شفتيه وأكمل :

- العمد عمد والغفر غفر .

تمادى فى حكاية أنه غير مهتم بالموضوع فقال :

- موضوع مالناشى فى أوله ، مش حايكون لنا فى آخره .

لا أحد فى العتقا أو فى الضهرية يدرى كيف عرف نطاط الحيطان وأنور كساب ما جرى أولا بأول ، وكيف تبادلا ما يعرفانه ؟ هل راحت المراسيل بينهما فى الوقت الذى نام فيه الكل ؟ أم هل اتصلا بوسيلة أو بأخرى ؟

شيخ البلد عنده تليفون الحكومة ، الذى لا يتكلم سوى مع تليفون العمدة ، عمدة الضهرية فقط ، ويمكن أن يتصل أنور كساب من خلال تليفون العمدة ، بالنقطة الثابتة فى التوفيقية ، أو المركز فى ايتاى البارود ، وبالشديد القوى يمكنه أن يتصل ، وبعد محايلات ووسايط ، بالمديرية .

نطاط الحيطان ليس عنده تليفون ، فكيف تم الاتصال اذن ؟ضرب الناس - فى العتقا - كفا بكف ، وقالوا ، إن أنور كساب ونطاط الحيطان استخدما الحمام الزاجل فى نقل رسائلهما ، أو ان الحكاية فيها أرواح وشياطين ، جعل الله الكلام خفيفا على قلوبهم .

قالت الناس يكفى مافعلته الشياطين بعبده بركات ، وعبده بركات لم يكن يعرف ماذا سيفعل ، فكر فى غيبوبة الألم أن ولديه داسا معا على الزرار فى وقت واحد ، ففسد الجهاز ، اصبعاهما الغليظان زحما الهواء وكتما نفس المسجل وخنقا صدره ، وهنا فقط أدرك أن الجهاز مكسور فسابت مفاصله ، كاد يعملها على روحه مثل الأطفال .

أفاق من غيبوبة الألم ، عندما سمعهم يتهامسون عن الضيف الذى خرج من البيت ولم يعد ، والعائلة أصبح ويلها ثلاث ويلات ، الجهاز الذى انكسر ، والجاموسة التى لا يعرف أحد متى ولا كيف تعاد اليهم ، والضيف الذى خرج فابتلعته الحقول التى تلف حول العتقا مثل سكة الثعبان ، دخلها ولم يخرج منها .

فكر عبده بركات فى الضيف وما جرى له ، الحمد لله إن ما حدث كان أمامه ، سيعود ويبلغ بركات بما رآه ، عيانك بيانك ، ولابد ان بركات سيأتى بنفسه عندما يعرف ما وقع لأهله بسبب رسالته الغريبة ، سيطلب من الضيف أن يقول لبركات ماشاهده بنفسه .

بحث بعينيه عن الضيف ، لم يجده ، سأل عنه ، رفع يده السليمة وأشار للمكان الذى كان يجلس فيه ، والذى تركوه خاليا بعد مشيه المفاجئ ، لم يقترب منه أحد ، كان لديهم يقين أنه لابد سيعود ، لم يخطر ببال أحدهم أنه يمكن أن يهرب، سأل عنه ، رد عليه موسى زوج ابنته :

– الضيف ، فص ملح وداب .

فأغمى عليه من جديد .

كان صباحا ثقيلا ، الذى جاء إليهم بعد الليلة الصعبة والعصيبة ، بدا البيت غامض الظلال ، وكأنهم ينظرون اليه لأول مرة . وست أبوها ، كان لا يزال عليها أثر التراب ، وفى عينيها حزن معلق لم يذب بعد فى لمعان العينين . وبدت بقايا رموش عينيها مختلطة ببقايا دموع نزلت وساحت ، ليلة عصيبة مرت بهم ، وأن كانت آثارها لا تزال كابشة بحشا قلوبهم ، وستظل كذلك الى آخر أيام عمرهم .

ظل عبده بركات جالسا فى المندرة ، عيناه غارقتان تحت أهدابه الكثيفة ، يبدو لمن ينظر اليه أنه هادئ فى مكمنه ، يعانى ، فقد طار برج من عقله . أفاق من غيبوبته ، كان الألم الذى لا يطاق فى يده هو أول ما يشعر به . نظر حوله فوجد حصارا محكما من نظرات كل الموجودين حوله ، قال فى نفسه : إن الطور عندما يقع تكتر سكاكينه .

خبطت شوق صدرها بيديها :

– مسكين يابا ، تطلع من حفره ، عشان تقع فى دحديرة .

علق عسران على الموقف :

– ما قدمناشى غير أن أحنا ناخذ الهدر لاخره .

انكسر الجهاز ، فوقف كل الموجودين مبهوتين ، ذاب اللت والعجن ، كأن العفريت طلع لهم فى أنصاص الليالى ، أو أن عقربا قرصهم ، أو أن حية لفت نفسها حولهم ، انكسر الجهاز وضاعت الجاموسة ، بدلا من رؤية الفلوس التى يرد منظرها الروح وتبل الريق . قال زيدان .

– هيه الحداية بترمى كتاكيت ؟ وهيه الغربة بيجى من وراها خير ؟

قالت ست أبوها :

– قليل البخت تنشف فلوس العرب على باب داره .

شعر عبده بركات بالألم فى يده ، ولكنه انكسف أن يطلب الذهاب إلى حلاق الصحة ، لكى يداوى له يده ، وأن كان النشر والألم فى يده يزدادان . قال لنفسه ، إن المصيبة التى حلت به أكبر من أى مصيبة أخرى ، ليت يديه تقطعان وجسمه كله يموت ، ولم يكن قد حدث له ولعائلته ما حدث .

مر الوقت ولم يعد الضيف ، أتوغوشت نفوسهم عليه ، زيدان ، الذى كان قد عاد إلى دار عبده بركات لثالث مرة ، تساءل : كيف يتركون الغريب ، ، يروح الجامع لوحده ؟ كرم الضيف ، ليس أن تعلفه مثل البهائم ، ولكن ألا تتركه يمشى خطوة واحدة بمفرده . قالوا له ، ربنا لا يريك لحظة كسر الجهاز ، تاه كل واحد عن نفسه ، وذهل عن الآخرين ، أنحاش النظر وسدت الآذان ، وشعر كل واحد كما لو أن روحه تصعد إلى بارئها .

خرجوا إلى الحوارى ، وزعوا أنفسهم فى السكك ، منهم من ذهب إلى الجامع ، ودوار العمدة ، وبيت هوانم .

– ودا معقول يروح بيت هوانم .

– وليه لا ؟

- الشيطان شاطر .

كان الناس فى العزبة ينزلقون فى غبشة الصباح ، وكانت حارات العزبة ودروبها وداير الناحية مليئة بالغبار ، وبدت الغيطان لعينى عسران ، التى رأى جزءا منها وهو يمشى فى حوارى العتقا ، وكأنها قد احترقت بالأمس ، بدت له الناس تمشى على المدقات التى بين الغيطان ، وكأنهم يقدرون على شيء واحد اسمه الصبر ، وأنهم مستعدون للانتظار من الآن وإلى الأبد .

بحثوا عن الضيف ، خطف موسى رجليه إلى الغيطان ، وذهب عسران إلى الجامع ، ومشى مرشدى فى الحوارى الضيقة ، هجوا كلهم من البيت ، وبقى عبده بركات فى مكانه يرتب الكلمات التى سيقولها للضيف عند عودته .

الذين خرجوا متحمسين للبحث عن الغريب ، عادوا منفضين ، لم يجدوا الغريب ، لا فى الغيطان ، ولا فى الحوارى ، ولا على جسر البحر العالى يشم هواء الصبحية ، ولا بالقرب من النيل يشاهد صفحة مائه النقية ، ولا فى الجامع يصلى ، ولا عند العمدة يخبره بما حصل ، ولا عند هوانم ، التى شتمت من أيقظها من نومها فى هذا الوقت من الصباح ، وكأن القيامة قامت .

لو كان الضيف عندها - قالت هوانم - ما خبأته ، ليست له إمرأة من العتقا تراعى خاطرها ، قالت إن أهل العتقا النور هم الذين خطفوه ، تصوروا أنه شايل ومحمل ، والعتقا شرقانة ، أرضها شراقى ، لن ترويها سوى الفلوس ، قد يكون الغريب محبوسا فى جب تحت الأرض ، أو معلقا من قدميه فى شجرة عجوز ، أما هى فكان سيجد عندها الراحة التى لن يجدها عند أحد .

قال عسران بعد عودته إلى البيت ، كأن الأرض انشقت وبلعته ، وقال مرشدى : ليمونة فى بلد قرفانة ، وقالت حفيظة : ليته ما جاء ، حضوره كان شؤما عليهم جميعا ، واليوم لم يكن يوم جمعة حتى يقولوا إن فيه ساعة نحس .

قال عبده بركات ، والكلمات تتلكأ فى فمه ، قبل النطق بها ربما خطفه رجال المنسر ، من العتقا أو الكنيسة أو الضهرية ، إنه المرسال الذى جاء من بلاد العرب ، لقية لا يجدونها كل يوم ، خطفوه من الحارة ، وطاروا به إلى إحدى السواقى المهجورة ، حيث يقلعونه هدومه ، يصبح مثل لحظة ولدته أمه ، ثم يفلون شعره ويفتشون أظافره ، ويبحثون تحت رموش عينيه ، ويخلعون أسنانه ربما كان المبلغ تحتها .

غلطة عبده بركات ، وأهل بيته ، أنهم لم يتأكدوا إن كان الضيف معه الشريط فقط ، أم أن هناك ما أرسله بركات لهم غيره ، لم يسألوه إن كانت معه أمانات يريد أن يتركها فى البيت قبل أن يمشى .

قال زيدان إن موضوع اختفاء الضيف فيه مسؤلية ، عليهم إبلاغ العمدة، عمدة الضهرية طبعا وليس أنور كساب ، باختفاء الضيف ، وإن كان عمدة الضهرية سيقول إن العتقا لها شيخ بلد ، وأى بلاغ فيها ، من اختصاص أنور كساب وليست له دعوة بالموضوع كله .

استبعد الآخرون فكرة الخطف ، خطف الضيف ، لأن الذين يعرفون بحضوره بعض أهالى العتقا وليس كلهم ، ومن الواضح أنه لا يحمل أموالا ولا يحزنون ، وكل ما جاء به هو الشريط النحس الذى تسبب فى ضياع الجاموسة . إن ذهبوا إلى أنور كساب ببلاغ عن اختفاء الضيف ، سيكون اسعد أيام أنور كساب ، سيعملها فضيحة فى العتقا ، قد يلبسهم تهمة خطفه ، ليس لديهم دليل ضد أحد ، قالت ست أبوها ، وهى تقفل الكلام فى الموضوع :

- نكفى على الخبر ماجور .

والايام مثل مخاليق الله ، يوم ابن حلال ، وآخر ابن حرام ، وثالث ابن أبالسة . والليالى فى العتقا لها ألوان ، ليلة بيضاء وليلة سوداء وليلة حمراء . الليلة

البيضاء يعود فيها الناس من الغيطان محملين ، والبيوت تمتلىء بالكركران والضحكات ، وتضيء الوشوش بالابتسامات رغم أن أسنانهم صفراء ، لأن مناخيرهم تعمل مداخن طول اليوم ، والغيطان البراح تتونس بصوت السواقى تنعى وتملا . والليلة الحمراء تشيب فيها حريقة تأخذ فى وجهها كل ما حوشه الناس . عامود النار يصل ما بين الليل والنهار ، وما بين الارض والسماء ، والدخان يغطى العب كله ، يدلقون عليها الماء فيزيدها إشتعالا ، يتحد الماء والنار ويخربان كل ما زرعته يد الفلاح . وليلة الضيف كانت سوداء غطيس . أسود من وجه عبد لم يجد من يعتقه .

واليوم الذى جاء فيه غريب الشوم إلى العتقا ، كان يوما مثل أولاد الزوانى المرميين فى السكك . يتبرأ منه أبوه ، وتتنكره أمه . كان يوماً من الدموع فى دار عبده بركات ، بكوا على الجاموسة التى ضاعت ورسالة الابن التى أصبحت مائة قطعة .

احتار عبده بركات ماذا يفعل ؟ هل يبكى ؟ وإن رغب فى البكاء ، هل فى العينين دموع ؟ هل يشيل التراب ، تراب الناحية كله فوق رأسه ؟ هل يدهن وجهه وصدره بطين البرك الازرق الذى تفوح منه دائما رائحة العطانة ؟ هل يحضر من يبكون نيابة عنه ؟ هل يصوت ويلطم ويشق جلبابه مثلما تفعل النسوان فى المآتم ؟ ضيع كل ما عنده والان ماذا يفعل ببقايا جهاز مكسور وشريط تحول إلى اجزاء صغيرة ؟ هل يحلبه صباحا لينزل منه سرسوب اللبن الابيض ؟ هل يربطه فى الساقية لكى تنعى الرجال وتروى الحقول ؟ هل يعلق على كتفيه ناف المحراث ليقلب باطن الارض ؟ أم ناف النورج ليدرس القمح ؟ هل يحمل الجهار ويلد عجلا كل سنة ؟ ثم كيف سيتصرف مع شريكه فى الجاموسة ؟ ونطاط الحيطان لن

يكتفى بالجاموسة وبما فى بطنها ، لن يخلص من نطاط الحيطان ولا بطلوع الروح ، ولا حتى يوم القيامة سيظل يطارده مثل ظله .

لو مات لكان أحسن ، لو أن عقله طار ، مثل الذين يأكلون عيدان الداتورة، أو يبلبعون الحبوب ، أو يدخنون الحشيش ، أو يمضغون الافيون ، لما شعر بما عانى منه ، المخرج الوحيد أمامه ، أن يعود للضيف وان يكلمه ويحكى له . شال برقع الحياء عن وجهه ، وسيرسى الضيف على البير وغطاه .

قلة البخت مكتوبة فى دفاترنا ، ومرسومة على وشوشنا ، بعد سفر بركات ، قالوا فى العتقا ، إن جيوشنا ضربت بلاد العرب ، لف كدابو الزفة حوارى العتقا ، وهم يقولون الحكايات ، شتموا الرئيس ، والرئيس هو البلد كلها . إذن فقد شتموا بلدنا وأهانوا كرامة الوطن ، ولابد أن نلقنهم درسا . أصبح الأشقاء أعداء ، وأعداء الأمس جاءوا اليه ، قال عنهم أصدقاءه ، عانقهم وقبلهم وابتسم ذو الوجه الكئيب لهم . ونادى الأعادى كل باسمه ، مسبوقا بكلمات : صديقى ، عزيزى ، نام البر وصحا ، وفى سواد الليل اكتشف الناس انه حاول فك البلاد وحاول إعادة تركيبها وفق هواه وحده .

أمسك عبده بركات قلبه بيده ، ولطمت ست أبوها خديها ، سافر أخوه إلى مصر أم الدنيا ، لكى يسأل عن الحكاية والرواية ، لم يجد من يسأله . سفارات الأشقاء أصبحت خالية ، مبانى يعشش فيها العنكبوت ، وعلى أبوابها الحديدية ، التى تبدو مثل أبواب السجون فى البنادر الكبيرة ، أقفال ضخمة .

الهواء يضرب بقسوة فى الجنزير الحديد الذى يربط الأبواب والشبابيك حزام يبدو من شكله أنه لن ينفك ولا يوم الموقف العظيم، الزواحف ملأت الأرض، الهاموش يزحم الهواء ، والنباتات الشيطانى أخضرت بين البلاط ، والتراب غطى التراب ، والاعلام نكست مكسوفة ، الكل رحلوا . ضرب الولد كفا بكف :

- عليه العوض ومنه العوض .

وقال الاعادى ، الذين جاءوا إلى البر بعد رحيل الأشقاء ، فى شماتة ظاهرة :

- لو كانت دامت لغيرك ، ما آلت اليك .

سمع عسران ، وهو عائد إلى العتقا ، شيخا يقول :

- بالصبر الجميل يبلغ الانسان ما يريد .

قال عسران :

- المتغرب بقى بعيد .

رد علليه :

- فى المراسلة نصف اللقيا .

نصحة الشيخ ألا يكبش اليأس فى قلوبهم ، ذلك أخطر أعدائهم ، عليهم أن يحاولوا وصل ما انقطع ، وأن يجدلوا الحبال الدائبة حتى تبقى قوية . عا عسران ، قال لأبيه ، وقال لأمه :

- العدوين بقوا حبايبه .

قال الأب ، وقالت الأم :

- خدوا عقلنا وعمرنا ورجعوا لنا بركات .

شعر عبده بركات ، وأحست ست أبوها ، كل بمفرده دون أن يتحدث للآخر عما شعر به ، أن بركات أضحى - ولأول مرة منذ سفره - بعيدا . وعندما حاولا كل منهما ، تذكر صورته المرسومه على جدار الذاكرة ، اكتشف أنها أصبحت باهتة وملامحها ضبابية وحضورها واهن ، وعموما ، فهم يتذكرون الأحداث والأصوات ، أما الصور ، فقدرة مخيلتهم على إعادة خلقها محدودة .

نطاط الحيطان ، هاج وماج مع مجىء الصباح ، وكأنه كان يعد للأمر عدته من قبل ، وكان يراهن على أن عبده بركات سيكسر الجهاز ، أصابته حالة من النشاط المفاجىء ، قام من نومه ، ودخل إلى مكتبه الذى لا يجلس اليه إلا عندما يدبر مصيبة لأحد .

بدأ يكتب أكثر من شكوى ، الشكوى الأولى كتبها باعتباره - أى نطاط الحيطان - من أبناء الضهرية ، موجهه لعمدتها ، وشكوى ثانية لأنور كساب كشيخ بلد العتقا ، وطبعا لم يكتب نطاط الحيطان فى الشكوى أن أنور كساب شيخ بلد ، ولكنه كتب حضرة المحترم عمدة العتقا الشيخ أنور كساب .

كتب له باعتبار أن عبده بركات من أولاد العتقا ، أنور كساب هو الذى يحاسبه على تصرفاته وينفذ القانون عليه ، وهو يعرف أن أنور كساب ليس عمدة ، ولكنه يكتبها له من باب التعظيم والتفخيم حتى يكسبه إلى جانبه .

كتب شكوى لضابط النقطة الثابتة فى التوفيقية التى يتبعانها معا ، هو الذى يعيش فى الضهرية ، وعبده بركات الذى يعيش فى العتقا . والشكوى الرابعة كانت لمأمور المركز فى إيتاى البارود .

كان يكتب فى كل شكوى أن له معاملات سابقة مع عبده بركات ، ولكن موضوع الجهاز ، ليست له أى علاقة بأية قضية أخرى . وهو يطلب فى شكاويه حمايته من عبده بركات وأولاده . فله عزوة وعنده أولاد مثل الأرز ، وله نسايب ، صحيح انه بدأ بالأمس القريب مقطوعا من شجرة ، ولكنه أمتد وفرع وأصبحت له جذوره فى الأرض ، ولذلك يطلب حماية زراعته وبهائمه وأولاده وحتى البهائم التى يشارك عليها والأرض التى يزرعها شرك مع الفلاحين .

قال فى شكاوية ، إنه لن يبقى جاموسة عبده بركات عنده ، لعجزه عن حمايتها من عبده بركات ، وأهله ونسايبه ، فهم ناس لبط عملهم الأساسى فى

هذه الدنيا ، هو إبداع الشر ، وتهديد الآمنين من الناس ، وهو يعترف – والكذب على الله خيبة – أنه ليس قدهم .

لذلك سيشارك على الجاموسة أحد الفلاحين من ذوى العائلات ، اختار عائلة كبيرة ، أفرادها يسدون وجه الشمس ، وشبابها يأكلون كبدة الذئب نيئة ، ويشربون دماء النمور والاسود فى أكواب الشاى ، وهم قادرون على حماية الجاموسة . ولذلك فالمسألة أصبحت بينهم وبين عبده بركات . ولكنه ينبه الدولة والحكومة إلى أى متاعب قد تحدث مستقبلا بين الاثنين .

كتب فى شكاويه ان الجاموسة لا تساوى الجهاز ، الجهاز أغلى ألف مرة ، وسيحضر أوراقا رسمية من مصلحة الجمارك تثبت ذلك . وكان يطلب أن يبقى الوضع على ما هو عليه ، وعلى المتضرر أن يلجأ إلى القضاء ، وفى ساحة عدلة يأخذ كل ذى حق حقه .

طلب أن يبقى الجهاز عند عبده بركات ، حتى يشبع منه ، ويحاول اصلاحه ، وإن كان لا يمكن اصلاحه أبدا . وحتى لو تم الاصلاح ، مع استحالة حدوث هذا . فلن يقبل سوى اصلاحه فى بلاده التى صنعته أو احضار جهاز آخر غيره ، نفس موديله ، وبنفس ثمنه ، وتبقى الجاموسة العشر عند الفلاحين الذين أعطاهم إياها حتى يعود إليه جهازه .

ركن الاحزاب لآخر المتمة ، وان تعثرت الامور ، وانسدت السكك فى وجهه، سيلجأ إلى حزب الحكومة ، الذى يجلس فى مكاتبه نفس الذين يستربعون فى دواوين الحكومة ، وإن لم يجد من الحزب آذانا صاغية ، سيذهب إلى أحزاب المعارضة ، يطلق منها كم عيار فى الهواء ، والعيار الذى لا يصيب يدوش الحكومة كلها .

انتهى من كتابة شكاويه ، وزيادة فى طلب الامان ، قرر أن يشد كام تلغراف للحكام . الاحتياط واجب ، غيّر ملابسه ، أمامه عمل لابد من القيام به فورا . لابد من التخلص من الجاموسة أولا . لن يبقيها فى بيته ، فهو لا يضمن ما يمكن أن يقوم به عبده بركات وأولاده . ليس أمامه سوى تسليمها للعائلة التى فى باله .

فكر فى حالة العائلة ، نشف ريق رجالها وهم يطلبون منه أن يشترى لهم بهيمة شرك ، كانوا يبتون عليه ليلة السوق كل أسبوع ، وكان يؤجل الامر ، فهو لا يحب أن يخرج الاموال التى حوشها وكمخها فوق بعضها فى قعر صحارة هدومه ، فى مكان لا تعرفه مراته نفسها ، ولن تعرفه إلا فى لحظة الشديد القوى.

كان يفضل أن يشترى لهم جاموسة بأموال واردة إليه ، الوارد يشغله ، يلعب به في السوق ، أما الفلوس التى لبدت فى جحرها ، فهو لا يطلعها ، ولا حتى لعزرائيل قباض الارواح ، كل شىء بأوانه فعلا ، ها هى الجاموسة تأتى من نفسها لكى يسلمها لهم .

سيقول لهم إن أبواب السماء فتحت لهم ، وإنهم دعوا الله ، أن يحضر لهم الجاموسة فى ساعة إجابة ، يلبس طاقية هذا لذاك ، دون أن يمد يديه لجيوبه ، ويخرج منها أى شىء .

فكر : هل يرسل إليهم لكى يحضروا فيأخذوا الجاموسة ، وتصبح فى حماهم منذ لحظة خروجهم بها من منزله ؟ وأن مس أحد شعرة منها ، يكونون مسئولين عن هذه الشعرة التى مست ؟ !

مالا يعرفه الناس فى الناحية عن نطاط الحيطان ، أنه رغم طمعه ووقاحته وطول لسانه أمام الناس ، فإنه يخفى فى أعماقه شخصا يموت فى جلده إن هاجمه أحد ولو بالكلمات . يغطى بقشرة العداء الموجهة ضد الآخرين ، حالة من

الارتجاف والخوف ، كانت أعماقه ترتعش عند حدوث أى مواجهة ، خاصة عندما يكون وحيدا دون حضور الآخرين .

كانت بحار الافكار تعصف به فى ذلك الصباح ، هل يذهب إلى العائلة ويعود مع رجالها إلى البيت لأخذ الجاموسة ؟ ، ويكون قد ضرب الحديد وهو ساخن ، فيعطيه الشكل الذى يريده ، جاءته فكرة جديدة ، سيسحب الجاموسة يروح بها لهم . يفاجئهم على الريق ، لن يذهب إليهم سكيتى ، وكأنه يسحب جاموسة مسروقة ، قبل الذهاب إليهم ، سيسحبها إلى الترعة لا لكى تشرب ، ولكن حتى يراه كل من له عينان من أهل الضهرية ، وهو يمسك بحبلها وتمشى وراءه من داره حتى الترعة . ومن الترعة حتى بيت الذين سيشاركهم عليها .

الملكية اقتناع من الاخرين ، أكثر من الورق والمستندات ، والعرف العام أقوى من أى قانون ، وأكثر تأثيرا من الحكومة نفسها ، والناس تنصاع له قبل أن تنفذ أوامر الميرى وإشارات العمدة وتعليمات المأمور ، سيراه الناس والجاموسة معه ، وسيتوقف أكثر من مرة ليتكلم مع الناس دون أن يلمح لموضوع الجاموسة ولا لحكاية عبده بركات ، حتى لا يشك الناس فى نواياه .

بعد أن يخلص من موضوع الجاموسة ، سيذهب إلى الحاج راشد ، المشهور فى العب كله بأنه يعقد ويقيم قعدات الرجال ، حيث يفصل فى مشاكل الناس ، ويقولون إنها قعدة حق عرب . نطاط الحيطان كان يدرك أن الذى يجرى ويشتكى أولا ، ينظر له الناس على أنه مظلوم ، والذى يتباطأ فى الشكوى يقولون عنه إنه ظالم .

من يجرى شـــاكيا لابد أنه قلق وتعبان ، لسعة ظلم الآخرين ، أما الذى ينام ، ينفخ بطنه ، ويتكرع ويظرط ويجيص ويشرب الشاى ويدخن السجائر وينفخ دخانها فى العلالى ، يصبح ظالما .

هذا ما تعلمه سى حسين أبو لحسين من الايام والليالى ، والتعامل مع خلايق الله . سيشكو أولا . حيث ينطبق عليه المثل الذى يقول : ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى . سيشكون لكل الناس فى الناحية ، حتى المتلطعين على المصاطب ، أمام دكان البقالة ، وحول الجامع ، فالجاموسة لن تخرج من بيته حتى لو أحضر عبده بركات جهازا جديدا مع استحالة أن يحضره . الجهاز غير موجود فى بر مصر ، وإن كان موجودا ، لن يكون معه ثمنه ، وإن دبر ثمنه وحوشه لن يجد الجهاز ، أما عن اصلاح جهازه ، فهل من المعقول أن ينصلح المكسور ويعود كما كان ؟

الحكاية أصبحت ولا حكاية البيضة والكتكوت .

أفاق عبده بركات يبحث عن المرسال ، أمله الوحيد ، أين هو ؟ طلع النهار فاختفى المرسال . سأل نفسه ، وسأل الآخرين وجدران البيت وهواء وسط الدار وتراب الأرض عن المرسال ، وقف أمام طوب الجدران وطين الحارة ودود الأرض ، والدهليز ، لم يجد الجاموسة فى الزريبة حتى يسألها ، خرج ليسأل الناس والشجر والسماء والعصافير والأطفال عن المرسال . ضرب الناس كفا بكف :

– عبده بركات جاله لطف .

أعاده الناس إلى بيته :

– وحد الله ، عمر ربك ماحايسيب عبده لايص .

لطم خدوده :

– بس ألاقيه .

سأل أولاده عن اسم الضيف ، بلده ، عنوانه ، حتى يكتبوا له مكتوبا ، أو يشدوا له تلغرافا أو يدقوا تليفونا ، أو يذهب اليه أحد من أبنائه .

ترك موضوع الجهاز والجاموسة ونطاط الحيطان ، ويده التى تنز منها الدماء ، ولم يهتم سوى بالضيف الذى ضاع فى اللحظة النحس التى أفقدتهم كل شىء مرة واحدة ، : الجهاز والجاموسة وابنهم الذى ضاعت آخر فرصة للاتصال به ، بفقدهم الضيف .

اكتشف أن الضيف قطع بنفسه ، مشى وكأنه لم يوجد أصلا ، لا يتذكرون اسمه ولا يعرفون عنوانه . لم يجد حتى التراب لكى يشيله على رأسه ، شق جلبابه الوحيد الجديد الذى لبسه بسبب حضور الضيف . ضرب الرجال كفا بكف :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

والنساء بكين :

– ياكبدنا عليه ، غرباوى مالوش جذور .

ما من غريب يأتى إلى العتقا ، حتى يكون هذا هو مصيره .

كانت ذاكرة عبده بركات مجروحة ، عقد العمل ، الغريب الذى جاء الأموال التى أخذها منهم . قال بركات لوالده : إن الذهب فى تلك البلاد البعيدة يملأ الشوارع ، كل المطلوب ان تنزل وتلم الذهب حتى يتراكم عندك وتعود . قال بركات إنه سيعود ليغطى البيت بالذهب الأصفر والذهب الأبيض .

– وهو فيه دهب أبيض يابركة ؟!

وبركة هو الاسم الذى ينادونه به فى لحظات الصفاء النادرة :

– وهو الاصفر دهب ؟!

– امال ايه ؟

– دا دهب أيامنا الفالصو ، الدهب الأبيض هو الحقانى .

تذكر عبده بركات ان بيته لا توجد فيه قطعة دهب واحدة .

جاء الطويل الهبيل إلى عبده بركات . بدا أطول من أى وقت شاهدوه فيه من قبل . بدا وكأنه له رجلان مركبان فوق بعضهما ، سمانتا بطنى رجليه تبدو أن مثل بطون أرجل النسوان . يقول عنه الرجال والنساء فى العتقا ، إنه يضع الكحل فى عينيه والأحمر فى شفتيه ويساوى ذقنه بعناية ودلال .

يرتدى دائما جلبابا طويلا ، فى حجم الحرام الصوف ، يربطه من وسطه، فيتحول أعلاه إلى عب ، يضع فيه ما يرسله له الله من رزق ، وان كان رجال العتقا ، يقولون لأطفالهم أن عبه ممتلىء بالثعابين والحيات ، والأطفال يصدقون ذلك لأن عبه يتحرك دائما .

جاء الطويل الهبيل إلى بيت عبده بركات ، فقال الناس :

– اتلم المنحوس على خايب الرجا .

قال آخرون :

– آه من الغربا عليكى ياعتقا .

وقف فى الحارة ، وفى يده عصاه ، التى يقولون فى العتقا ، إنها عبارة عن شجرة جازورين كاملة ، أبقاها كما هى ولكن بعد أن قطعت أفرعها . خبط العصا على الأرض :

– يا ساتر .

خرجت ست أبوها ، رأته ، خبطت صدرها :

– كملت .

قالت :

– ما كانشى ناقصنا غيرك .

نظر إلى السماء ، التى كان وجهه قريبا منها ، تطلع حوله ، فهو أسقف البيوت عندما يتحرك فى الحوارى . لم يبد عليه أنه سمع ست أبو أشار لها بالعصا :

– ابعتى لى بلدياتى يا حرمة .

دخلت وهى تغلى فى نفسها :

– بس لو كان لك بلد أنت والا هوة .

خرج عبده بركات دائخا متعبا ولكنه تنبه بمجرد أن قال له الطويل الهبيل

– أنا شفت مرسالك ياغريب .

– أمتى وفين يا غريب ؟!

عبده بركات هو الوحيد الذى يقول له الغريب ، ولا ينطق بالاسم الذى يناديه به الناس فى العتقا «الطويل الهبيل» ولا حتى بأى اسم من الأسماء التى يطلقها هو على نفسه . يناديه عبده بركات دائما :

– ياغريب فيرد عليه : يا ابن عمى . يقول أحيانا : يازندى . وفى أحيان أخرى : يادراعى . سأله عن المرسال :

– راح فين ؟

رد عليه :

– بلاد الله واسعة .

كان ذلك وقت الفجر ، ديوك الاعيان الحرامية أذنت . ديوك عفية تسرق أكلها مثل أصحابها . أما فراخ الغلابة فكانت نعسانة من التعب . سكرانه من الجوع والعطش . زهقانه من الحر والزحمة والزنقة .

قال الناس ، إن الهبيل ، عرف أن الله حق وان محمدا رسوله ، وان العاقل جاءت له شوطة الجنون . استمر عصا موسى يحكى . قابلته فى جامع سيدى الغريب ، لحظة خروجه من الميضأة ، طالعتنى هالة من الضوء النورانى الباهر ، الذى لم يره أحد من قبل . أولها فى الأرض وآخرها فى السماء .

تحركت باتجاه المرسال ، وتوقف هو ، فوقفت هالة الضوء ، رفع يمناه يظلل بها وجهه . جاء موكب النور من الميضة أو من مقام سيدى الغريب ، أو من المنبر ؟ الله أعلم . نور الغريب كان أم نار العفاريت ؟

لا أحد يدرى ، ولكن المرسال بدا جسمه يسبح فى بحار النور الربانى عق بعزم الصوت :

– عطشان ، عرقان ، حران .

رفع يده نحو السماء ، وهالة الضوء سارت باتجاه بحر النيل ، خطوة عدة وكانت هناك ، فى لمح البصر قطعت المسافة ، يقسم هدهد العتقا أنه اهد الشاب يسبح فى الهواء ، مقتربا من السماء . سأل الواقفين فى الحارة ، كانوا قد شاهدوا هذا المنظر ، فقال الرجال فى صوت هامس :

– الطف بنا يا رحمن يا رحيم .

قال عبده بركات انه سيذهب مع ابن عمه الغريب إلى بحر النيل ، فقالت ت أبوها :

– أصحاب العقول فى راحة .

ضحك الناس ، وكانت المرة الأولى التى يضحكون فيها فى هذا اليوم

قال يمامه البنى ، إن المرسال صعد إلى سابع السماء ، أو نزل إلى سابع أرض

قال عبده بركات :

– دى علامات

أكد عبده بركات لاولاده ، ان المرسال هو دليله الوحيد إلى ابنه ، وسيصعد له إلى سابع سماء ، أو ينزل له إلى سابع أرض .

صاح فيه ابن عمه الغريب :

– يا مجنون دى أرواح

طلب من الواقفين حولهما قراءة الفاتحة ، وترتيل الصمدية فى سرهم قال والزبد يغطى شفتيه :

– اللهم أجعل كلامنا خفيفا على قلوبهم .

صرخ فى عبده بركات قائلا :

– أرواح هايمة .

شرح للواقفين ان هذه الأرواح ، ربما كانت حولهم الآن ، يروننا ولا نراهم يسمعون ما نقوله ولكن اذاننا مغلقة دونهم ، تصلهم دقات القلوب ، ويعرفون ماتجيش به الصدور .

سار عبده بركات بمفرده نحو جسر البحر العالى ، والولد عصاية قال إ وراءه بعض المشاوير فى العتقا ، ثم سيحصله هناك ، طلبت الناس من هذا العتقا أن يمشى معه ، وان يؤجل مشاويره ، وهم سيكونون معهما من بعيد يكفى ما حصل لبركات ، بدلا من أن يصبح الأمر موتا وخراب ديار .

قال عبده بركات :

– مابدهاشى ، نروح له .

قبل ان يمشى ، طلب عبده بركات من عسران أن يبحث فى الدار عن أى دليل تركه المرسال ، وكلف مرشدى أن يسأل أهل العتقا واحدا واحدا عن اسم الضيف الكامل وعنوانه . نبه على ست أبوها بضرورة الاحتفاظ بأى أثر تركه الضيف ، ربما يوصلهم اليه .

لم يعد لديه ما يشغله ، سيحضر أسامة علوان من بطن أمه ، أو من فوق السحاب . كان عبده بركات يدب على الأرض بقدميه فى سيره ، ويطوح يديه فى الهواء ، ويتفتف وهو يكلم نفسه ، فمصمص الناس بشفاهم وهم يتمتمون بالدعوات ان يجعل الله العواقب سليمة أما عبده بركات فقد سار فى طريقه .

دخلت ست أبوها البيت ، جمعت أجزاء الشريط المكسرة ، وكل قطعة من الجهاز ، أخذتها ولفتها فى لباسها ، ربطت فتحتى الرجلين وككت الدكة ، حتى تربطه بعد أن تضع فيه كل قطعة . ستصلح الجهاز والشريط وتستمع إلى رسالة ابنها .

لفت فى أرجاء المندرة ، جلست على الأرض ، تحسست بيديها أرض وسط الدار ، خرجت إلى عتبة الدار ، وصلت حتى الحارة ، كل ما وجدته أخذته ، لباسها طاهر مغسول لم تلبسه وهى لا تجيئها المشاهرة منذ سنوات .

يقولون عن ست أبوها فى العتقا ، إنها عمرها ما بكت ، وفى خلال كل ما جرى ، ما نزلت دمعة واحدة من عينيها . جلست تجتر ذكرياتها ، وتحاول استحضار صورة بركات التى تخشى عليها من التآكل ، وتجرى هاربة بعزم قواها ، أمام بطء مرور الأيام والليالى . ومن وجه الجنون الذى يتمثل فى الا يعود بركات اليهم .

كانت موجودة فى كل مكان فى البيت ، وكانت تشعر برغبة فى أن تفرغ قلبها من كل الكلمات المتراكمة فيه ، ثم جاءتها الدمعة الأولى . جاشت نفسها ، شعرت وكأنها تلد لأول مرة فى حياتها .

سبقت الدموع حالة مثل طش الطلق فى البنت البكرية ، سندت ظهرها للجدار ، شعرت أن حيلها مهدود . وأحست بمقدمات الدمعة الأولى ، كانت كبيرة تدحرجت بين تجاعيد وجهها الخشن المثقل بالتجاعيد . وانتظرت شفتيها أن تصل إليها الدمعة الأولى ، لكى تتذوق طعمها الذى كان مالحا .

وبعدها جاء مطر الدموع .

B.HAMDAN

15-2-2008

مؤلفـــات
يوسف القعيد

١ – الحداد : رواية . طبعة اولى . منشورات كتاب الطليعة ١٩٦٩

طبعة ثانية : روايات الهلال ١٩٨٣ .

طبعة ثالثة : هيئة الكتــاب ١٩٨٧ .

٢ – أخبار عزبة المنيسى : رواية . طبعة اولى . هيئة الكتاب ١٩٧١ .

طبعة ثانية : روايات الهلال . مارس ١٩٨٥ .

طبعة ثالثة : دار ســعاد الصبــاح ١٩٩٢ .

٣ – أيام الجفاف : قصة طويلة . طبعة أولى . مكتبة مدبولى القاهرة .

دار العودة – بيروت ١٩٧٣ .

طبعة ثانية : دار الشروق – ١٩٩٢ .

٤ – البيات الشتوى : رواية . طبعة أولى . روايات الهلال . ١٩٧٤ .

طبعة ثانية ، مكتبة مدبولى ١٩٨٦ .

٥ – فى الاسبوع سبعة أيــام : قصة طويلة ، طبعة أولى . هيئة الكتــاب اكتوبر ١٩٧٥ .

طبعة ثانية : مكتبة مدبولى ١٩٩٢ .

٦ – طرح البحر : قصص قصيرة ، طبعة أولى روايات الهلال . ١٩٧٦ .

طبعة ثانية . هيئة الكتاب ١٩٩٠ .

٧ – يحدث فى مصر الآن : رواية . طبعة أولى . (على نفقة المؤلف) ١٩٧٧ .

طبعة رابعة . دار المستقبل العربى ١٩٨٦ .

ترجمت إلى الروسية والعبرية .

٨ – الحرب فى بر مصر : رواية . طبعة أولى : دار ابن رشد بيروت ١٩٧٨ .

طبعة خامسة مكتبة مدبولى ١٩٩١ .

ترجمت إلى الروسية والاوكرانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والالمانية والعبرية .

٩ – حكايات الزمن الجريح : قصص قصيرة . طبعة أولى . وزارة الاعلام والثقافة – العراق ١٩٨٠ . طبعة ثانية ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٢ . طبعة ثالثة . هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١٠ – تجفيف الدموع : قصص قصيرة . طبعة أولى . هيئة الكتاب ١٩٨١ .

طبعة ثانية ، هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١١ – شكاوى المصرى الفصيح : ثلاثية .

الجزء الأول : نوم الاغنياء . طبعة أولى . دار الموقف العربى ١٩٨١ .

طبعة ثانية : دار المسيرة – بيروت ١٩٨٢ .

طبعة ثالثة : دار الشروق ١٩٨٩ .

١٢ – الجزء الثانى : المزاد ، طبعة أولى ١٩٨٣ . دار المستقبل العربى .

طبعة ثانية ، دار الشروق ١٩٨٩ .

١٣ – الجزء الثالث : أرق الفقراء . طبعة أولى ، دار المستقبل العربى ١٩٨٥ .

طبعة ثانية دار الشروق ١٩٨٩ .

١٤ – قصص من بلاد الفقراء : قصص قصيرة ، طبعة أولى روايات الهلال . ١٩٨٣ . طبعة ثانية هيئة الكتاب١٩٩١ .

١٥ – من يذكر مصر الاخـــرى ؟ : قصص ، طبعـــة أولى وزارة الثقـــافة . سوريا ١٩٨٤ .

طبعة ثانية : مكتبة مدبولى ١٩٩٢ .

١٦ – من يخاف كامب ديفيد ؟ : قصة طويلة . اتحاد الكتاب العرب – دمشق . طبعة أولى ١٩٨٥ .

طبعة ثانية : مكتبة مدبولى ١٩٩٢ .

ترجمت إلى الروسية .

١٧ – الضحـك لم يعد ممكنا : قصص قصيرة . الطبعة الأولى . مختارات فصول . هيئة الكتاب يناير ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١٨ – القلوب البيضـاء : رواية . طبعة أولى ، دار الشروق ١٩٨٧ .

طبعة ثانية . دار الشئون الثقافية العامة . بغداد ١٩٨٩ .

١٩ – بلد المحبوب : رواية . طبعة أولى . دار الشروق عمان . الاردن . ١٩٨٧ .

طبعة ثانية .. دار سعاد الصباح. القاهرة والكويت١٩٩١ .